رواية

مكتبة ١٢٣٦

فيليب كيندرد ديك

الرجلُ في القلعة العالية

د. رشا صادق

الرجلُ في
القلعة العالية

مكتبة | ١٢٣٦

روايـــة

Author: **Philip Kindred Dick**	اسم المؤلف: فيليب كيندرد ديك
Title: **The Man in the High Castle**	عنوان الكتاب: الرجلُ في القلعـة العالية
Translated by: **Dr. Rasha Sadek**	ترجمة: د. رشـا صـادق
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2022**	الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

THE MAN IN THE HIGH CASTLE

Copyright © 1962, Philip K. Dick
Copyright renewed © 1990, Laura Coelho, Christopher Dick and Isa Dick
All rights reserved

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800 بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
+ 964 (0) 790 1919 290 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

٢٠٢٣٩٢ مكتبة
t.me/soramnqraa

فيليب كيندرد ديك

مكتبة | ١٢٣٦

الرجلُ في القلعة العالية

ترجمة: د. رشا صادق

إهداء المؤلّف:

إلى زوجتي تِسا، وابني كريستوفر
مع حبّي الغامر

فيليب كيندرد ديك

فيليب كيندرد ديك (1928-1982) مؤلّف أمريكيّ كتب في مجال الخيال العلميّ، ألّف أربعاً وأربعين رواية، ومئة وإحدى وعشرين قصّة قصيرة، نُشرَ معظمها خلال حياته، تناولت ثيمات فلسفيّة واجتماعيّة، وقضايا كالواقع البديل، احتكار الشركات الكبرى، الإدمان على المخدّرات، الحكومات الاستبداديّة، الوعي، الهويّة، وغيرها.

من أشهر الأفلام المقتبسة عن رواياته: The Bladerunner (1982)، Total Recall (1990، من ثمّ في عام 2012)، Minority Report (2002). في عام 2015، بدأت مؤسّسة أمازون بإنتاج مسلسل تلفزيونيّ مستوحى من رواية «الرجل في القلعة العالية»، كما قامت القناة الرابعة Channel 4 في عام 2017 بإنتاج سلسلة «أحلام إلكترونيّة»، المقتبسة عن مجموعة من قصصه.

كُرِّم فيليب كيندرد ديك بجوائز عديدة، منها جائزة هيوغو Hugo Awards عام 1963 عن هذه الرواية.

تنويه

برؤية فيليب كيندرد ديك في هذه الرواية، تُهزَم روسيا والحلفاء في الحرب العالميّة الثانية، وتنتصر ألمانيا واليابان اللتان تحتلّان الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وتقسّمانها إلى:

أ) الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة: في الساحل الغربيّ المحاذي للمحيط الباسيفيكيّ (الهادئ)، تحتلّها اليابان.

ب) ولايـات جبال روكـي: في الوسط، تُعَدّ منطقة عازلة بين القوّتين العظميين.

جـ) الساحل الشرقيّ الذي تحتلّه ألمانيا، يُقسم إلى «الولايات المتّحدة» في الشمال الشرقيّ التي تخضع لحكومة صوريّة تابعة للنازيّين، وولاية «الجنوب» في الجنوب الشرقيّ، التي يحكمها نظام عنصريّ متعاون مع النازيّين.

معظم الشخصيّات المذكورة -خاصّة تلك التي تنتمي إلى الحزب النازيّ- هي شخصيّات حقيقيّة لعبت دوراً في مسار التاريخ، وكذلك الأحلاف والمعاهدات والاتّفاقات والبرامج الحكوميّة... إلخ، لكنّ المؤلّف يتلاعب بها ويسوقها في واقع بديل مختلف.

في متن هذه الرواية، سأستخدم عبارة «الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة» كبديل عن «الولايات الأمريكيّة الواقعة على ساحل المحيط الهادئ» توخيّاً للاختصار.

المترجمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

-1-

تفحّص السيّد تِشلْدِن بريده الوارد بقلق طيلة الأسبوع، لكنّ الشحنة الثمينة لم تصله من ولايات جبال روكي بعد. عندما فتح متجره صباح يوم الجمعة، ولم يجد سوى رسائل مبعثرة على الأرض أمام الباب، فكّر: «سيغضبُ الزبون!».

وضع خمسة بنسات في آلة الشاي الفوريّ المثبّتة بالجدار، وسكب لنفسه كوباً، ثمّ تناول مكنسة وبدأ بالتنظيف. سرعان ما أصبحت «شركة المصنوعات اليدويّة الأمريكيّة الفنيّة المحدودة» نظيفة تلمع، وجاهزة لبدء العمل. صندوق الكاش مليء بالفكّة، هناك مزهريّة مليئة بأزهار الماري غولد المقطوفة للتوّ، والموسيقا تصدح من الراديو. في الخارج، هرول رجال الأعمال على الرصيف، مسرعين إلى أشغالهم في شارع مونتغومري، ومرّت عربة ترام في البعيد، فتوقّف الأطفال لمشاهدتها فرحين. النساء، بفساتينهنّ الحريريّة الملوّنة الطويلة... تأمّلهنّ أيضاً، وعندها رنّ الهاتف فاستدار ليردّ.

«نعم» قال صوت مألوف، فغاص قلب السيّد تشلدن بين أضلاعه.

«أنا السيّد تاغومي. هل وصل بوستر التجنيد للحرب الأهليّة الذي طلبتُه يا سيّد؟ لطفاً، تذكّر أنّك وعدتني بالحصول عليه في الأسبوع الفائت». كان الصوت حادّاً، مُتطلّباً، بالكاد ينمّ عن لباقة أو تهذيب. «ألم أدفع لكَ سلفة يا سيّد تشلدن، بناء على ذلك؟ البوستر هديّة كما تعرف، لقد أوضحتُ لكَ هذا، هدية لأحد عملائي».

«لقد أجريتُ استعلامات مسهبة» بدأ تشلدن، «على حسابي الخاصّ يا

سيّد تاغومي، بخصوص الطرد الذي وعدتكَ به، لكنّه سيصل من خارج هذه المنطقة كما تعرف، ولذلك...»

لكنّ تاغومي قاطعه: «إذن، لم يصل بعد».

«كلّا يا سيّد تاغومي».

سادت لحظة صمت جليديّة

«لا يسعني الانتظار أكثر»، قال تاغومي.

«كلّا يا سيّدي» قال تشلدن وهو يحدّق بأسى عبر نافذة المتجر إلى النهار المشرق الدافئ، وعمارات المكاتب في سان فرانسيسكو.

«أريد بديلاً إذن! بماذا تنصحني يا سيّد تشيل-دان؟». لفظ تاغومي الاسم خطأً عن عمد، كي يهينه بلباقة، فأحسّ تشلدن بأذنيه تحترقان. لقد أوضح تاغومي من هو سيّد الموقف هنا، وهو ما فاقم الإهانة المرعبة! تعالت آمال روبرت تشلدن، ومخاوفه، وعذاباته، وانكشفت، وأغرقتْه، وعقدتْ لسانه. أخذ يتأتئ، وغمر العرق يده التي تمسك بسمّاعة الهاتف. متجره يعبق برائحة الماري غولد، والموسيقا تصدح، لكنّه شعر كأنّه يسقط في بحر بعيد.

«حسناً...» استطاع أن يغمغم، «آلة خضّ الزبدة وتحضير البوظة، تعود إلى حوالي عام 1900»، ثمّ رفض دماغه أن يفكّر... بعد أن تنسى كلّ ما سبق، بعد أن تنجح بخداع نفسك[1]! إنّه في الثامنة والثلاثين، ويتذكّر أيّامَ ما قبل الحرب، الزمنَ الآخر، وفرانكلين. د. روزفلت، والمعرض العالميّ: العالَم السابق الأفضل. «هل لي أن أجلب بعض النماذج الجميلة إلى مكان عملك؟»، قال.

حدّدا موعداً في الساعة الثانية بعد الظهر، فأدرك أنّه سيضطرّ لإغلاق المتجر ما إن أنهى المكالمة. لا خيار أمامه، إنّه مضطرّ لإرضاء الزبائن من أمثال تاغومي، لأنّ عمله يعتمد عليهم.

وقف مرتجفاً، وانتبه أن شخصاً ما، بل زوجان بالأحرى، دخلا المتجر. رجل وامرأة في ريعان الشباب، كلاهما وسيمان، أنيقان، ومثاليّان. هدّأ

1- ينتقل الكاتب دون تمهيد من السرد، إلى الأفكار التي تدور في رأس الراوي بضمير المتكلّم. المترجمة

نفسه، وتحرّك باحترافه المعهود صوبهما، وهو يبتسم. لقد انحنيا لتفحّص ما يعرضه في إحدى الخزائن، وانتقيا منفضة سجائر جميلة. متزوّجان، خمّن، يعيشان هناك في مدينة ويندنغ ميستس، في الشقق الجديدة الحصريّة تلك، في شارع سكايلاين المطلّ على بلمونت.

«أهلاً بكما» قال، وشعر بأنّه في حال أفضل. ابتسما له بلطف محض، دون استعلاء. بضائعه، وهي حقّاً الأفضل من نوعها في الساحل، قد أدهشتْهما قليلاً على ما يبدو. أدرك ذلك وشعر بالامتنان لهما: إنّهما يفهمان.

«قطع ممتازة بالفعل، يا سيّد!»، قال الشابّ.

انحنى تشلدن تلقائيّاً. الدفء يشعّ من أعينهما، لا دفءُ الرابطة الإنسانيّة فحسب، بل دفء الاستمتاع المشترك بالقطع الفنيّة التي يبيعها، والذوقِ والرضا المتبادَلين. ظلّت أعينهما مركّزة عليه، تشكره لأنّه يملك قطعاً كهذه يعرضها عليهما، ممّا يتيح لهما الإمساك بها، وتأمّلها، وتفحّصها، وتقليبها، دون أن يضطرّا لشرائها. أجل، فكّر، إنّهما يدركان أيّ نوع من المتاجر هو هذا: ليس متجراً يبيع الخردة للسيّاح، ولا من النمط الذي يعلق لافتة من خشب الصنوبر مكتوباً عليها: «غابة موير، مقاطعة مارين، الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة»، ولا يعرض رموزاً طريفة ولا خواتم بنّاتيّة، ولا بطاقات بريديّة، ولا صوراً للجسر. عينا الفتاة سوداوان واسعتان! كم من السهل، فكّر تشلدن، أن أقع بحبّ فتاة مثلها... وكم ستكون حياتي مأساويّة عندها، كأنّها ليست رديئة بما يكفي حاليّاً! شعرها الأسود المصفّف، أظافرها المطليّة، والقرطان الطويلان النحاسيّان المصنوعان يدويّاً، اللذان يتدلّيان من أذنيها...

«قرطاك...» غمغم، «هل اشتريتهما من هنا؟»

«كلّا» أجابت، «من الوطن».

هزّ تشلدن رأسه. في متجر كمتجره هذا، لا يمكن أن يُعرَض فنٌّ أمريكيّ معاصر، بل فنّ الماضي فقط.

«هل ستمكثان طويلاً في مدينتنا سان فرانسيسكو؟»، سألهما.

«سأبقى هنا إلى أجل غير مسمّى» قال الشاب، «مع لجنة التحقيق في معايير الحياة ضمن مخطّطات المناطق الفقيرة»، وعلا الفخرُ وجهَه.

إنّه ليس عسكريّاً إذن، ليس أحد أولئك المجنّدين الفقراء الذين يتشدّقون بالعلكة، من ذوي الوجوه الريفيّة الطمّاعة، الذين يتجوّلون في شارع ماركت منبهرين بالاستعراضات الجامحة، وأفلام الجنس، وغاليريهات الرماية، والنوادي الليليّة الرخيصة التي تعرض صور شقراوات في منتصف العمر، يمسكن حلماتهنّ بأصابعهنّ المغطّاة بالتجاعيد وينظرن بشبق... نوادي الجاز الرخيصة تلك، التي تشكّل معظم الجزء المسطّح من سان فرانسيسكو، هي عبارة عن أكواخ متقلقلة مبنية من القصدير والألواح، انبثقت من الأنقاض حتّى قبل أن تنتهي الحرب. كلّا، هذا الرجل ينتمي إلى النخبة، مثقّف، متعلّم، وربّما يتفوّق بعلمه وثقافته على السيّد تاغومي، على الرغم من أنّ هذا الأخير هو موظّف رفيع المستوى ضمن «لجنة التجارة السامية في الساحل الباسيفيكيّ»، رجل عجوز تقولبت شخصيّته في زمن المجلس الحربيّ.

«هل تودّان شراء قطع من الفنّ الإثنيّ الأمريكيّ التقليديّ كهديّة؟» سأل تشلدن، «أم لعلّكما ترغبان بتزيين شقّتكما الجديدة هنا؟». خفق قلبه وهو يفكّر بالخيار الثاني!

«لقد حزرتَ!» أجابت الفتاة، «لقد بدأنا بتزيين شقّتنا، لكنّنا لم نختر الطراز بعد. هل تعرض علينا بعض المقترحات؟».

«بوسعي أن أرتّب موعداً لزيارة شقّتكما، أجل» قال تشلدن، «سأجلب العديد من النماذج معي، وأقترح عليكما ما يناسب المكان وما يعجبكما. هذا، بالطبع، ما نتميّز به في متجرنا». غضّ بصره كي يخفي لهفته، صفقة كهذه قد تدرّ عليه آلاف الدولارات. «ستصلني طاولة من نيو إنغلاند، من خشب القيقب، بأرجل خشبيّة بالكامل، من دون مسامير. إنّها في غاية الجمال والفخامة! كما ستصلني مرآة تعود إلى عهد حرب عام 1812، وكذلك قطع من فنّ السكّان الأصليّين: حصائر منسوجة من شعر الماعز، مصبوغة بأصبغة نباتيّة».

«أنا شخصياً» قال الشابّ، «أفضّل الفنّ الحضريّ».

«أجل!» قال تشلدن بلهفة، «اسمعني يا سيّدي، لديّ لوحة جداريّة من

حقبة الخدمة البريديّة في «إدارة تطوير العمل»، أصليّة، منفّذة على لوح خشبيّ، ومقسّمة إلى أربعة أجزاء، تصوّر هوراس غريلي[2]. إنّها لا تقدّر بثمن بالنسبة لهواة جمع القطع الفنيّة».

«آها!»، قال الرجل وعيناه السوداوان تلمعان.

«وخزانة غرامافون[3] من طراز فِكتورولا، تعود إلى عام 1920، تمّ تحويلها إلى خزانة مشروبات كحوليّة».

«آها!»

«وأيضاً يا سيّدي، اسمع، صورة مؤطّرة موقّعة لجين هارلو[4]».

حملق الشاب به.

«هل نعدّ الترتيبات اللازمة؟» قال تشلدن مغتنماً الفرصة في اللحظة المناسبة، وأخرج قلمه ودفتره من جيب معطفه الداخليّ. «هل لي بالاسم والعنوان، سيّدي وسيّدتي؟». عندما غادر الزوجان متجره، وقف تشلدن ويداه خلف ظهره، وتأمّل الشارع. يا للبهجة! ليت العمل هكذا دائماً! لكنّ المسألة تتعدّى العمل، أو نجاح متجره. إنّها فرصة للقاء ومخالطة زوجين يابانيّين شابّين، يقبلان به، ويتعاملان معه على أنّه رجلٌ، لا مجرّد «يانكيّ» أو تاجر قطع فنيّة في أحسن الأحوال. أجل، أولئك الشباب الجدد، أبناء الجيل الصاعد الذي لا يتذكّر زمن ما قبل الحرب، ولا حتّى الحرب بحدّ ذاتها، هم أملُ العالَم، واختلاف المكان لا يعني لهم شيئاً. مفهوم المكان بحدّ ذاته سينتهي يوماً ما، فكّر تشلدن، ولن يبقى حاكم ومحكوم، بل الناس فقط... لكنّه ارتجف خوفاً، عندما تخيّل نفسه وهو يطرق باب شقّتهما.

2- Horace Greeley (1811-1873) محرّر وناشر أمريكيّ، أسّس صحيفة نيويورك تريبيون. المترجمة

3- يصنع هذا الطراز على شكل خزانة خشبيّة صغيرة فاخرة، تضمّ الغرامافون في جزئها العلويّ، مع أدراج وأقسام في الأسفل، مخصّصة لوضع الأسطوانات وزجاجات المشروب أو ما شابه. المترجمة

4- Jean Harlow (1911-1937) ممثّلة أمريكيّة اشتهرت بلقب «القنبلة الشقراء» و«الشقراء البلاتينيّة»، ظهرت في 37 فيلماً خلال حياتها الفنيّة القصيرة التي دامت عشرة أعوام، وتركت بصمتها كنجمة أفلام الجنس في هوليوود. المترجمة

تفحّص ملاحظاته: آل كاسورا. سيقدّمان له الشاي بلا شكّ بعد أن يدخل. هل سيتصرّف على نحو صحيح؟! هل سيعرف ما هو الفعل الملائم، وينطق الكلمة الصائبة في كلّ لحظة؟! أم إنّه سيخزي نفسه كأنّه حيوان، بسبب زلّة رديئة؟!

اسم الفتاة «بِتي». يا للتفّهم الذي يلوح على وجهها! فكّر، يا لعينيها اللطيفتين الودودتين! لا بدّ أنّها اكتشفت آماله وهزائمه كلّها، على الرغم من أنّها لم تقضِ وقتاً طويلاً في متجره.

آماله! شعر بالدوار فجأة. إنّها آمال جنونيّة، بل انتحاريّة! من ناحية أخرى، العلاقات بين اليابانيّين واليانكيّين ليست مستحيلة، على الرغم من أنّها تقوم عادة ما بين رجل ياباني وامرأة يانكيّة، لكنّ هذا.... مخيف، فضلاً عن أنّها متزوّجة! انتزع عقله من مسابقة الأفكار اللّاإراديّة تلك، وانشغل بفتح بريد الصباح.

اكتشف أنّ يديه ما تزالان ترتجفان، لكنّ ارتجافهما توقّف ما إن تذكّر موعد الساعة الثانية مع السيّد تاغومي، فانقلب توتّره إلى عزيمة. ينبغي أن أعرض عليه شيئاً مقبولاً، قال لنفسه، لكن أين، وكيف، وماذا؟! بفضل اتّصالاته الهاتفيّة، ومصادره، وإمكانيّاته، سينبش سيّارة فورد موديل 1929 مُرمَّمة، ذات سقف قماشيّ متحرّك أسود اللون، وسيُعَدّ هذا انتصاراً ساحقاً يضمن له ولاء زبونه للأبد! أو طائرة بريد متداعية أصليّة، ذات محرّك ثلاثيّ، عُثِرَ عليها في حظيرة في آلاباما... إلخ، أو رأس السيّد بوفالو بيل المحنّط، بشعره الأبيض المتطاير، وهو تحفة فنيّة أمريكيّة عاطفيّة، ستجعله مشهوراً في أرقى أوساط النخبة على ساحل المحيط الهادئ، بل وفي جزر الوطن[5] أيضاً!

5- ظهر هذا المصطلح بعد هزيمة اليابان في نهاية الحرب العالميّة الثانية، للإشارة إلى المناطق اليابانيّة التي ستبقى خاضعة لحكم الإمبراطور. يشير في الرواية إلى أرخبيل الجزر اليابانيّة الأمّ، لتمييزها عن المستعمرات اليابانيّة، كالولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة. المترجمة

أشعل سيجارة ماريجوانا من ماركة لاند -أُو- سمايل الفاخرة، كي يستمدّ بعض الإلهام.

***

كان فرانك فرينك مستلقياً على سريره في غرفته في شارع هايس، وهو يفكّر كيف سينهض. الشمس تخترق الستائر، وتسطع على كومة الملابس التي سقطت على الأرض بجانب نظّارته. هل يدوس عليها؟ سأحاول أن أصل إلى الحمّام من الجهة الأخرى، فكّر. سأزحف، أو سأتدحرج. رأسه يؤلمه، لكنّه لا يشعر بالحزن. لن أنظر إلى الوراءَ! قرّر، ما هي الساعة؟ المنبّه على طاولة الزينة يشير إلى الحادية عشرة والنصف. يا للسماوات! لكنّه ظلّ مستلقياً.

لقد طردوني! فكّر.

ارتكب غلطة البارحة في العمل، وقال ما لا يجدر به قوله للسيد ويندام-ماتسون، وهو رجل ذو وجه مقعّر، وأنف أفطس، يلبس خاتماً ماسيّاً، ويملك ثروة. بعبارة أخرى، إنّه رجل ذو سلطة وعرش.

شرد فرينك بأفكاره بعيداً.

أجل، فكّر، والآن سيضعونني على القائمة السوداء. مهاراتي لم يعد لها قيمة، كما أنّني خسرتُ وظيفتي. خبرة خمسة عشر عاماً، تبخّرت كليّاً.

فضلاً عن ذلك، ينبغي عليه أن يمثل أمام لجنة إعفاء العمّال من المسؤوليّة، التي ستعيد النظر في فئة عمله. لم يتمكّن يوماً من تحديد طبيعة علاقة ويندام-ماتسون مع البينوكسيّين[6] -حكومةُ البِيض الدميةُ في ساكرامنتو- ولذلك فهو لا يفهم قدرة ربّ عمله السابق على التلاعب بأصحاب السلطة الحقيقيّة: اليابانيّون. البينوكسيّون يديرون اللجنة المذكورة، وسيتوجّب عليه أن يمثل أمام أربعة أو خمسة رجال في أواسط العمر، بوجوههم البيضاء الممتلئة، بناء على طلب ويندام-ماتسون. إن أخفق بالحصول على إعفاء،

6- يسمّي دِك أفراد الحكومة بـ Pinocs المأخوذة من بينوكيو Pinocchio، في إشارة إلى أنف العرق الأبيض الذي يكون عادة أطول وأكثر بروزاً من أنف العرق الآسيوي. المترجمة

سيتوجّه إلى إحدى «لجان تجارة الاستيراد والتصدير» التي تدار من طوكيو، وتنتشر مكاتبها في أرجاء كاليفورنيا، أوريغون، واشنطن، وأجزاء من نيڤادا، بما في ذلك الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، لكن إن فشل بالحصول على استرحام هناك...

قلّب الخطط في رأسه وهو مستلق في سريره، يحدّق بالمصباح العتيق المثبّت بالسقف. لربّما يتسلّل إلى ولايات جبال روكي، لكنّها تتحالف على نحو واهٍ مع الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، وقد ترحّله. ماذا عن الجنوب؟ اقشعرّ بقرف. كلّا، ليس الجنوب. المجال الذي سينفتح له هناك كرجل أبيض، يفوق كثيراً ما يلاقيه هنا في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، لكنّه لا يريد هذا النوع من الأمكنة! الأسوأ من ذلك، هو أنّ الجنوب يرتبط بشبكة علاقات معقّدة، اقتصاديّة وإيديولوجيّة وما لا يعلمه إلّا الربّ، مع الرايخ، وفرانك فرينك يهوديّ.

اسمه الحقيقيّ كان فرانك فينك. وُلِد في نيويورك على الساحل الشرقيّ، تمّ سوقه عام 1941 إلى التجنيد في جيش الولايات المتّحدة الأمريكيّة، بعد انهيار روسيا مباشرة. من ثمّ، بعد أن احتلّ اليابانيّون هاواي، أرسلوه إلى الساحل الغربيّ حيث بقي بعد انتهاء الحرب، أي في الجزء الياباني من المستعمرات، وما يزال هناك الآن، بعد خمسة عشر عاماً.

في «يوم الاستسلام» عام 1947، كان مهتاجاً، وأقسم على الانتقام من اليابانيّين لأنّه يكرههم بشدّة. دفن أسلحته العسكريّة على عمق عشرة أقدام تحت أرضيّة القبو، بعد أن زيّتها ولفّها بإحكام، انتظاراً لليوم الذي سيثور فيه هو ورفاقه. بأيّ حال، الزمن يشفي الجراح كلّها، وهو ما لم يتوقّعه. عندما يفكّر بالأمر الآن، بالمجزرة الكبرى تلك، بذبح البينوكسيّين وأسيادهم، يشعر كأنّه يتصفّح إحدى حوليّات مدرسته الثانويّة، حيث يعثر على صورة لطموحات عهد الصبا: فرانك فينك، الملقّب بالسمكة الذهبيّة، سيصبح عالم أحفوريّات، وسيتزوّج نورما بروت التي كانت أجمل فتاة في صفّه، وقد أقسم حقّاً على الزواج منها... كلّ ما سبق هو تاريخ عتيق، أشبه بالاستماع

إلى فريد آلن[7]، أو مشاهدة فيلم من أفلام دبل يو. سي. فيلدز[8]. لا بدّ أنّه تبادل الحديث مع ستمئة ألف ياباني منذ عام 1947، ورغبته بارتكاب فعل عنيف ضدّ أحدهم، أو ضدّهم جميعهم، تلاشت تماماً خلال الأشهر القليلة الأولى، ولم تعد ذات أهميّة على الإطلاق. هناك استثناء واحد، هو السيّد أومورو، الذي تحكّم بقطاع واسع من العقارات السكنيّة المؤجّرة في مركز سان فرانسيسكو، وكان مالكَ المنزل الذي أقام فيه فرانك فترة. إنّه التفّاحة العفنة، فكّر فرانك، بل سمكة قرش، رفض القيام بأعمال الصيانة رفضاً مطلقاً، وواظب على تقسيم الغرف المؤجَّرة إلى غرف أصغر فأصغر، ورفْع بدلات الإيجار. لقد استغلّ الفقراء، خاصّة المسرّحين من الخدمة العسكريّة، شبه المسحوقين، العاطلين عن العمل أثناء سنوات الكساد الاقتصاديّ في مطلع الخمسينيّات. بأي حال، تولّت إحدى لجان التجارة اليابانيّة مهمّة قطع رأس أومورو، عقاباً له على ما مارسه من استغلال، ولا أحد يجرؤ حالياً على خرق القانون المدنيّ الياباني، الذي يضمن العدالة على الرغم من قسوته وتصلّبه، وهو ما يعدّ برهاناً على نزاهة مسؤولي الاحتلال الياباني، خاصّة أولئك الذين جاؤوا بعد سقوط وزارة الحرب.

عندما تذكّر نزاهة لجان التجارة، تلك النزاهة الرواقيّة الصارمة، شعر فرانك بالاطمئنان، فلا بدّ أنّهم سيطردون ويندام-ماتسون كأنّه ذبابة مزعجة، حتّى لو كان مالك الشركة المسمّاة باسمه. آملُ ذلك، وأعتقد أنّني أؤمن بـ «الازدهار المشترَك للتحالف الباسيفيكيّ»، قال لنفسه. غريب! لو فكّر بالأيام الخوالي مجدّداً، لبدا له «الازدهار المشترَك للتحالف الباسيفيكيّ» نفاقاً علنيّاً آنذاك، وبروباغاندا جوفاء، أمّا الآن... قام من سريره، ومشى مترنّحاً إلى الحمّام، حيث اغتسل وحلق ذقنه وهو يستمع إلى نشرة أخبار الظهيرة التي يبثّها الراديو.

«دعونا لا نسخّف هذا المجهود» قال الراديو في اللحظة التي أغلق فيها فرينك حنفيّة الماء الساخن.

7- Fred Allen (1894-1956) كوميديّ أمريكيّ اشتهر ببرنامجه الإذاعيّ الساخر. المترجمة

8- W.C. Fields (1880-1946) كوميديّ وكاتب أمريكيّ، اشتهر بعروض المنوّعات. المترجمة

كلّا لن نفعل! فكّر فرينك بمرارة. إنّه يعرف عن أيّ مجهود يتحدّث الراديو تحديداً. أجل، إنّه أمر طريف في نهاية المطاف: منظر الألمان الممتعضين، ذوي الأحاسيس الباردة، وهم يتجوّلون في أرجاء المرّيخ فوق الرمال الحمراء التي لم يطأها إنسان من قبل. فرك الرغوة على وجهه، وأخذ يدندن أغنية ساخرة:

Gott, Hen Kreisleiter. Ist dies veilleicht der Ort wo man das Konzentrationslager bilden kann? Das Wetter ist so schon. Heiss, aber doch schon.[9]

قال الراديو: «يجب على حضارة الازدهار المشترك أن تأخذ وقفة قصيرة، وتفكّر ما إذا كنّا خلال سعينا لخلق المساواة المتوازنة بين الحقوق والواجبات المتبادلة، المقترنة مع الأجور العادلة...». لغة نموذجيّة من الطبقة الحاكمة! فكّر فرينك.

«قد أخفقنا بفهم الحلبة المستقبليّة التي ستدور فيها شؤون الإنسان، سواء كان إسكندنافياً، يابانيّاً، زنجيّاً...»، استمرّت ثرثرة الراديو بينما ارتدى فرينك ملابسه، وهو يدندن الأنشودة الساخرة بسعادة: الطقس جميل، جميل جدّاً، لكن لا هواء نستنشقه.

بأيّ حال، إنّها حقيقة واقعة: الولايات الأمريكيّة الباسيفكيّة لم تفكّر باستعمار الكواكب، بل تورّطت، أو بالأحرى: غاصت في وحل أمريكا الجنوبيّة. باشر الألمان ببناء أنظمة روبوتيّة عملاقة في الفضاء، بينما انشغل اليابانيّون بإحراق الأدغال في أعماق البرازيل، وتشييد أبنيّة آجريّة من ثمانية طوابق لإسكان صيّادي الرؤوس السابقين، ولم يفلحوا بإطلاق أوّل مركبة فضائيّة من الأرض، إلّا بعد أن أحكم الألمان قبضتهم على كامل المجموعة الشمسيّة. سابقاً، قيل في كتب التاريخ العتيقة الغريبة، إنّ الألمانيّين أضاعوا فرصتهم، عندما كانت بقيّة الدول الاستعماريّة تضع لمساتها الختاميّة على إمبراطوريّاتها الاستعماريّة، أمّا الآن، فكّر فرينك، فلن يبقى الألمان في المؤخّرة هذه المرّة، لقد تعلّموا درسهم.

9- يا إلهي! سيّد كريزليتر، هل هذا هو المكان الملائم لبناء معسكر اعتقال؟ الطقس جميل جدّاً، حارّ، لكنّه جميل. المترجمة

فكّر بإفريقيا بعد ذلك، وبالتجربة النازيّة هناك، فتجمّد الدمّ في عروقه لحظة، من ثمّ استأنف دورانه متردّداً.

ذلك الخراب الضخم الخاوي!

قال الراديو: «علينا أن نتذكّر بفخر، أنّنا ركّزنا على الاحتياجات المادّة الأساسيّة للشعوب في كلّ مكان، وعلى طموحاتها ما تحت-الروحانيّة التي يجب أن...»

أطفأ فرينك الراديو، ثمّ شغّله مجدّداً بعد أن هدأت أعصابه قليلاً.

اللعنة! فكّر، إفريقيا، وأشباح القبائل المنقرضة... بماذا سيستخدمون الأرض التي أُبيدَت تلك القبائل لخلقها؟ من يعرف؟! حتّى آباء الخطّة الأساسيّون في برلين، قد لا يعرفون الجواب! إنّهم مجموعة من الأوتوماتون[10]، يبنون ويعملون... يبنون؟! بل يهدمون! إنّهم غيلان خارجون من معرض أحفوريّات، مهمّتهم صنع كأس من جمجمة العدوّ، بعد أن يجتهد أفراد العائلة جميعهم باستخراج محتوياتها -الدماغ النيء- كي يأكلوها. من ثمّ، تُصنَع أدوات المائدة من عظام ساقه. من الحصافة ألّا تفكّر بأكل الأشخاص الذين تكرههم فحسب، بل أن تأكلهم من طبق مصنوع من جماجمهم. الخبير التقنيّ الأوّل؟! إنّه رجل ممّا قبل التاريخ، يلبس مريولاً أبيض معقّماً، ويجري التجارب في أحد مختبرات جامعة برلين، لاكتشاف بماذا يمكن استخدام جماجم الناس، وجلدهم، وآذانهم، وشحمهم. أجل حضرة الدكتور، اكتشفنا استعمالاً جديداً لإبهام القدم. انظر، يمكنك أن تعدّل المفصل، بحيث يتحوّل إلى ولّاعة سجائر ميكانيكيّة سريعة. ليت السيّد كراب[11] قادر على إنتاجها بالجملة...

روّعته هذه الفكرة!

10- أيّة آلة ميكانيكيّة مُبرمَجَة لاتّباع مجموعة محددة من التعليمات، بحيث تبدو كأنّها تؤدّي وظيفتها ذاتيّاً. المترجمة

11- ألفرد كراب Alfred Krupp (1812-1877) صناعيّ ألمانيّ لُقّب بملك المدافع، طوّر معملاً ورثه عن والده لصناعة مدافع فائقة الجودة من الحديد الصلب، وغيرها من الأسلحة. المترجمة

شبيهُ-الإنسان العملاقُ البدائيُّ آكلُ لحوم البشر، يزدهر الآن ويحكم العالَم من جديد. نحن نهرب منه منذ مليون سنة، فكّر فرينك، لكنّه عاد الآن، لا كمجرّد خصم، وإنّما كسيّد!

«قد نندم...» قال الصوت في الراديو، صوت رجل أصفر ضئيل من طوكيو.

يا إلهي! فكّر فرينك، كنّا نلقّب اليابانيّين -أولئك الرجال المتحضّرين، ذوي السيقان المقوّسة الأشبه بأرجل القريدس- بالقرود، على الرغم من أنّهم امتنعوا عن تشييد أفران الغاز، تماماً كما امتنعوا عن إذابة زوجاتهم إلى صمغ!

«لطالما ندمنا في الماضي على الخسائر البشريّة المرعبة، خلال هذا السعي الجنونيّ الذي وضع القسم الأضخم من البشر خارج المجتمع الشرعيّ»، قال الراديو. اليابانيّون حازمون فيما يتعلّق بالقانون، «بالاقتباس عن قدّيس غربيّ نعرفه جميعنا: ماذا يستفيد المرء لو ربح العالَم، وخسر نفسه في سياق ذلك؟!». صمت الراديو قليلاً، وتجمّد فرينك للحظة وهو يعقد ربطة عنقه: إنّه طقس التطهّر الصباحيّ.

ينبغي أن أعقد معهم صفقة هنا، أدرك، سواء كنتُ على القائمة السوداء أم لا. مغادرة الأراضي الخاضعة لليابانيّين، والرحيل إلى الجنوب أو إلى أوروبا أو إلى أيّ مكان يحكمه الرايخ، يعني موتي. يجب أن أبرم اتّفاقاً مع ويندام-ماتسون العجوز!

جالساً على سريره، وكوب الشاي الساخن إلى جواره، وضع فرينك كتاب الآي-تشنغ[12] أمامه. أخرج تسعة وأربعين عوداً من عيدان اليارو

12- I Ching يُعرَف أيضاً بكتاب التغيّرات، وهو كتاب صينيّ قديم يُستخدَم للتنجيم، يعود تاريخه إلى حوالي 500 ق. م (في مراجع أخرى يعود إلى العام 3000 ق. م). يحتوي 64 رمزاً سداسيّاً مختلفاً يدعى كلّ منها بـ«الهكساغرام» مكوّناً من ستّة خطوط أفقيّة، كلّ خطّ فيه قد يكون صحيحاً أو مكسوراً، متحرّكاً أو ثابتاً، كما يتنقّل الخطّ المتحرّك بين بقيّة الخطوط كي ينقل رسالة خاصّة. في الرواية، إمّا أن تُستخدم عيدان نبتة اليارو بطريقة معيّنة لتشكيل الهكساغرام بعد طرح تساؤل ما، أو تُقذف قطع النقود في الهواء للحصول على طرة أو نقش لتحديد نوع الخط في كلّ مرّة. من ثمّ، يعود السائل إلى الكتاب ليقرأ معنى الهكساغرام، وأيّ شرح آخر مرافق له. يمكن للمهتمّين العودة إلى الإنترنت للمزيد حول هذا الموضوع، وطريقة تشكيل الهكساغرام بعيدان اليارو،

من الأسطوانة الجلديّة، وانتظر قليلاً إلى أن تمكّن من السيطرة على أفكاره كما ينبغي، وصاغ أسئلته، ثمّ قال بصوت عال: «ماذا يجب أن أقول لويندام-ماتسون، كي أتوصّل إلى اتّفاق مقبول معه؟». كتب السؤال على اللوح، وبدأ يرمي عيدان اليارو من يد إلى يد، حتّى حصل على الخطّ الأوّل، أي على البداية. ثمانية! نصف الهكساغرامات الأربعة والستّين حُذِفَتْ لتوّها إذن. قسّم العيدان بمهارة، وسرعان ما ظهر الخطّ الثاني، ومن ثمّ الخطوط الستّة كلّها. الهكساغرام جاهز أمامه الآن، وليس مضطرّاً للرجوع إلى الكتاب كي يعرف ما هو. إنّه الهكساغرام الخامس عشر، تشه إين، أي «التواضع»: الوضيع سوف يعلو، والعالي سيصبح في الحضيض، العائلات القويّة ستُذلّ. ليس مضطرّاً إلى قراءة النصّ، لأنّه يحفظه غيباً. إنّها بشارة جيّدة، الآي-تشنغ أعطاه نصيحة إيجابيّة، لكنّ أمله خاب مع ذلك، فالهكساغرام الخامس عشر أحمق نوعاً ما، لأنّه شديد الطيبة! يجب عليه أن يتحلّى بالتواضع بطبيعة الحال، ولعلّ هناك عبرة ما في هذا الهكساغرام تحديداً، ففي نهاية المطاف، لا سلطة لديه على ويندام-ماتسون العجوز، ولا يمكنه إجباره على إعادته للعمل. لا خيار لديه إلّا أن يلتزم بنصيحة الهكساغرام الخامس عشر. إنّها لحظة من تلك اللحظات التي يتوجّب على المرء فيها أن يستعطف، أن يتمنّى، أن ينتظر متشبّثاً بالأمل، وفي الوقت المناسب سيعيده القدر إلى عمله القديم، أو سيقدّم له خياراً أفضل.

لم تظهر أمامه خطوط أخرى يقرؤها، لا تسعات ولا ستّات. جمود. استنتج هذا، وقرّر أن ينتقل إلى هكساغرام جديد.

سؤال ثانٍ إذن! عدّل جلسته، وقال بصوت عالٍ: «هل سأرى جوليانا مرّة أخرى؟». جوليانا هي زوجته، أو بالأحرى، زوجته السابقة، فقد طلّقته منذ سنة. لم يرها منذ عدّة أشهر، ولا يعرف أين تقيم حالياً، فقد غادرت سان فرانسيسكو على ما يبدو، أو لعلّها غادرت الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة بأسرها، وأصدقاؤهما المشترَكون لا يعرفون عنها شيئاً، أو أنّهم لا يريدون إخباره.

وكيف تُحذف وتضاف، نظراً لأنّ شرح معنى الهكساغرامات الموجودة في الرواية يتعدّى غاية هذه الهوامش. المترجمة

حرّك عيدان اليارو باستعجال، وعيناه مثبّتتان على النتيجة. كم مرّة سأل عن جوليانا، بطريقة ما أو بأخرى؟ ها هو الهكساغرام، تدفعه إلى الظهور الصدفةُ المحضة التي تحرّك عيدانَ اليارو، صدفة عشوائيّة لكنّها متجذّرة في اللحظة التي يعيشها، والتي ترتبط فيها حياته مع كلّ الحيوات الأخرى، ومع كلّ الجزيئات في الكون. الهكساغرام الناتج عنها، يصوّر الوضعَ من خلال الخطوط الصحيحة والمكسورة: هو، جوليانا، المعمل في شارع غوف، لجان التجارة التي تتحكّم بالأمور، اكتشاف الكواكب، الأكوام الكيميائيّة المليار في إفريقيا التي لا تشبه حتّى الجثث الآن، طموحات الآلاف حوله ممّن يعيشون في أكواخ سان فرانسيسكو المتقلقلة المكتظّة، المخلوقات المجنونة في برلين، بوجوهها الهادئة وخططها الهذيانيّة... كلّ ما سبق يترابط في لحظة استخارة عيدان اليارو، لانتقاء الحكمة الملائمة من كتاب بدأ تأليفُه في القرن الثلاثين قبل الميلاد، وعمل عليه الحكماء الصينيّون طيلة خمسة آلاف عام. كتاب مُنقّى، كامل، يضمّ أرقى العلوم والكوزمولوجيا بطريقة مُرمَّزة، اكتمل قبل أن تتعلّم أوروبا الحساب.

غاص قلبه بين أضلاعه! الهكساغرام «كو»، الرابع والأربعون، بحكمه الجادّ: هناك لقاء، السيّدة قويّة، ولا يجدر بالمرء أن يتزوّج سيّدة مثلها. سبق له أن حصل على الهكساغرام ذاته من قبل، ردّاً على تساؤلاته حول جوليانا.

آخ! فكّر وهو يتكئ. لم تكن الزوجة المناسبة لي، أعرف ذلك... هذا ليس سؤالي! لماذا يجب على الآي-تشنغ أن يذكّرني؟! كان قدري سيّئاً، أن ألتقيها وأقع في حبّها، لكنّني ما زلتُ أحبّها.

جوليانا! المرأة الأجمل بين جميع من تزوّجهنّ. حاجباها فاحما السواد، وكذلك شعرها، وكأنّ الآثار الزهيدة من دمها الإسبانيّ توزّعت كلونٍ صافٍ في شعرها، وفي شفتيها. جوليانا تمشي بسلاسة، دون ضجّة، لأنّها ترتدي صندلاً قديماً يعود إلى أيّام المدرسة الثانويّة. في الحقيقة، كلّ ثيابها بالية، توحي بأنّها عتيقة ومغسولة مراراً وتكراراً. لقد كانا فقيرين فقراً مدقعاً، إلى حدّ أنّها اضطرّت على الرغم من جمالها إلى ارتداء كنزة قطنيّة، وجاكيت بسحّاب، وتنورة تويد بنيّة اللون، وجوربين قصيرين يصلان إلى كاحليها.

لقد كرهته، وكرهت الجوربين، لأنّها تبدو بسببهما كامرأة تلعب التنس على حدّ قولها، أو كامرأة أسوأ: تلك التي تجمع الفطر من الغابة.

غرابة أطوارها التي لا مبرّر لها، هي ما جذبه إليها بالدرجة الأساسيّة: اعتادت مثلاً على تحيّة الغرباء بابتسامة غامضة مزعجة، أشبه بالموناليزا، ابتسامة تأسرهم في حيرتهم: هل يقولون لها مرحباً، أم لا؟! سيلقون عليها التحيّة في معظم الأحيان، نظراً لأنّها جذّابة جدّاً، وعندها تتابع جوليانا طريقها دون اكتراث! في البداية، ظنّ فرانك أنّ السبب هو ضعف بصرها، لكنّه استنتج أخيراً أنّ تصرّفها ينمّ عن غباء مطلق كامن في أعماقها، فبدأ ينزعج من شبه التحيّة تلك الموجّهة للغرباء، وكذلك من طريقة جوليانا الجامدة الصامتة في الغدو والرواح، وكأنّها تقول له: أنا في طريقي لقضاء أشغال غامضة. على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من شجارهما المتواصل في أواخر زواجهما، ظلّ يعدّها حرفيّاً بمنزلة ابتكار مباشَر من ابتكارات الربّ، سقط في حياته لأسباب يجهلها، وبسبب هذا النمط من الغريزة الدينيّة أو الإيمان بما يتعلّق بجوليانا، لم يستطع أن يتجاوز خسارتها.

تبدو له قريبة جدّاً الآن، كأنّها ما تزال معه. روحها ما زالت منشغلة بحياته، تروح وتجيء في غرفته كأنّها تبحث عمّا كانت تريده صاحبتها، وما زالت أيضاً ماثلة في ذهنه كلّما فتح كتاب الآي-تشنغ.

جالساً على سريره، محاطاً بالعزلة والفوضى، متأهّباً للخروج كي يبدأ يومه، تساءل فرانك فرينك من غيره يستخير الآي-تشنغ الآن في مدينة سان فرانسيسكو الشاسعة المعقّدة؟ هل يتلقّون النصيحة الجادّة ذاتها مثله؟ هل يعاكسهم معنى اللحظة كما يعاكسه؟

***

–2–

استخارَ السيّدُ نوبوسوكي تاغومي كتابَ الحكمة الكونفوشيوسيّة الخامس المقدّس، أي كتاب التنبّؤ التاويّ الذي لُقِّبَ طيلة قرون بالآي–تشنغ، أو كتاب التغيّرات. عند الظهيرة، بدأ يشعر بالتوجّس من لقائه المرتقب بعد ساعتين مع السيّد تشلدن.

الجناح الذي يضمّ مكاتبه يقع في الطابق العشرين، من مبنى نيبون تايمز في شارع تايلور، الذي يطلّ على الخليج. بوسعه أن يرى من نافذته السفن القادمة المارّة تحت جسر البوّابة الذهبيّة، كسفينة الشحن تلك التي تلوح الآن خلف جزيرة آلكاتراز، لكنّه لم يعرها اهتماماً، بل أرخى ستارة البامبو وحجبَ المشهدَ، فأعتم المكتب المركزيّ الكبير الذي يشغله، ولم يعُد مضطرّاً لزمّ عينيه بسبب الضوء المبهر.

يمكنه التفكير بصفاء أخيراً! استنتج أنّه لن يستطيع إرضاء العميل، أيّاً كان ما سيجلبه السيّد تشلدن. لن ينبهر، دعونا نسلّم بهذا! قال لنفسه، لكن علينا ألّا نثير انزعاجه. على الأقلّ، يجب ألّا نهينه بتقديم هدية سخيفة.

سيصل العميل بعد قليل إلى مطار سان فرانسيسكو، بواسطة الصاروخ الألمانيّ المتطوّر الجديد «مِسرشميت E–9». لم يركب السيّد تاغومي صاروخاً مماثلاً من قبل، ولا بدّ أن يبذل قصارى جهده عندما يستقبل السيّد باينس كي لا تبدو عليه الدهشة، حتّى ولو كان الصاروخ عملاقاً. الآن، إلى التمرين! وقف أمام المرآة المثبّتة على جدار المكتب، ورسم على وجهه تعبيراً حازماً، يوحي بقليل من الملل، وتفحّص ملامحه الباردة بحثاً عمّا قد يفضح شعوره الحقيقيّ. أجل، يُصدر الصاروخ ضجّة فظيعة يا سيّد

باينس، ممّا يحرم المرء من إمكانيّة القراءة بسلام على متنه، لكنّ الرحلة من ستوكهولم إلى سان فرانسيسكو لا تستغرق أكثر من خمس وأربعين دقيقة... هل يعلّق إذن عوضاً عن ذلك، على الأخطاء الميكانيكيّة الألمانيّة؟! أعتقد أنّك سمعتَ الراديو يا سيّد باينس، أقصد حادث التحطّم ذاك فوق مدغشقر... أظنّ أنّ الطائرات القديمة ذات محرّك البيستون، كانت أفضل.

من الضروريّ تجنّبُ السياسة، لأنّه لا يعرف وجهة نظر السيّد باينس حول القضايا الساخنة الحاليّة. مع ذلك، قد تُطرَح موضوعات سياسيّة فجأة، ولا بدّ أنّ السيّد باينس سيكون محايداً، نظراً لأنّه سويديّ... لكن لماذا اختار الطيران مع اللوفتهانزا، لا مع الخطوط الجويّة الاسكندنافيّة؟! يحتاج خطّة احترازيّة: يا سيّد باينس، يقال إنّ هِر[1] بورمان مريض للغاية، وأنّ الحزب سيختار مستشاراً جديداً للرايخ في الخريف. مجرّد إشاعات؟! يا للحسرة! يسود جوٌّ من التكتّم، ما بين الرايخ والباسيفيك.

في ملفّ موجود أمامه على المكتب، يوجد خطاب ألقاه السيّد باينس حديثاً، مقصوص من جريدة النيويورك تايمز. درسه السيّد تاغومي بعناية، مضطرّاً للانحناء قليلاً، لأنّ عدساته اللّاصقة لا تصحّح ضعفَ بصره مئة في المئة. يدور الخطاب عن ضرورة استقصاء وجود الموارد المائيّة على القمر مجدّداً (أي للمرّة الثامنة والتسعين!). «قد نجد حلّاً لهذه المعضلة المأساويّة» اقتبست الصحيفة عن السيّد باينس قوله، «في الكوكب الأقرب إلينا، الذي لم يكن استكشافه مجزياً حتّى الآن، إلّا لأغراض عسكريّة». آها بالضبط! فكّر السيّد تاغومي، لقد عثر على دليل: يبدو السيّد باينس متشكّكاً بالأهداف العسكريّة المحضة!

ضغط زرَّ إلانتركوم، وقال: «من فضلك يا آنسة إفريكيان، اجلبي آلة التسجيل».

انفتح باب المكتب الخارجيّ بالانزلاق جانبيّاً، وظهرت الآنسة إفريكيان. تبدو مشرقة اليوم، وقد زيّنت شعرها بأزهار زرقاء.

1- Herr بمعنى السيّد بالألمانيّة، تستخدم خصوصاً عند مخاطبة ضابط أو صاحب رتبة عليا. المترجمة

«بنفسج!»، لاحظ السيّد تاغومي. فيما مضى، كان محترفاً بزراعة الأزهار في هوكايدو، في الوطن.

انحنت الآنسة إفريكيان. إنّها أرمنيّة، طويلة، وشعرها بنيّ اللون.

«هل شريط التسجيل جاهز؟»

«أجل سيّد تاغومي»، أجابت الآنسة إفريكيان وهي تجلس. آلة التسجيل المحمولة، التي تعمل بالبطاريّات، جاهزة أمامها.

بدأ السيّد تاغومي بالكلام: لقد استشرتُ الكتابَ اليوم. سألته «هل سيكون اللقاء بيني وبين السيّد تشلدن مثمراً؟»، ولم أكن راضياً عن النتيجة، فقد حصلتُ على الهكساغرام الثامن والعشرين المنذر بالسوء، «يتفوّق العظيم، العارضة العلويّة تنحني، وهناك ثقل أكثر ممّا ينبغي في المنتصف، ولا شيء متوازن، كلّ شيء يبتعد عن التاو على ما يبدو».

أزّت آلة التسجيل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

توقّف السيّد تاغومي قليلاً، وفكّر.

رمقته الآنسة إفريكيان بترقّب، ثمّ أوقفت الآلة.

«اطلبي من السيّد رامسي أن يأتي للحظة، من فضلك»، قال السيّد تاغومي.

«حاضر يا سيّد تاغومي». نهضت الآنسة إفريكيان وهي تضع آلة التسجيل من يدها، فتعالت طقطقة كعبي حذائها وهي تغادر المكتب، ثمّ ظهر السيّد رامسي حاملاً تحت إبطه ملفّاً كبيراً يضمّ بوالص الشحن. إنّه شابّ مبتسم، يضع ربطة العنق المميّزة لسهوب الغرب الأوسط الأمريكيّ[2]، ويرتدي قميص كاروهات، وبنطال جينز ضيّقاً دون حزام، يُعَدُّ أحدث صيحات الموضة هذه الأيّام.

«تحيّاتي سيّد تاغومي» قال السيّد رامسي، «نهار جميل حقّاً يا سيّدي».

انحنى السيّد تاغومي، وعندها تخشّب السيّد رامسي فجأة، من ثمّ انحنى بدوره.

«لقد استخرتُ كتاب التنجيم» قال السيّد تاغومي، بينما جلست الآنسة

2- تتألّف من حبل قماشيّ أو جلديّ مجدول، يُلفّ حول العنق بحيث يتدلّى طرفاه بشكل حرّ على الصدر، ويثبّتان في الأعلى بقطعة معدنيّة. المترجمة

إفريكيان مع آلة التسجيل الخاصّة بها من جديد. «أنت تدرك أنّ السيّد باينس، الذي سيصل اليوم شخصياً كما تعرف، يتبنّى الإيديولوجيّة الإسكندناڤيّة حول ما يُسمَّى بالثقافة الشرقيّة. بوسعي أن أشرح له الثقافة الشرقيّة على نحو أفضل، من خلال إدهاشه بقطع أصليّة من فنّ المخطوطات الصينيّ، أو سيراميك حقبة توكوغاوا اليابانيّة الخاصّة بنا... لكنّ تغيير آرائه لا يقع على عاتقنا».

«فهمت» قال السيّد رامسي، ووجهه القوقازيّ يتلوّى بألم من شدّة التركيز.

«لذلك، سندغدغ تَعَصُّبَه، وسنقّدم له هدية لا تُقدَّر بثمن، من المصنوعات اليدويّة الأمريكيّة عوضاً عن ذلك».

«أجل»

«أنت يا سيّد، ذو أصول أمريكيّة، على الرغم من أنّك تكبّدت العناء كي تجعل جلدك قاتماً أكثر»، قال تاغومي وهو يتفحّص السيّد رامسي.

«برونزاج بواسطة مصباح شمسيّ» غمغم السيّد رامسي، «بغية الحصول على الڤيتامين د، فقط لا غير»، لكنّ الشعور بالمهانة الذي لاح على وجهه فضحه. «أؤكّد لكَ أنّني أملك جذوراً أصيلة تمتدّ إلى...» قال وهو يتأتئ، «لم أقطع كلّ صلاتي مع... النماذج الإثنيّة الأصليّة».

«تابعي من فضلك» قال السيّد تاغومي موجّهاً كلامه إلى الآنسة إفريكيان، فأزّت آلة التسجيل مرّة أخرى.

«باستشارة كتاب التنجيم، حصلتُ على الهكساغرام الثامن والعشرين، تا كوو، من ثمّ حصلتُ على الخطّ التاسع في الموقع الخامس، ولم يكن إيجابياً، كالتالي: شجرةُ حور ذابلة أزهرتْ / امرأة عجوز تزوّجتْ / لا ملامة، لا مديح... ممّا يشير بوضوح إلى أنّ السيّد تشلدن، لن يعرض علينا شيئاً قيّماً في الساعة الثانية»، سكت السيّد تاغومي قليلاً. «بصراحة، لا يسعني الاعتماد على تقديري الشخصيّ بما يخصّ القطع الفنيّة الأمريكيّة، ولذلك...» تباطأ قليلاً كي يختار كلماته، «ولذلك أحتاجك أنت يا سيّد رامسي، لأنّك... لنقل، من السكّان الأصليّين. يتوجّب علينا أن نبذل قصارى جهدنا». لم يجد السيّد رامسي ما يقوله، لكن من الواضح أنّ كلمات السيّد

تاغومي جرحت مشاعره، فعلامات الغضب والإحباط الصامت تلوح على وجهه، على الرغم من أنّه يحاول إخفاءها.

«والآن» تابع السيّد تاغومي، «لقد استشرتُ كتاب التنجيم مطوّلاً، ولا يمكنني أن أفصح لك عن سؤالي يا سيّد رامسي، لأسباب تتعلّق بسياستنا في العمل». بعبارة أخرى، ما تعنيه نبرته هو: أنت تنتمي إلى البينوكسيّين، ولستَ مخوّلاً بالمشاركة في المسائل المهمّة التي نتعامل معها. «بأيّ حال، يكفي القول إنّني تلقّيتُ نصيحة استفزازيّة للغاية، دفعتني إلى تأمّل الوضع مطوّلاً»، أضاف.

نظرت الآنسة إفريكيان والسيّد رامسي إليه بترقّب.

«نصيحة تتعلق بالسيّد باينس»، قال السيّد تاغومي.

هزّا رأسيهما.

«سؤالي حول السيّد باينس، ومن خلال عمل التاو الغامض، أدّى إلى ظهور الهكساغرام السادس والأربعين، شِنغ، وهو إيجابيّ. ظهر الخطّ السادس في البداية، والخطّ التاسع في الموقع الثاني».

كان سؤاله هو: «هل سأتعامل مع السيّد باينس بنجاح؟». الخطّ التاسع في الموقع الثاني أكّد له نجاحه، فقد جاء فيه: إن كان المرء مخلصاً / هذا سيدفعه إلى جلب تقديمة، ولو صغيرة / لا ملامة. من الواضح إذن أنّ السيّد باينس سيُسعَد بأيّة هدية تقدّمها له لجنة التجارة من خلال مكاتب السيّد تاغومي، الذي كان بالكاد واعياً لوجود استفسار آخر أهمّ يدور في أعماق ذهنه، مترافقاً مع سؤاله ذاك. كما يحدث غالباً، تلقّى الآي-تشنغ الاستفسار الأهمّ الخفيّ، أثناء إجابته على السؤال الأوّل، وأخذ على عاتقه تقديم إجابة عنه أيضاً.

«كما نعرف» قال السيّد تاغومي، «سيزوّدنا السيّد باينس بمعلومات دقيقة عن قوالب الصبّ التي طوّرتها السويد. إن وقّعنا اتّفاقاً مع شركته، سننجح لا محالة بالاستغناء عن استخدام العديد من المعادن التي نعتمد عليها حالياً -النادرة للغاية- وسنستبدلها بالبلاستيك».

طيلة سنوات، حاولت الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة أن تحصل على مساعدة من الرايخ في مجال الصناعات التركيبيّة، لكنّ كارتل الكيمياء

الألمانيّ الضخم -وتحديداً شركة آي. جي. فاربن- حرص على حماية براءات الاختراع، ممّا خلق احتكاراً عالميّاً في قطاع البلاستيك، خاصّة فيما يتعلّق بتطوير البوليستر. بالتالي، تفوّق الرايخ تجاريّاً على الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، فضلاً عن أنّه متقدّم عليها بما لا يقلّ عن عشر سنوات في مجال التكنولوجيا. الصواريخ التي تنطلق من قاعدة «فِستَنغ يوروبا» إلى الكواكب مصنوعة من بلاستيك مقاوم للحرارة كمكوّن أساسيّ، خفيف للغاية، لكنّه فائق الصلابة، ولا يتأثّر حتّى بالاصطدام مع النيازك الضخمة، أمّا الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة فلا تمتلك أيّ شيء مماثل، وما زالت تعتمد على استعمال الألياف الطبيعيّة كالخشب، وعلى خلائط المعادن المعروفة. انكمش السيّد تاغومي على نفسه عندما فكّر بذلك، لقد سبق له أن اطّلع في معارض التجارة على نماذج من الصناعة الألمانيّة المتقدّمة، بما فيها سيّارة «الشبح السريع» المصنوعة بالكامل من موادّ تركيبيّة، وتباع في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة لقاء ستمئة دولار.

السؤال الثاني، ذاك الذي لا يمكنه الإفصاح عنه أمام البينوكسيّين العاملين في مكاتب لجنة التجارة، يتعلّق بالسيّد باينس، وحرّضته رسالة مُشَفَّرة من طوكيو. أوّلاً، الرسائل المشفّرة قليلة، وتختصّ عادة بقضايا الأمن، لا بالصفقات التجاريّة. ثانياً، الشيفرة مجازيّة، تعتمد على الكنايات الشعريّة بغية إرباك مراقبي الرايخ، القادرين على حلّ رموز أيّة شيفرة تعتمد على الأحرف، مهما كانت معقّدة. إذن، من الواضح أنّ السلطات في طوكيو قلقة بسبب الرايخ، لا بسبب الخونة في جزر الوطن. العبارة المفتاحيّة في الشيفرة «حليبٌ مقشود في حميته»، تشير إلى أوبرا «بينافور»، وتحديداً إلى تلك الأغنية الغريبة التي تشرح العقيدة: «الأشياء ليست ما تبدو عليه إلّا فيما ندر / حليبٌ مقشود يتنكّر كحليب كامل الدسم»، كما أنّ كتاب الآي-تشنغ أكّد له حدسه، فقد كان حكمه: ها هو ذا رجلٌ نعتقد أنّه قويّ / لا ينسجم مع البيئة المحيطة به / كما أنّه فظّ للغاية / ولا يكترث بالمظاهر، لكنّه مستقيم، يعقد لقاء استجابة لـ...

ببساطة، خمّن السيّد تاغومي أنّ الحقيقة مختلفة عمّا يدّعيه السيّد باينس، وأنّ غايته من زيارة سان فرانسيسكو ليست توقيع صفقة قوالب الصبّ: في

الواقع، السيّد باينس هو جاسوس! لكنّه لم يستطع أن يحدّد أيّ نوع من الجواسيس، ولمصلحة من يعمل، وما هي غايته.

***

في الساعة الواحدة وأربعين دقيقة بعد الظهر، أغلق روبرت تشلدن الباب الأماميّ لـ «شركة المصنوعات اليدويّة الفنيّة الأمريكيّة المحدودة» رغماً عنه، ووضع حقائبه الثقيلة على الرصيف، ثمّ أوقف درّاجة ثلاثيّة وأمر السائق الصينيّ بالتوجّه إلى مبنى نيبون تايمز. الصينيّ، بوجهه الهزيل وظهره المحدودب وجسده المتعرّق، استعلم عن الطريق، ثمّ حمّل الحقائب على درّاجته، وساعد السيّد تشلدن على الجلوس على مقعد مُنجَّد بالقماش. بعد ذلك، شغّل العدّاد وجلس في مقعده الخاصّ، وبدأ يدوّس عبر شارع مونتغومري بين السيّارات والباصات.

أمضى السيّد تشلدن نهاره بأكمله وهو يبحث عن قطعة مميّزة للسيّد تاغومي، وكادت المرارة والتوتّر أن يغلباه الآن وهو يتأمّل المباني التي يمرّ بها. مع ذلك، لقد انتصر! إنّه ماهرٌ في عمله، بغضّ النظر عن صفاته الأخرى، لقد عثر على القطعة الملائمة التي سترضي السيّد تاغومي، وتُبهِج عميلَه، أيّاً كان. أنا أرضي زبائني دائماً! فكّر تشلدن. لقد تمكّن -بمعجزة- من الحصول على نسخة بحالة شبه ممتازة من العدد الأوّل، من المجلّد الأوّل لمجلّة كوميكس تدعى تيب توب، تعود إلى حقبة الثلاثينيّات. تيب توب هي إحدى أولى المجلّات الطريفة، تُعَدُّ درّة الثقافة الأمريكيّة، وقطعة ثمينة يسعى هواة الجمع دائماً إلى اقتنائها. لقد جلب معه بلا شكّ قطعاً أخرى، سيعرضها أوّلاً على السيّد تاغومي واحدة تلو الأخرى، انتهاء بالمجلّة المحفوظة بأمان في غلاف جلديّ ملفوف بورق التغليف، بداخل أكبر حقيبة من حقائبه.

صدح راديو الدرّاجة الثلاثيّة بالأغاني الرائجة، منافساً راديوهات الدرّاجات الأخرى والسيّارات والباصات، لكنّ تشلدن لم يسمعه، لأنّه معتاد على هذه الضجّة، كما لم ينتبه إلى اللوحات الإعلانيّة الضوئيّة العملاقة، التي تحجب واجهة المباني الضخمة كلّها تقريباً وتعرض الإعلانات

بلا انقطاع. هناك لوحة مثلها تماماً أمام شقّته، تبرق ليلاً بالتزامن مع بقيّة اللوحات الأخرى في المدينة. على المرء أن يكون واقعيّاً، قال لنفسه، فما من طريقة أخرى للإعلان سوى هذه اللوحات! في الحقيقة، ضجّة الراديو، وهدير المواصلات، واللوحات الإعلانيّة، والناس... كلّ ذلك هدّأه وامتصّ قلقه الداخليّ. فضلاً عن ذلك، من الممتع أن تجلس في درّاجة يقودها كائن بشريّ آخر، وأن تشعر بمجهود عضلات الصينيّ ينتقل إليك كاهتزازات منتظمة تبعث على الاسترخاء، فكّر. أن يجرّك شخصٌ ما، لا أن تجرّه أنت، وأن تشعر بأنّك في موقع أعلى، ولو للحظة واحدة.

أيقظ نفسه من أحلامه شاعراً بالذنب، يلزمه الكثير من الاستعداد والتخطيط، ولا وقت يضيّعه بغفوة عند الظهيرة. هل ملابسه لائقة مئة في المئة للدخول إلى مبنى نيبون تايمز؟ قد يُغمى عليه في المصعد السريع، لكنّه يحمل أقراص دواء مضادّ لدوار الحركة في جيبه، ألمانيّة الصنع. ماذا عن الأساليب المتعدّدة، لمخاطبة مختلف الأشخاص؟ يعرفها كلّها، مع من يتعامل باحترام، ومع من يتعامل بوقاحة. كن فظّاً مع البوّاب، وعامل المصعد، وموظّف الاستقبال، والدليل، والحاجب. انحنِ أمام أيّ يابانيّ بالطبع، حتّى ولو اضطررت للانحناء مئات المرّات، أمّا البينوكسيّون فهم منطقة رماديّة: انحنِ، لكن انظر بشكل مستقيم من خلالهم وكأنّهم غير موجودين. هل هذه هي كلّ الاحتمالات؟ ماذا لو التقى بزائر أجنبيّ؟ كثيراً ما يزور الألمان لجنة التجارة، وكذلك الحياديّون.

فضلاً عن ذلك، قد يرى عبداً.

ترسو السفن الألمانيّة أو سفن الجنوب طيلة الوقت في ميناء سان فرانسيسكو، ويُسمَح للسود أحياناً بالنزول منها لفترة قصيرة، لكن في مجموعات لا تتعدّى ثلاثة أشخاص، وفقط قبل حلول الليل، لأنّ الالتزام بقواعد حظر التجوّل مفروض عليهم دائماً، حتّى تحت مظلّة القانون الباسيفيكيّ. في أحيان أخرى، تحمل السفن عبيداً إلى الميناء، وأولئك سيعيشون بشكل دائم على الشاطئ، في أكواخ مبنيّة تحت أرصفة التحميل فوق مستوى الماء، ولا أحد منهم سيتواجد في مكاتب لجنة التجارة بلا شكّ. لكن، على سبيل المثال، إن وجد سفينة تفرغ حمولتها عند وصوله،

هل يحمل حقائبه بنفسه إلى مكتب السيّد تاغومي؟! كلّا، مستحيل. عليه أن يجد عبداً، حتّى ولو اضطرّ للانتظار ساعة كاملة، أو فاته الموعد، من المستحيل أن يسمح للعبيد برؤيته وهو يحمل شيئاً ما. الحذر مطلوب، غلطة من هذا القبيل قد تكلّفه غالياً، إذ سيفقد مكانته للأبد في عيون من يشاهدونه.

على نحو ما، فكّر تشلدن، كنتُ سأستمتع بحمل حقائبي إلى مبنى نيبون تايمز في وضح النهار. يا لها من إشارة رمزيّة عظيمة! إنّها لا تخالف القانون، ولن أُرمَى في السجن بسببها، كما أنّها ستفصح عن مشاعري الحقيقيّة، عن وجهي الذي لا يُكشف أبداً على الملأ، ولكن... كان ذلك ممكناً، لولا أولئك العبيد السود الملعونون الذين يتسكّعون هنا! سأتحمّل نظرات وسخرية الذين يفوقونني مرتبة، إنّهم يهينونني ويسخرون منّي كلّ يوم... لكن أن يراني أولئك الأدنى منّي، وأن أشعر بازدرائهم لي... كهذا الصينيّ الذي يدوّس أمامي مثلاً، لو لم أستأجر درّاجته الثلاثيّة، وشاهدني وأنا أجرجر حقائبي إلى موعد عمل!

الألمان هم الملامون على خلق هذا الوضع، بسبب ميلهم إلى القيام بما يتجاوز قدراتهم. بالكاد انتصروا في الحرب، لكنّهم انطلقوا على الفور إلى استعمار المجموعة الشمسيّة، وسنّ قوانين في الوطن أدّت إلى... حسناً، الفكرة كانت جيّدة على الأقلّ! لقد نجحوا في نهاية المطاف بالقضاء على اليهود والغجر وشهود يهوه، وأجبروا -وهو ما هلّل له الجميع- السلافيّين على مغادرة أوروبا للأبد، والعودة إلى وطنهم الأمّ في آسيا، حيث نكصوا ألفي عام إلى الوراء، إلى ركوب ثيران الياك وإلى الصيد بالقوس والسهم. من ثمّ، هناك المجلّات العظيمة البرّاقة التي تُطبَع في ميونخ، وتُوزَّع في كلّ المكتبات وأكشاك الصحف. بوسع المرء أن يتماهى مع صورها الملوّنة، التي تشغل صفحة بأكملها، إذ إنّه سيرى نفسه في المستوطنين الآريّين، بشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء، الذين يحرثون الأرض ويقلّبونها ويحصدونها باجتهاد في أوكرانيا، سلّة قمح العالَم. السعادة تلوح على وجوههم بكلّ تأكيد، ومَزارِعهم وأكواخهم نظيفة. لقد اختفت تماماً صور البولنديّين السكارى الأغبياء، المتمدّدين بكسل على الشرفات المتداعية، أو أولئك الذين يبيعون بضعة رؤوس قرنبيط ذابلة في سوق القرية. كلّ ذلك

أصبح من الماضي الآن، تماماً كالطرقات الترابيّة التي تتحوّل إلى مستنقعات طينيّة في موسم المطر، فتعلق فيها العربات.

ولكن... إفريقيا!

غلبهم حماسهم في إفريقيا ببساطة، لكن من غير الممكن ألّا يُعجَب المرء بما أنجزوه هناك، على الرغم من أنّ الحصافة تملي عليهم الانتظار قليلاً بعد، إلى أن ينتهي مشروع «المزرعة» مثلاً، ذاك الذي تجلّت فيه عبقريّة النازيّين، والفنّان الحقيقيّ الكامن في أعماقهم: أغلَقوا البحر المتوسّط، وجفّفوه، وحوّلوه إلى أرض قابلة للاستصلاح الزراعيّ، بالاعتماد على الطاقة الذريّة. يا لجرأتهم! لقد خسئ الساخرون جميعهم، بمن فيهم بعض التجّار في شارع مونتغومري. بلا شكّ، إفريقيا هي مشروع ناجح نوعاً ما، لكن لا محالة أن تتعالى الانتقاداتُ في مشروع من هذا النمط، وأوّلها منشور روزنبرغ القويّ الشهير عام 1958، أمّا بالنسبة إلى «الحلّ النهائيّ للمشكلة الإفريقية»، فقد حقّقنا أهدافنا كلّها تقريباً. لسوء الحظّ، استغرق منّا الأمر مئتي عام للقضاء على الأمريكيّين الأصليّين، بعكس الألمان الذين حقّقوا مرادهم في إفريقيا خلال خمسة عشر عاماً فقط. لذلك، لا يجوز انتقادهم، وهو ما سبق لتشلدن أن ناقشه مؤخّراً عندما تناول العشاء مع بعض أولئك التجّار الساخرين، الذين ينتظرون المعجزات، وكأنّ النازيّين سيعيدون تشكيل العالَم بواسطة عصا سحريّة! كلّا، في الحقيقة، إنّهم يعتمدون على العلم، والتكنولوجيا، وموهبتهم المدهشة في العمل باجتهاد. لطالما أثبت الألمان أنفسهم، وعندما يضطلعون بمهمّة ما، فهم ينفّذونها على أكمل وجه.

بأيّ حال، المركبات الفضائيّة التي انطلقت إلى المريخ، صرفت الانتباه عن الصعوبات التي تواجه الألمان في إفريقيا، أي أنّ الموضوع برمّته يتلَخّص فيما قاله لزملائه التجّار: يملك النازيّون ما نفتقر إليه نحن، وهو النبالة. قد نُعجَب بهم بسبب حبّهم للعمل، أو كفاءتهم، لكنّ أحلامهم هي التي تدهشنا: رحلاتٌ فضائيّة إلى القمر أوّلاً، من ثمّ إلى المرّيخ. إن لم يكن السفر إلى الفضاء أقدم حلم تاقت إليه البشريّة، فهو أعظم ما يعود عليها بالمجد! بالمقابل، فكّر تشلدن، أنا أعرف اليابانيّين جيّداً، لأنّني أتعامل معهم يوميّاً تقريباً. دعونا نواجه الحقيقة: إنّهم شعب أصفر، شرقيّون، نضطرّ نحن

البيض للانحناء أمامهم لأنّهم أصحاب السلطة، لكنّنا نبقي أعيننا على ألمانيا ونرى ماذا يتحقّق إن كان البيض هم المستعمِرين، وهي مسألة مختلفة كليّاً.

«نحن نقترب من مبنى نيبون تايمز، يا سيّدي» قال الصينيّ وصدره يعلو ويهبط بتسارع، بسبب المجهود الذي يبذله لتسلّق التلّة. من ثمّ، تباطأ قليلاً.

حاول تشلدن أن يتخيّل عميل السيّد تاغومي. من الواضح أنّه رجل فائق الأهميّة، كما أوحت نبرة السيّد تاغومي على الهاتف، واضطرابه الشديد. قفزت إلى ذهنه صورة زبون من زبائنه، وهو رجل أسهم كثيراً ببناء سمعة تشلدن في أوساط النخبة الراقية في منطقة خليج سان فرانسيسكو.

قبل أربع سنوات، لم يكن تشلدن تاجر أنتيكات نادرة كما هو حاله اليوم، بل صاحب متجر كتب مستعملة صغير معتم في جيري، تحيط به مغاسل الثياب ودكاكين تبيع الأثاث المستعمل أو الخردوات. جيري ليست ضاحية جميلة، ودائماً ما تحصل السرقات المسلّحة وحوادث الاغتصاب في شوارعها ليلاً، على الرغم من جهود شرطة سان فرانسيسكو ورؤسائهم اليابانيّين في جهاز الكيمبتاي. كلّ التجّار كانوا مضطرّين لإغلاق واجهاتهم بشبك حديديّ ما إن ينتهي العمل، تحسّباً لاقتحامها من قبل اللصوص. أجل، إلى تلك المنطقة جاء ذات يوم رجل ياباني كهل: ضابط سابق هو العقيد إيتو هومو، طويل، نحيل، أشيب الشعر، يمشي ويقف بتخشّب، وهو من أوحى لتشلدن بما يمكن القيام به في هذ النوع من العمل.

«أنا أجمع أنتيكات الكتب»، أوضح العقيد هومو، وأمضى طيلة ما بعد الظهر وهو ينبش أكوام المجلّات القديمة في المتجر، وشرح بصوته الناعم شيئاً لم يستوعبه تشلدن تماماً آنذاك: الكثير من اليابانيّين المثقّفين، يهتمّون بالرموز التاريخيّة للثقافة الشعبيّة الأمريكيّة، إلى جانب اهتمامهم بالأنتيكات الرسميّة. لماذا؟! حتّى العقيد شخصياً لا يعرف السبب. كان مدمناً بشكل خاصّ على جمع المجلّات القديمة المتخصّصة بالأزرار النحاسيّة القديمة، وجمع تلك الأزرار أيضاً. هذا يشبه جمع العملات أو الطوابع، لا تفسير منطقيّاً يعلّله، فضلاً عن أنّ هواة الجمع الأثرياء مستعدّون لدفع مبالغ طائلة لقاء ما يعثرون عليه.

«سأعطيك مثالاً» قال العقيد هومو، «هل تعرف ما هي بطاقات أهوال الحرب؟»، ورمقَ تشيلدن متشوّقاً.

نبش تشلدن ذاكرته، وتذكّر أخيراً! سلسلة البطاقات تلك، كانت تُوَزَّع في طفولته مع قطع علكة البالون التي تباع لقاء سنت واحد، وكلّ منها تصوّر مشهداً مختلفاً من أهوال الحرب.

«أحد أصدقائي المقرّبين يجمعها» تابع العقيد كلامه، «تنقصه واحدة منها فقط الآن، وهي غرقُ الباناي[3]. إنّه يعرض مبلغاً ضخماً من المال لقاءها».

«طرّة ونقش!»، هتف تشلدن فجأة.

«عفواً؟!»

«كنّا نلعب طرّة ونقش بتلك البطاقات، لأنّ لها وجهين». كان في الثامنة من عمره آنذاك، «كلّنا كنّا نملك مجموعة من بطاقات الطرّة والنقش تلك! سيقف صبيّان وجهاً إلى وجه، وكلٌّ منهما يرمي بطاقته بحيث تتقلّب في الهواء. الصبي الذي تحطّ بطاقته على الأرض بحيث تكون الطرّة، أي الوجه الذي يحمل الصورة، للأعلى، يربح البطاقتين كليهما!». يا للمتعة التي شعر بها وهو يتذكّر تلك الأيّام الجميلة، أيّام طفولته الباكرة السعيدة.

فكّر العقيد قليلاً، ثمّ قال: «سمعتُ صديقي يتحدّث عن بطاقات أهوال الحرب تلك، لكنّه لم يروِ لي هذه القصّة قط! أعتقد أنّه لا يعرف كيف تمّ استعمال البطاقات في الواقع».

في نهاية المطاف، جاء صديق العقيد شخصياً إلى المتجر، كي يسمع بنفسه وصفَ تشلدن التاريخيّ. ذلك الرجل، وهو أيضاً ضابط متقاعد من ضبّاط الجيش الإمبراطوريّ، افتتن بما سمع.

«أغطية الزجاجات!»، هتف تشلدن دون تمهيد.

رمش الياباني دون أن يفهم.

«اعتدنا نحن الأطفال على جمع أغطية زجاجات الحليب، تلك الأغطية

3- في عام 1937، قصف اليابانيّون زورقاً حربيّاً أمريكيّاً هو «باناي» في نهر يانغ تسي الصينيّ، كان ينقل مدنيّين صينيّين وأمريكيّين فارّين من الاجتياح الياباني للصين. المترجمة

المدوّرة التي تحمل اسم المنُتَج... آنذاك، كانت هناك آلاف أنواع منتجات الحليب في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وكلّ منها تطبع غطاء خاصّاً بعبواتها».

لمعت عينا الضابط غريزيّاً، وسأل: هل تحتفظ بقطع من مجموعتك تلك، يا سيّد؟»

بلا شكّ، لا يملك تشلدن أيّاً منها، لكنّه قد يتمكّن من الحصول على بعض الأغطية المنسية من أيّام ما قبل الحرب، حين كان الحليب يُعبّأ في زجاجات، لا في علب كرتونيّة تُستخدَم مرّة واحدة فقط.

وهكذا، انتقل إلى بيع الأنتيكات شيئاً فشيئاً. قلّده الآخرون، وافتتحوا متاجر مماثلة لمتجره، مستغلّين هوس اليابانيّين المتنامي بالثقافة الأمريكيّة، لكنّ تشلدن بقي في الطليعة.

استيقظ من تأمّلاته حين سمع الصينيّ يقول: «الأجرة يا سيدي، دولار واحد»، ووجده قد أنزل الحقائب عن الدرّاجة، ووقف بانتظاره، فدفع له شارد الذهن.

أجل، إنّ عميل السيّد تاغومي يشبه العقيد هومو غالباً. على الأقلّ، فكّر تشلدن بمرارة، من وجهة نظري! ما زال يعاني من صعوبة بالتمييز بين يابانيّ وآخر، على الرغم من أنّه يتعامل مع الكثير منهم. هناك قصار القامة البدينون هؤلاء، الأشبه بالمصارعين، هناك من يشبهون العطّارين، وآخرون أشبه بالبستانيّين الذين يزرعون شجيرات مزهرة... إلخ، كما يصنّفهم هو شخصيّاً، وهناك اليافعون الذين لا يشبهون اليابانيّين إطلاقاً برأيه. عميل السيّد تاغومي هو غالباً رجل أعمال بدين، يدخّن سيجاراً فيليبّينيّاً.

وها هو ذا، واقف أمام مبنى نيبون تايمز، وحقائبه بجواره على الرصيف. انتابته القشعريرة فجأة، عندما راودته الفكرة التالية: لعلّ الزبون ليس يابانيّاً! لقد انتقى كلّ ما في الحقائب وهو يفكّر باليابانيّين وأذواقهم... لكنّ الرجل يابانيّ بكلّ تأكيد! لقد طلب السيّد تاغومي أوّلاً بوستر التجنيد للحرب الأهليّة، ولا أحد يهتمّ بتلك البقايا إلّا اليابانيّون، وهو ما يتماشى أيضاً مع هوسهم بالتوافه، وانبهارهم بالوثائق والادّعاءات والإعلانات. يتذكّر مثلاً

يابانيّاً كرّس كلّ وقت فراغه لجمع إعلانات الصحف، التي روّجت للأدوية الأمريكيّة الحاصلة على براءات اختراع في بداية القرن العشرين. أمامه مشاكل أخرى الآن، مشاكل آنيّة. تناهت إلى أذنيه أصوات الرجال والنساء الأنيقين، الذين يمرّون مسرعين عبر مدخل نيبون تايمز العالي، فتحرّك بدوره. ألقى نظرة على البناء الضخم -وهو الأعلى في سان فرانسيسكو- على جدران المكاتب والنوافذ وهندسة العمارة اليابانيّة المذهلة، وعلى الحدائق التي تحيط به، بما تحويه من صخور ونباتات قزمة دائمة الخضرة، والمصمّمة على طراز «كاريسانسوي»، بحيث يحاكي الدرب الرمليّ نبعاً جافّاً يتلوّى حول الجذور، وبين الصخور البسيطة العشوائيّة.

لمح زنجيّاً كان يحمل طرداً منذ قليل، فناداه فوراً: «أيّها الحمّال!»

هرول الزنجي صوبه مبتسماً.

«إلى الطابق العشرين» قال تشلدن بمنتهى الفظاظة، «إلى الجناح ب، على الفور»، وأشار إلى الحقائب، من ثمّ اتّجه إلى المدخل دون أن يلقي نظرة واحدة خلفه.

بعد لحظة، وجد نفسه محشوراً في أحد المصاعد السريعة. معظم من يحيطون به يابانيّون، تلمع وجوههم النظيفة في الضوء الساطع. من ثمّ، بدأ التسارع المزعج المثير للغثيان ما إن انطلق المصعد للأعلى، وتوالت التكّات السريعة مشيرةً إلى أرقام الطوابق. أغمض تشلدن عينيه، ثبّت قدميه جيّداً على الأرض، وصلّى كي تنتهي رحلته. الزنجيّ أخذ الحقائب دون شكّ إلى مصعد الخدمة، فمن غير الوارد أصلاً أن يسمحوا له باستعمال هذا المصعد. فتح تشلدن عينيه واسترق نظرة خاطفة حوله، قلّة من البيض يقفون هنا أصلاً!

عندما خرج إلى ردهة الطابق العشرين أخيراً، كان قد باشر لتوّه بالانحناء ذهنيّاً، مستعدّاً لموعده في مكتب السيّد تاغومي.

***

–3–

عند الغروب، رفعت جوليانا فرينك رأسها، فرأت نقطة مضيئة تقطع السماء على شكل قوس، وتختفي في الغرب. إنّها إحدى مركبات النازيّين الصاروخيّة، قالت لنفسها، تطير إلى الساحل حاملة شخصيّات هامّة... وها أنا ذي، هنا في الأسفل! لوّحت للمركبة، على الرغم من أنّها اختفت.

زحفت الظلال من جبال روكي، وانقلبت قممها الزرقاء إلى سوداء، وحلّق سرب من الطيور المهاجرة ببطء بموازاة الجبال. هنا وهناك، لمعت المصابيح الأماميّة لسيّارة ما، وتحرّكت كنقاط مضيئة على طول الأوتوستراد، بالإضافة إلى أضواء محطّة الوقود والمنازل.

إنّها تعيش منذ عدّة أشهر في مدينة كانون سيتي، كولورادو، حيث تعمل مدرّبة جودو. شعرت بالتعب الآن، لقد انتهى عملها لهذا اليوم، وهي تستعدّ لأخذ دوش، لكنّ الزبائن يشغلون الحمّامات كلّها في نادي راي، لذلك وقفت تنتظر في الخارج، مستمتعة ببرودة المساء ورائحة هواء الجبال والسكون. الصوت الوحيد المسموع هو غمغمة خافتة، تصدر من مطعم الهامبرغر في آخر الشارع بالقرب من الأوتوستراد، حيث توقّفت شاحنتا ديزل ضخمتان. رأت جوليانا السائقين في غبش المساء، يتحرّكان حول الشاحنتين. من ثمّ، لبس كلٌّ منهما جاكيتاً من الجلد، ودخلا إلى المطعم.

فكّرت: ألم يلقِ ديزل[1] بنفسه من النافذة، وانتحر غرقاً في مياه المحيط

1- رودولف ديزل (1858–1913) مهندس ألمانيّ اخترع المحرّك المسمّى باسمه. عشيّة 29 أيلول 1913 ركب سفينة بخاريّة منطلقاً من أنتويرب إلى لندن، وانسحب إلى غرفته بعد تناول العشاء، ولم يره أحد بعد ذلك مطلقاً. بعد عشرة أيام عثرت

أثناء الرحلة؟ لربّما يجدر بي القيام بالمثل أيضاً! لا محيطات هنا، لكن هناك دائماً طريقة ما، كما في مسرحيّات شكسبير... دبوس يُغرَز في الصدر عبر القميص، ووداعاً جوليانا فرينك، أيّتها الفتاة التي لا تخاف اللصوص المتشرّدين القادمين من الصحراء، والتي تحيا باستقامة، متنبّهة لكلّ الحوادث الخطيرة التي قد تقع أثناء الصراع على الحياة، لكنّها تموت عوضاً عن ذلك بـ... لنقل، بشمّ غازات عوادم السيّارات على الأوتوستراد، بواسطة مصّاصة طويلة مثلاً.

لقد تعلّمتْ ذلك، فكّرتْ، من اليابانيّين. تشرّبتْ موقفاً مرناً تجاه الموت، جنباً إلى جنب الجودو الذي تكسب منه معيشتها: كيف تقتلُ وكيف تموت، الين واليانغ، لكنّ هذا كان في الماضي، الآن، هذه أرض بروتستانتيّة.

لحسن الحظّ، تمرّ المركبات الصاروخيّة النازيّة في السماء دون أن تتوقّف، ودون أن تحطّ في كانون سيتي، كولورادو، ولا في أوتا أو وايومنغ أو شرقي نيڤادا، ولا في الولايات الصحراويّة الخالية، ولا في ولايات المراعي. لا نساوي شيئاً، فكّرت، وبوسعنا أن نقضي كلّ حيواتنا الصغيرة هنا لو أردنا، لو أنّنا نكترث.

سمعت باب أحد الحمّامات ينفتح، ورأت الآنسة ديڤس الضخمة وقد انتهت من الدوش ولبست ثيابها، وحملت حقيبتها تحت إبطها. «آه، هل كنتِ تنتظرين يا سيّدة فرينك؟ أنا آسفة»، قالت.

«لا بأس»، قالت جوليانا.

«أتعرفين سيّدة فرينك؟ أنا أستمدّ الكثير من الجودو، أكثر بكثير من الزن. أردتُ إخبارك بهذا».

«سينحف وركاك بأسلوب الزن» قالت جوليانا، «وستخسرين الكيلوغرامات الزائدة بواسطة الساتوري[2] دون صعوبة. أنا آسفة آنسة ديڤس، أنا أهذي».

سفينة أخرى على جثّة طافية في بحر الشمال، يصعب التعرّف إلى ملامحها، يعتقد أنّها رفاته. المترجمة

2- مصطلح بوذيّ ياباني يدلّ على الاستنارة الداخليّة. المترجمة

«هل آذوكِ كثيراً؟»، سألت الآنسة ديڤس.

«من؟»

«اليابانيّون، قبل أن تتعلّمي الدفاع عن نفسك».

«الوضع مرعب» قالت جوليانا، «أنتِ لم تذهبي إلى هناك قط، إلى الساحل حيث يعيشون».

«لم أغادر كولورادو مطلقاً!» قالت الآنسة ديڤس، وصوتها يرتجف بخجل.

«قد يتكرّر ذلك هنا أيضاً» قالت جوليانا، «فلربّما يقرّرون احتلال هذه المنطقة».

«بعد انقضاء كلّ هذا الزمن؟!»

« لا يمكنك أن تحزري ماذا سيفعلون» قالت جوليانا، «إنّهم يتكتّمون على نواياهم الحقيقيّة».

«ما الذي أجبروكِ على فعله؟» سألت الآنسةُ ديڤس وهي تضمّ حقيبتها إلى صدرها بيديها الاثنتين، واقتربت أكثر من جوليانا في عتمة المساء كي تسمع.

«كلّ شيء»، أجابت جوليانا.

«يا إلهي! سأقاتل!»، قالت الآنسة ديڤس.

اعتذرت منها جوليانا وأسرعت إلى الحمّام الخالي، عندما لمحت امرأة تقترب مع منشفة على ذراعها.

لاحقاً، جلست في ركن منعزل في «هامبرغر تشارلي المشويّ اللذيذ»، وقرأت لائحة الطعام بخمول. الجوكبوكس يصدح بأغنية من موسيقا الكنتري، حافلة بالتأوّهات العاطفيّة وأنغام الغيتار، والهواء مشبع برائحة زيت القلي. مع ذلك، ارتفعت معنويّاتها لأنّ المكان دافئ ومشرق، وبسبب وجود سائقي الشاحنتين الجالسيْن إلى الكونتوار، والنادلة، والطاهي الإيرلنديّ الضخم بجاكيته الأبيض، الذي يعدّ الفكّة بجوار صندوق الكاش.

عندما لمحها، تقدّم تشارلي إليها كي يسجّل طلبها بنفسه مبتسماً، وقال: «هل تريد آنستي الشاي الآن؟».

«قهوة» أجابت جوليانا، متحمّلة مزاح الطاهي الذي لا ينقطع.

«وهو كذلك»، قال تشارلي هازّاً رأسه.

«وسندويشة ستيك ساخنة مع الصلصة»

«ألن تتناولي شوربة عشّ الجرذ؟ أو دماغ الماعز المقليّ بزيت الزيتون؟»، استدار السائقان نحوهما، وضحكا بدورهما، مستمتعَين بتأمّل ملامح جوليانا الجذّابة. تعرف أنّهما سيتأمّلانها حتّى ولو لم يروِ الطاهي نكاته، لأنّ الأشهر التي قضتها بممارسة الجودو منحتها قواماً استثنائيّاً وعضلات مشدودة، وهي نقطة تعيها تماماً. الأمر كلّه مرتبط بعضلات الكتف، فكّرت عندما التقت عيناها بأعينهما، الراقصات يدركن ذلك أيضاً، الحجم ليس مهمّاً، أرسلا زوجتيكما إلى النادي، وسنعلّمهما، وستُسعَدون جميعكم أكثر.

«لا تقتربا منها» قال الطاهي وهو يغمز سائقي الشاحنتين، «ستطرحكما أرضاً».

سألت جوليانا سائقَ الشاحنة الأصغر سنّاً: «من أين جئت؟».

«ميسوري»، أجاب الرجلان بصوت واحد.

«هل أنتما من الولايات المتّحدة؟»، سألت جوليانا.

«أنا من هناك» قال الرجل الأكبر سنّاً، «من فيلادلفيا. لديّ ثلاثة أطفال هناك، أكبرهم في الحادية عشرة».

«اسمعا» قالت، «هل يسهل الحصول على وظيفة جيّدة هناك؟».

«بالتأكيد» أجابها السائق الأصغر سنّاً، «إن كان لون بشرتكِ ملائماً». وجهه كئيب داكن، وشعره أسود مجعّد، وسرعان ما أصبحت ملامحه ساكنة مريرة.

«إنّه إيطاليّ»، علّق السائق الأكبر سنّاً.

«حسناً» قالت جوليانا، «ألم تربح إيطاليا الحرب؟». ابتسمت للسائق الشابّ، لكنّه لم يبادلها الابتسامة، بل اتّقدت عيناه الكئيبتان، من ثمّ أشاح بوجهه فجأة.

أنا آسفة، فكّرتْ، لكنّها لم تقل شيئاً. لا يمكنني أن أحرّركَ أنتَ أو غيرك من بشرتك الداكنة. ثمّ فكّرت بفرانك، هل مات؟! لأنّه قال ما لا يجوز قوله مثلاً،

أو لأنّه تحدّى القانون؟! كلّا، فكّرت، فرانك يحبّ اليابانيّين، وربّما يتماهى معهم لأنّهم قبيحون. لطالما نعتتْ فرانك بالقبيح: مسامات وجهه واسعة، وأنفه كبير، أمّا هي فبشرتها صافية مدهشة. هل سقط ميتاً بسبب غيابي؟! فينك[3] تعني الحسّون، والحسّون نوع من الطيور، يقال إنّ الطيور تسقط ميتة.

«هل ستتابعان الرحلة اليوم؟»، وجّهت سؤالها إلى السائق الإيطاليّ الشابّ.

«غداً»

«إن لم تكن سعيداً في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، لِمَ لا تغادرها نهائيّاً؟» قالت، «أنا أعيش في ولاية جبال روكي منذ فترة طويلة، وهي ليست سيئة. سابقاً، كنتُ أقيم في الساحل، في سان فرانسيسكو، لونُ البشرة هو قضيّةٌ جوهريّة هناك أيضاً».

رمقها الإيطاليّ منحنياً على الكاونتر، ثمّ قال: «يا سيّدة، مجرّد قضاء يوم واحد أو ليلة واحدة في بلدة كهذه، سيئ بما يكفي! أعيش هنا؟! يا للمسيح! لو أنّ بمقدوري الحصول على وظيفة أخرى، دون أن أضطرّ للسفر من مكان إلى مكان، أو لتناول الطعام في مكان كهذا...» وعندها انتبه إلى أنّ وجه الطاهي أصبح أحمر اللون، فصمت، من ثمّ بدأ يرتشف قهوته.

«جو، أنتَ مغرور!»، قال السائق الأكبر سنّاً.

«يمكنك أن تعيش في دنفر» قالت جوليانا، «إنّها أفضل». أنا أعرفكم جيّداً، يا أهل الساحل الشرقيّ، تحبّون اللحظات العظيمة، وتحلمون بمشاريعكم الكبيرة، أمّا الروكي فهي مجرّد منطقة ريفيّة بالنسبة لكم. لم يقع أيّ حدث هنا منذ ما قبل الحرب، لا يوجد إلّا العجائز المتقاعدون، والمزارعون، والفقراء الأغبياء الكسولون... الأولاد الأذكياء جميعهم هاجروا شرقاً إلى نيويورك، بعد أن عبروا الحدود بشكل شرعيّ أو غير شرعيّ. هناك مال، مال كثير تدرّه الصناعة. التوسّع واستثمارات الألمان قدّمت الكثير، ولم تستغرق إعادة إعمار الولايات المتّحدة وقتاً طويلاً...

3- كنية فرانك فرينك الأصليّة هي فينك Finc، وهي مفردة محوّرة بالأصل عن Finch التي تعني الحسّون. المترجمة

«اسمع يا صديقي» قال الطاهي بصوت غاضب مبحوح، «أنا لا أحبّ اليهود، لكنّني رأيتُ بعض اللّاجئين يفرّون من ولاياتك المتّحدة تلك عام 1949، وأنا لا أريدها. إن كانت مزدهرة، وفيها وفرة من المال السهل، فهذا لأنّهم سرقوه من أولئك اليهود عندما طردوهم من نيويورك، وفقاً لقانون نورمبرغ النازيّ اللعين ذاك. لقد عشتُ طفولتي في بوسطن، ولم أكترث باليهود، لكنّني لم أتخيّل يوماً أن يُشَرَّع قانونُ النازيّين العِرقيّ في الولايات المتّحدة الأميركيّة، على الرغم من أنّنا خسرنا الحرب. يفاجئني أنّك لستَ في صفوف جيش الولايات المتّحدة الآن، تستعدّ لاجتياح جمهوريّة صغيرة في أمريكا الجنوبيّة نيابة عن الألمان، كي يتمكّنوا من دفع اليابانيّين أبعد فأبعد...».

قفز السائقان كلاهما غاضبَين، التقط أكبرهما سنّاً قنينة الكاتشب، وأمسكها بشكل عموديّ من عنقها مهدّداً. الطاهي، دون أن يدير ظهره، مدّ يده خلفه إلى أن اصطدمت أصابعه بشوكة تقليب اللحم الطويلة، فأمسكها مهدّداً بدوره.

«إنّهم يبنون مَدرَجاً مقاوماً للحرارة في دنفر، كي تهبط صواريخ اللوفتهانزا هناك...»، قالت جوليانا.

لم يتحرّك أيٌّ من الرجال الثلاثة، ولم يعلّقوا أيضاً، بينما جلس بقيّة الزبائن صامتين.

أخيراً، نطق الطاهي: «مرّ صاروخ فوقنا عند الغروب».

«لم يكن متّجهاً إلى دنفر» قالت جوليانا، «بل غرباً، إلى الساحل».

رويداً رويداً، جلس السائقان، وتمتم أكبرهما سنّاً: «دائماً ما أنسى أنّهم صُفرٌ نوعاً ما هنا».

ردّ الطاهي: «اليابانيّون لم يقتلوا اليهود قط، سواء أثناء الحرب أو بعدها، ولم يبنوا أفران الغاز».

«مؤسف أنّهم لم يفعلوا!» قال السائق الأكبر سنّاً، ثمّ ارتشف قهوته، واستأنف تناول طعامه.

صُفرٌ، أجل، فكّرت جوليانا، هذا صحيح، نحن نحبّ اليابانيّين هنا، ثمّ وجّهت سؤالها إلى السائق الشابّ جو: «أين ستقضيان الليلة؟».

«لا أعرف» أجابها، «لقد نزلتُ لتويّ من الشاحنة وجئتُ إلى هنا. لا تعجبني هذه الولاية بأسرها، أعتقد أنّني سأنام في الشاحنة».

«موتيلُ هَني-بي ليس رديئاً»، قال الطاهي.

«حسناً» قال السائق الشابّ، «قد أنزل هناك إن لم يمانعوا أنّني إيطاليّ». لكنته واضحة، على الرغم من أنّه يحاول إخفاءها.

تأمّلته جوليانا وفكّرت: المثاليّة هي سبب مرارته. إنّه يطلب الكثير من الحياة، يتنقّل باستمرار، قلقاً، متذمّراً. أنا مثله! لم أستطع البقاء في الساحل الغربيّ، لكنّني لا أطيق المكان هنا. ألم يكن المسنّون هكذا بدورهم؟! لكنّ الحدود ليست هنا الآن، بل في الكواكب الأخرى.

من ثمّ فكّرت: بوسعنا أن نسجّل اسمينا، أنا وهو، في إحدى رحلاتِ استعمار الكواكب، لكنّ الألمان سيرفضونه بسبب لون بشرته، كما سيرفضونني بسبب شعري الأسود. سيرفضنا أفراد القوّات الخاصّة الإسكندناڤيون الشقر المثليّون النحيلون هؤلاء، المتواجدون في قلاع التدريب في باڤاريا. هذا الرجل، جو -أو أيّاً كان اسمه- لا يبدي حتّى التعبير الصحيح على وجهه! ينبغي عليه أن يتحلّى بتلك النظرة الباردة، لكن المتحمّسة في الوقت نفسه، كأنّه لا يؤمن بشيء أبداً، لكنّه يؤمن إيماناً مطلقاً في الوقت ذاته! أجل، هم هكذا، ليسوا مثاليّين كجوليانا وجو، بل متشائمون يؤمنون إيماناً مطلقاً. إنّه نوع من الخلل العقليّ، مثل استئصال فصّ دماغيّ... تلك الجراحة المشوّهة التي يجريها الأطباء النفسيّون الألمان، كبديل بائس عن العلاج النفسيّ.

مشكلتهم برأيها تنبع من الجنس، إنّهم يعبثون منذ الثلاثينيّات، من ثمّ تردّى الوضع أكثر. بدأ هتلر ذلك مع... من كانت؟ أخته؟ خالته؟ ابنة أخته؟ علماً أنّ زواج الأقارب كان شائعاً في عائلته، فأمّه وأبوه ابنا عمّ. جميعهم ارتكبوا زنا المحارم، وعادوا إلى الخطيئة الأصليّة المتمثّلة باشتهاء المرء لأمّه. لذلك، أفراد قوّات النخبة النازيّة المثليّون هؤلاء، يتمتّعون بوجوه ملائكيّة وببراءة طفوليّة شقراء. إنّهم يحافظون على نقائهم من أجل الماما، أو من أجلهم جميعاً.

ومن هي الماما بالنسبة لهم؟! تساءلت، القائد هِر بورمان ذاك الذي يموت، أم ذاك المريض؟

يُشاع أنّ أدولف هتلر العجوز يقضي أيّامه في مصحّة، حيث يحيا حياة الشيخوخة والشلل بسبب السفلس الدماغيّ. لقد التقط العدوى عندما كان متشرّداً فقيراً في ڤيينا، يلبس معطفاً أسود طويلاً وملابس داخليّة قذرة، ويعيش في ملجأ.

على ما يبدو، هذا هو انتقام الربّ الساخر، كأنّه مستوحى من فيلم صامت ما. ذلك الرجل الرهيب ابتُلِيَ بالقذارة الداخليّة، بالطاعون التاريخيّ، كعقاب على شروره. الجزء المرعب، هو أنّ الإمبراطوريّة الألمانيّة المعاصرة وُلِدَتْ من دماغه، كحزب سياسيّ أوّلاً، من ثمّ كأمّة، وبعدها استولت على نصف العالَم. النازيّون أنفسهم شخّصوا مرض هتلر وعرفوه، طبيب الأعشاب الدجّال ذاك الذي عالجه، د. مورِل، وأغرقه بدواء من اختراعه سمّاه «حبوب د. كوستر ضدّ الغاز»، كان في الأصل مختصّاً بالأمراض التناسليّة. العالَم بأسره يعرف، لكنّ برطمة القائد ما تزال مقدّسة، بل بمنزلة كتاب مقدّس بالأحرى. آراؤه لوثت الحضارةَ بأسرها، والملكات النازيّات الشقراوات العمياوات، ينطلقن الآن كأبواغ سامّة من الأرض إلى الكواكب الأخرى، وينشرن العدوى هناك.

هذه هي نتائج زنا المحارم: الجنون، العمى، والموت.

آخخخخخ! انتفضت، ثمّ نادت الطاهي: «تشارلي، هل طلبي جاهز؟». شعرت بأنّها وحيدة وحدة مطلقة، فوقفت، ومشت إلى الكاونتر حيث جلست إلى جانب صندوق الكاش. لم يلاحظها أحدٌ سوى السائق الإيطاليّ الشابّ، بعينيه السوداوين المثبّتتين عليها. اسمه جو، جو ماذا؟ تساءلت.

الآن، وقد جلست أقرب إليه، اكتشفت أنّه ليس شابّاً كما ظنّت. من الصعب تخمين عمره بدقّة، لأنّ التوتّر الذي يلفّه يشوّش تقديرها، فهو يمرّر يده على شعره باستمرار، ويمشّطه للخلف بأصابعه القاسية المتشقّقة. هذا الرجل مميّز، فكّرت، إنّه يتنفّس الموت، وهذا ما يزعجها وما يجذبها إليه في الوقت نفسه.

أدار السائق الآخر رأسه صوب جو، وهمس له بشيء ما، من ثمّ تفحّصاها كلاهما، لكن بنظرة تختلف عن الاهتمام الذكوريّ المعتاد.

«يا آنسة»، قال أكبرهما سنّاً. كلاهما متوتّران الآن. «هل تعرفين ما هذا؟» وأمسك علبة بيضاء مسطّحة، صغيرة نوعاً ما.

«أجل» أجابت جوليانا، «جوارب نايلون، منسوجة من ألياف تركيبيّة تُصنَع فقط من قبل كارتل نيويورك العظيم، شركة آي جي. فاربن. نادرة جدّاً، وغالية».

«الألمان يستحقّون التقدير... الاحتكار ليس فكرة سيّئة»، قال الأكبر سنّاً وهو يمرّر العلبة إلى رفيقه، الذي دفعها بمرفقه على طول الكاونتر باتّجاه جوليانا.

«هل لديكِ سيّارة؟» سألها الإيطاليّ الشابّ وهو يحتسي قهوته، وعندها ظهر تشارلي عائداً من المطبخ، حاملاً طبقها.

«أوصليني بسيّارتك إلى ذلك المكان»، قال. ما تزال عيناه الوحشيّتان القويّتان تدرسانها، فشعرت بأنّ توتّرها يزداد، وكذلك ذهولها.

«إلى ذلك الموتل، أو حيثما يفترض أن أقضي الليلة. أليس كذلك؟»

«أجل» قالت، «لديّ سيارة، ستاديبيكر عتيقة».

نقل الطاهي نظراته بينها وبين السائق الشابّ، من ثمّ وضع الطبق أمامها على الكاونتر.

***

أعلن مكبّر الصوت من نهاية الممرّ: Achtung, meine Damen und[4] Herren فأجفل السيّد باينس في مقعده، وفتح عينيه. من النافذة على يمينه، رأى الأرض البنيّة والخضراء في الأسفل، من ثمّ زرقة المحيط الهادئ، فاستنتج أنّ الصاروخ قد باشر الهبوط ببطء. بالألمانيّة أوّلاً، ثمّ باليابانيّة، وأخيراً بالإنجليزيّة، أعلن مكبّر الصوت أنّه لا يجوز التدخين أو فكّ أحزمة الأمان، أثناء الهبوط الذي سيستغرق ثماني دقائق.

4- انتباه، سيّداتي وسادتي. المترجمة

أقلع محرّك الدفع الخلفيّ فجأة بهدير صاخب، فاهتزّت المركبة بعنف، وشهق بعض المسافرين، لكنّ السيّد باينس ابتسم. في المقعد المحاذي له في الجهة المقابلة، ابتسم مسافر آخر، شابّ شعره الأشقر قصير للغاية.

«Sie furchten dass ...» بدأ الشابّ، لكنّ السيّد باينس قاطعه فوراً بالإنجليزيّة: «آسف، لا أتكلّم الألمانيّة». حدّق الشابّ إليه مستفهماً، من ثمّ كرّر ما سمعه بالألمانيّة، وبعدها سأل مندهشاً بإنجليزيّة تشوبها لكنة: «لستَ ألمانيّاً؟!».

«أنا سويديّ»، أجاب باينس.

«لكنّك انطلقتَ من تمبلهوف»

«أجل، كان لديّ عمل في ألمانيا. عملي ينقلني من بلد إلى بلد».

من الواضح أنّ الشابّ الألمانيّ لا يصدّق أنّ هناك شخصاً ما في العالم الحديث، شخص يعقد صفقات عمل دوليّة، ويركب -أو يستطيع أن يركب- أحدث صواريخ اللوفتهانزا، لا يمكنه أن يتكلّم الألمانيّة، أو لا يريد ذلك!

«ما هو نطاق عملك يا سيّدي؟»، سأل الشابّ.

«البلاستيك، البوليستر، الريزين، واستخدام البدائل التركيبيّة. هل تفهم؟ وليس البضائع الاستهلاكيّة»، أجاب باينس.

لم يصدّق الشابّ ما سمعه، فسأل: «هناك صناعات بلاستيكيّة في السويد؟!»

«أجل، في غاية الجودة. إن أعطيتني اسمك، سأرسل لك بروشوراً من بروشورات الشركة بالبريد»، وأخرج السيّد باينس قلمه ودفتره.

«لا تشغل بالك، هذا مضيعة لوقتك. أنا فنّان، ولستُ تاجراً... لا أقصد الإهانة. لعلّك رأيتَ أعمالي عندما كنتَ في القارّة، أنا أليكس لوتز». قال الشابّ، وانتظر.

«أخشى أنّني غير مهتمّ بالفنّ الحديث» أجاب باينس، «أنا أحبّ فنّ ما قبل الحرب، التكعيبيّ والتجريديّ. أفضّل أن تعني الصورة شيئاً ما، لا أن تقدّم المثاليّ فحسب»، وأشاح بوجهه.

«لكن هذه هي مهمّة الفنّ» قال لوتز، «أن يطوّر روحانيّة الإنسان على حساب الحسيّ. فنّك التجريديّ يمثّل حقبة من الانحطاط الروحانيّ، من الفوضى الروحانيّة، بسبب تفكّك المجتمع والبلوتوقراطيّة القديمة. اليهود والرأسماليّون من أصحاب الملايين، كانوا المجموعة الدوليّة التي دعمت الفنّ الانحطاطيّ. تلك الأيّام انتهت الآن، وعلى الفنّ أن يتجاوزها، لا يمكن أن يبقى جامداً».

هزّ باينس رأسه، وحدّق عبر النافذة.

«هل زرتَ الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة من قبل؟»، سأل لوتز.

«عدّة مرّات»

«أنا أزورها للمرّة الأولى. سيقام معرض لأعمالي في سان فرانسيسكو، ينظّمه مكتب د. غوبلز بالتنسيق مع السلطات اليابانيّة، كتبادل ثقافيّ لتعزيز الفهم المشترك والنوايا الطيّبة. علينا أن نخفّف التوتّر ما بين الشرق والغرب، ألا تظنّ ذلك؟ ينبغي أن ننمّي التواصل ما بيننا، والفنّ قادر على تحقيق ذلك».

هزّ باينس رأسه مجدّداً. في الأسفل، تحت حلقة النار المنطلقة من الصاروخ، ظهر الخليج ومدينة سان فرانسيسكو.

«أين يمكن للمرء أن يأكل في سان فرانسيسكو؟» سأل لوتز، «لديّ حجوزات في فندق بالاس هوتل، لكنّني فهمتُ أنّ هناك مأكولات لذيذة في القسم الدوليّ من المدينة، مثل تشاينا تاون».

«صحيح»، أجاب باينس.

«هل الأسعار باهظة في سان فرانسيسكو؟ أنا مفلس في هذه الرحلة، فالوزارة بخيلة جدّاً» قال لوتز، ثمّ ضحك.

«هذا يعتمد على سعر الصرف الذي ستتدبّره. أفترض أنّك تحمل بنكنوت الرايخسبانك، لذلك أقترح أن تذهب إلى بنك طوكيو في شارع سامسون، وتستبدله هناك».

«كلّا، Danke sehr[5]» قال لوتز، «سأستبدله في الفندق».

5- جزيل الشكر. المترجمة

أوشك الصاروخ على الوصول للأرض، واستطاع باينس أن يرى المطار بحدّ ذاته، والهنغارات، ومواقف السيّارات، والطريق السريع المؤدّي إلى المدينة والبيوت. منظر فائق الجمال! فكّر، جبال وماء، والقليل من الضباب يطفو فوق البوّابة الذهبيّة.

«ما هو ذلك المشروع الضخم هناك في الأسفل؟» سأل لوتز، «إنّه شبه مكتمل، ومفتوح من أحد طرفيه. هل هو ميناء فضائيّ؟! لا يملك اليابانيّون مركبات فضائيّة على حدّ علمي!».

بابتسامة، أجابه باينس: «إنّه استاد غولدن بوبي، ملعب بيسبول».

ضحك لوتز، وقال: «أجل، إنّهم يحبّون البيسبول. غير معقول! لقد بدؤوا العمل على مشروع عظيم من أجل هواية، من أجل رياضة خاملة تضيّع الوقت...»، فقاطعه باينس: «لقد اكتمل بناؤه، وهذا هو شكله النهائيّ، مفتوح من أحد طرفيه. إنّه تصميم هندسيّ حديث، وهم فخورون به للغاية».

«يبدو أنّ المصمّم يهوديّ!»، قال لوتز محدّقاً للأسفل.

رمقه باينس لبرهة، وانتابه إحساس قويّ خاطف بأنّ الألمانيّ يعاني نوعاً ما من عدم التوازن العقليّ ومن الاختلال الذهانيّ. هل يقصد لوتز فعلاً ما قاله، أم إنّها ملاحظة عفويّة؟!

«آمل أنّنا سنلتقي لاحقاً في سان فرانسيسكو» قال لوتز عندما حطّ الصاروخ على الأرض، «سأشعر بالملل من دون ابن بلد أتحدّث معه».

«لستُ ابن بلدك»، قال باينس.

«آه، صحيح، لكنّك قريب منّي عِرقيّاً، ونوايانا وأهدافنا كلّها واحدة»، وأخذ يتململ في مقعده، مستعدّاً لفكّ حزام الأمان.

هل أمتُّ حقّاً بصلة قرابة عِرقيّة لهذا الرجل؟! تساءل باينس، وهل هي قرابة وثيقة إلى حدّ أنّنا نتشارك النوايا والغايات ذاتها؟ هذا يعني أنّني مصاب بالاضطراب العقليّ ذاته بدوري! يا لهذا العالَم المختلّ الذي نعيش فيه، حيث يتبوّأ الرجال المجانين السلطة. منذ متى ونحن نعيشه؟ ونواجهه؟ كم شخصاً منّا يعرف ذلك؟ لوتز لا يعرف، إن أدركتَ بأنّك مجنون، إذن، إمّا أنّك لستَ مجنوناً، أو أنّك شفيت، واستيقظتَ. أعتقد أنّ قلّة من الناس فقط تعي كلّ

هذا، بعض الأشخاص المتفرّقين هنا وهناك، أمّا الجماهير الغفيرة... ماذا يعتقدون؟ مئات آلاف الأشخاص هنا في هذه المدينة، هل يتخيّلون أنّهم يعيشون في عالم عاقل؟ هل يحزرون الحقيقة؟ هل يلمحونها؟

ولكن، فكّر، ماذا يعني «الجنون»؟ ما هو تعريفه القانونيّ؟ ماذا أقصد بالجنون؟ أنا أشعر به، وأراه، لكن ما هو؟

إنّها طبيعتهم، أو شيء ما يفعلونه. إنّه لا وعيهم، ونقص معرفتهم بالآخرين. إنّهم لا يعرفون أنّهم يؤذون الآخرين، ولا يعون الدمار الذي سبّبوه، وما يزالون يسبّبونه. كلّا، فكّر، ليس تعريفاً صحيحاً... لا أعرف، أنا أشعر به أو أعرفه بالحدس، لكنّهم قساة عن عمد... هل هذا هو؟ كلّا، يا إلهي! فكّر. لا أجد تعريفاً، ولا أعرف كيف أوضّحه. هل يتجاهلون أجزاء من الواقع؟ أجل، لكن هناك المزيد. إنّها خططهم، أجل خططهم باستعمار الكواكب. شيء ما جنونيّ ومختلٌّ، كاستعمار إفريقيا، وقبلها أوروبا وآسيا.

تطلّعاتهم كونيّة، لا تتعلّق بَرَجُلٍ هنا، أو طفل هناك، بل هي تجريد متعالٍ: العِرق، الأرض، الشعب، الأرض، الدم، الشرف... لا تتعلّق بالرجال الشرفاء، بل بالشرف بحدّ ذاته. المجرّد حقيقيّ، أمّا الواقعيّ فغير مرئيّ بالنسبة لهم. الصالح... لا يتعلّق بصلاح البشريّة ككلّ، بل بفرد واحد. إنّه إحساسهم بالزمان والمكان، إنّهم ينظرون عبر الـ «هنا» و«الآن» إلى الخواء الأسود العميق في الخلف، إلى اللّا مُتَغيِّر، وهذا يقتل الحياة التي ستفنى حتماً في نهاية المطاف. ذات مرّة، كان الفضاء خالياً إلّا من ذرّات الغبار وغازات الهيدروجين الساخنة، فقط لا غير، وسيتكرّر ذلك مجدّداً. ما نعيشه هو فاصل، لحظة عابرة... العمليّة الكونيّة تتسارع، وتطحن الحياة مرّة أخرى إلى غرانيت وميثان، والوضع ينقلب بالنسبة لكلّ أشكال الحياة. كلّ شيء مؤقّت، وهؤلاء الرجال المجانين يستجيبون للغرانيت، للغبار، للتوق إلى اللّا حيّ، يريدون أن يساعدوا الطبيعة.

وأنا أعرف لماذا، فكّر. يريدون أن يكونوا صانعي التاريخ، لا ضحاياه. إنّهم يتماهون مع قوّة الله، ويصدّقون أنّهم أشبه بالآلهة. ذلك هو جنونهم الرئيس. سيطر عليهم مثال معيّن، وتضخّم غرورهم إلى حدٍّ جنونيّ، بحيث لم يعودوا

قادرين على التمييز بين أنفسهم والألوهيّة. ليست الغطرسة، ولا الكبرياء، بل تضخّمُ الإيغو إلى درجة الالتباس المطلق بين العابد والمعبود. الإنسان لم يأكل الله، بل الله هو من أكل الإنسان... لكنّهم لا يفهمون عجز الإنسان. أنا ضعيف، ضئيل، وعديم القيمة بالنسبة للكون الذي لا يراني أصلاً، أنا أعيش كأنّني غير مرئيّ. لكن... لماذا نحسب ذلك سيّئاً؟ أليس الوضع أفضل هكذا؟ فمن تراه الآلهة، تدمّره. كن صغيراً، وستنجو من غيرة العظماء.

وهو يفكّ حزام الأمان، قال باينس: «يا سيّد لوتز، لم أخبر أحداً بهذا من قبل. أنا يهوديّ، هل تفهم؟».

حدّق لوتز إليه بشفقة.

«لا يمكنك أن تحزر ذلك» تابع باينس، «لأنّ مظهري مختلف كليّاً عن اليهود. لقد عدّلتُ أنفي جراحيّاً، وعالجتُ مساماتي الدهنيّة الواسعة، وفتّحتُ بشرتي كيمائيّاً، وغيّرتُ شكل جمجمتي. باختصار، لا يمكن لأحد أن يكشفني بناء على مظهري الجسديّ، بمقدوري أن أختلط بأرقى طبقات النخبة في المجتمع النازيّ، وهو ما فعلتُه، ولن يكتشفني أحد على الإطلاق، و...». صمت قليلاً، ثمّ أقترب أكثر من لوتز، وتابع بصوت خفيض لا يسمعه الآخرون: «هناك العديدون مثلي، هل تسمع؟ ما زلنا موجودين، ونحيا غير مرئيّين».

بعد لحظة، غمغم لوتز: «جهاز الأمن...»

«فليفحص جهاز الأمن سجلّي كما يشاء» قال باينس، «يمكنك أن تبلغ عنّي، لكنّني أملك صلات رفيعة المستوى، بعضها مع آريين، وبعضها مع يهود آخرين يتبوؤون أعلى المناصب في برلين. سيُدحَض بلاغك، من ثمّ، سأبلغ عنك أنا على الفور، وبفضل صِلاتي ذاتها، ستجد نفسك في الحجز الاحتياطيّ». ابتسم باينس، وهزّ رأسه، ثمّ سار عبر الممرّ بين المقاعد مبتعداً عن لوتز، وانضمّ إلى بقيّة المسافرين.

نزل الجميع من الصاروخ إلى المَدرَج البارد العاصف في الأسفل، حيث وجد باينس نفسه بالقرب من لوتز مجدّداً.

«في الواقع» قال وهو يسير إلى جانبه، «لم تعجبني ملامحك سيّد لوتز، لذلك أعتقد أنّني سأبلغ عنك بأيّ حال»، ثمّ حثّ خطاه تاركاً الألمانيّ خلفه.

في الطرف الآخر من المدرج، أمام مبنى الوافدين، وقف حشد ضخم من أقارب وأصدقاء المسافرين. لوّح البعض، بينما حدّق آخرون، أو ابتسموا، أو بان القلق على وجوههم وهم يتفحّصون وجوه الواصلين. هناك رجل ياباني في أواسط العمر، ضخم البنية، أنيق، يرتدي معطفاً طويلاً وحذاء أكسفورد مدبّباً وقبّعة رسميّة، يقف متقدّماً عن الآخرين قليلاً، وإلى جواره ياباني آخر أصغر سنّاً، يعلّق على معطفه شارة لجنة الحكومة الإمبراطوريّة للتجارة الباسيفيكيّة السامية. إنّه السيّد ن. تاغومي، أدرك باينس، وقد جاء شخصياً لاستقباله.

خطا الياباني للأمام قائلاً: «هِر باينس، مساء الخير»، وأحنى رأسه بتردّد.

«مساء الخير سيّد تاغومي» ردّ باينس وهو يمدّ يده كي يصافحه، من ثمّ انحنيا كلاهما، وانحنى الياباني الشابّ بدوره مبتهجاً.

«الجوّ بارد قليلاً يا سيّدي، في هذا المدرج المكشوف» قال السيّد تاغومي، «سنتوجّه إلى مركز المدينة بهيلوكوبتر اللجنة. هل يناسبك هذا؟ أم أنّك تريد استخدام المرحاض وما شابه؟»، ثمّ رمق السيّدَ باينس بقلق.

«يمكننا الانطلاق مباشرة» قال باينس، «أريد أن أذهب إلى فندقي. حقائبي....»

«سيهتمّ بها السيّد كوتوميشي» قال السيّد تاغومي، «وسيتابعها. كما ترى يا سيّدي، يقتضي منك استلام حقائبك في هذا المطار، الوقوف ساعة كاملة بانتظار دورك، أي أطول ممّا استغرقته رحلتك».

ابتسم السيّد كوتوميشي موافقاً.

«حسناً»، قال باينس.

«سيّدي، لديّ هدية لك»، قال السيّد تاغومي.

«أستميحك عذراً؟»

«كي نرحّب بك». مدّ السيّد تاغومي يده إلى جيب معطفه، وأخرج علبة صغيرة. «اخترناها من بين أفضل قطع الفنّ الأمريكيّ المتوافرة»، وناول العلبة للسيّد باينس.

«حسناً» قال باينس، «شكراً»، وقَبِل الهديّة.

«لقد قام موظّفون مختصّون بفحص الخيارات البديلة طيلة العصر، ثمّ اختاروا هذه» قال السيّد تاغومي، «إنّها القطعة الأصليّة الأفخم من ثقافة الولايات المتّحدة الأمريكيّة المحتضرة، قطعة أنتيكا سليمة نادرة، تحمل نكهة الماضي البائد الجميل».

فتح السيّد باينس العلبة، فوجد بداخلها ساعة يد على شكل ميكي ماوس، موضوعة فوق قطعة من المخمل الأسود... هل يمزح السيّد تاغومي معه؟!

رفع بصره، ورأى ملامح التركيز والتوتّر على وجه السيّد تاغومي. كلّا، إنّها ليست مزحة. «شكراً جزيلاً لك»، قال باينس، «هديّة رائعة بالفعل».

«في العالَم بأسره اليوم، لا توجد إلّا بضع قطع أصليّة من ساعات ميكي ماوس المصنوعة عام 1938... لعلّها لا تتجاوز العشر!» قال السيّد تاغومي وهو يدرس ملامح السيّد باينس، محلّلاً شكره وردّ فعله. «لا يملك مثلها أيٌّ من هواة جمع الأنتيكات الذين أعرفهم يا سيديّ».

دخلا مبنى المسافرين معاً، وسارا. خلفهما، قال السيّد كوتوميشي:

«Harusame ni nuretsutsu yane no temari kana»

«ماذا؟»، سأل السيّد باينس.

«شعر قديم» قال السيّد تاغومي، «من حقبة توكوغاوا الوسطى».

«عندما تهطل أمطار الربيع وتبلّلهم / على سطح المنزل / هناك كرة قماشيّة لطفل»، قال السيّد كوتوميشي.

***

-4-

عندما لمح فرانك فرينك ربَّ عمله السابق يتهادى في الممر، متّجهاً إلى ورشة العمل الرئيسيّة في شركة ويندام-ماتسون، فكّر: الغريب في الأمر أنّه لا يبدو كمالك معمل على الإطلاق! إنّه أشبه بكحوليّ متشرّد من قاع المدينة، استحمّ، وحلق شعره ولحيته، وحصل على ملابس جديدة وحقنة ڤيتامينات، من ثمّ انطلق إلى العالم مع خمسة دولارات في جيبه، كي يبدأ حياة جديدة. أسلوب الرجل العجوز ضعيف، متقلّب، عصبيّ، ومزعج، كأنّه يعدّ الجميع بمنزلة عدوّ محتمل أقوى منه، ينبغي أن يتملّقه ويهدّئه. «سينالون منّي!»، هكذا يوحي أسلوبه.

في حقيقة الأمر، ويندام-ماتسون العجوز قويّ للغاية، يمتلك حصصاً سياديّة في العديد من الشركات وأسواق البورصة والعقارات، فضلاً عن معمل الشركة التي تحمل اسمه.

تبعه فرينك، ودفع الباب المعدنيّ الكبير الذي ينفتح على الورشة الرئيسيّة: هدير الآلات الذي سمعه حوله يوميّاً طيلة سنوات، الرجال الذين يعملون عليها، الهواء المليء بشرارات الضوء والغبار والحركة... دخل الرجل العجوز إلى القاعة، فحثّ فرينك خطاه.

«مرحباً يا سيّد ويندام-ماتسون»، قال.

كان الرجل العجوز واقفاً في تلك اللحظة مع رئيس الورشة، إد مكارثي ذي الذراعين المشعّرتين، ورمق الرجلان فرينك وهو يدنو منهما.

بلّل ويندام-ماتسون شفتيه متوتّراً، وقال: «آسف فرانك، لا يمكنني أن أعيدك إلى عملك، لقد سبق أن وظّفتُ رجلاً آخر حلّ مكانك. ظننتُ

أنّك لن تعود، بعد ما قلتَه أمس». برقت عيناه الصغيرتان المدوّرتان تلقائيّاً بمراوغة، يعرف فرينك أنّها موروثة، وأنّها تسري في دم الرجل العجوز.

«جئتُ كي آخذ أدواتي، لا غير» صوته -ويا لسعادته- كان ثابتاً، بل فظّاً أيضاً.

«حسناً، سنرى» تمتم ويندام-ماتسون محتاراً على ما يبدو بشأن أدوات فرينك، ثمّ قال لإد مكارثي: «أعتقد أنّ ذلك من اختصاصك إد، هل يمكنك أن تتابع الموضوع مع فرانك؟ لديّ أشغال أخرى». ألقى نظرة على ساعة الجيب التي يحملها، ثمّ أضاف: «اسمع إد، سنناقش تلك الفاتورة فيما بعد، عليّ أن أتابع عملي». ربّت على ذراع إد مكارثي، من ثمّ مضى مبتعداً دون أن ينظر إلى الخلف، فبقي الرجلان وحيدين.

«لقد جئتَ كي تستعيد وظيفتك»، قال مكارثي بعد برهة.

«أجل»، اعترف فرينك.

«كنتُ فخوراً بك البارحة، بسبب ما قلتَه».

«وأنا كذلك» قال فرينك، «ولكن... تباً! لا أستطيع أن أبحث عن عمل في مكان آخر كما تعرف». شعر بالهزيمة واليأس، فقد سبق لهما أن تحدّثا في الماضي عن مشاكلهما. قال مكارثي: «لا، لا أعرف. أنت بارع باستخدام المخرطة، ولا تقلّ مهارة عن غيرك في الساحل. لقد رأيتك تنهي قطعة خلال خمس دقائق، بما في ذلك تلميعها وصقلها. أنت تتقن العمليّة كلّها، ما عدا لحام الأجزاء...».

«لم أدّعِ يوماً أنّني أعرف كيف أقوم باللحام»

«هل فكّرت بتأسيس مشروعك الخاصّ؟»

تأتأ فرينك وقد غلبته الدهشة: «كي أصنع ماذا؟!».

«مجوهرات»

«آه! بحقّ السماء!»

«قطع أصيلة تقليديّة، لا تجاريّة»، ثمّ أشار له كي يتبعه إلى زاوية من زوايا الورشة، بعيداً عن الضجّة. «بوسعك أن تؤسّس ورشة صغيرة في القبو، أو

في الكراج، ولن تكلّفك أكثر من ألفي دولار. فيما مضى، كنت أصمّم أقراطاً وسلاسل للنساء... تتذكّرها، تلك التصاميم العصريّة». تناول ورقة تجليخ، وبدأ يرسم عليها ببطء، مكتئباً. استرق فرينك النظر من فوق كتفه، فرآى تصميماً لإسوارة، تجريديّاً ذا خطوط انسيابيّة. «هل يوجد سوق لها؟» سأل، فكلّ ما يراه هو الحلي التقليديّة، أو بالأحرى أنتيكات الماضي، وأضاف: «لا أحد يريد تصاميم أمريكيّة عصريّة. لا وجود لها، لقد انقرضت مع الحرب».

«اخلِقْ سوقاً»، قال مكارثي بتكشيرة غاضبة.

«تقصد... أن أسوّقها بنفسي؟!»

«خذها إلى متاجر التجزئة، كذلك الموجود في شارع مونتغومري. ما اسمه؟ ذلك المتجر الكبير الراقي، الذي يبيع قطعاً فنيّة؟»

«المصنوعات اليدويّة الفنيّة الأمريكيّة» أجاب فرينك، الذي لم يدخل من قبل إلى متجر فخم غالٍ مماثل. في الواقع، قلّة من الأمريكيّين فعلت، اليابانيّون وحدهم يمتلكون مالاً للتسوّق في تلك المتاجر.

«هل تعرف ماذا تبيع متاجر التجزئة هذه؟» سأل مكارثي، «وبأسعار خرافيّة؟ بكلات الأحزمة الفضيّة اللعينة تلك، التي يصنعها الهنود في نيو مكسيكو! قطع خردة سياحيّة لعينة، تتشابه كلّها، ويحسبها الناس فنّاً أصيلاً محليّاً».

رمقه فرينك لوقت طويل. «أعرف ماذا يبيعون أيضاً!»، قال أخيراً، «وأنت تعرف ذلك بدورك».

«أجل»، قال مكارثي.

كلاهما يعرفان، لأنّهما كليهما متورّطان بذلك بشكل مباشر، ومنذ زمن طويل.

العمل الرسميّ لشركة ويندام-ماتسون، يتلخّص بصناعة الأدراج والدرابزينات والمواقد والتماثيل من الحديد المطاوع، لاستخدامها في الشقق الجديدة، وذلك بإنتاجها بكمّيات هائلة وفقاً لتصاميم معياريّة. من أجل بناءٍ جديد يضمّ أربعين شقّة مثلاً، ستصنع الشركة أربعين قطعة متطابقة، واحدة تلو الأخرى. ظاهريّاً، شركة ويندام-ماتسون هي مسبك حديد، لكنّها

تدير عملاً جانبيّاً يدرّ عليها أرباحها الحقيقيّة: بالاعتماد على تشكيلة متنوّعة حاذقة من الأدوات والموادّ، تنتج الشركة سيلاً لا ينتهي من القطع الفنيّة المزيّفة، التي تُقدَّم على أنّها مصنوعات يدويّة أمريكيّة أصيلة، من حقبة ما قبل الحرب. تُباع هذه القطع المزيّفة بحذر ومهارة في سوق الجملة، وتُضاف إلى القطع الأصيلة التي يجمعها الهواة على امتداد القارّة. كما هو الحال في سوق الطوابع والعملات القديمة، لا أحد قادر على تخمين النسبة الحقيقيّة للقطع المزيّفة قيد التداول، ولا أحد يرغب بذلك، خاصّة اليابانيّين.

قبل أن يستقيل فرينك، كان أمامه على طاولته مسدّس كولت قارب على الانتهاء، يقلّد المسدّس الأصليّ من حقبة التوسّع غرباً[1]. لقد صنع القوالب بنفسه، وصبّ المعدن، وصقل الأجزاء يدويّاً. هناك سوقٌ نهمٌ لا يشبع إلى الأسلحة الصغيرة من حقبة الحرب الأمريكيّة الأهليّة، وحقبة التوسّع غرباً، وبوسع شركة ويندام-ماتسون أن تبيع كلّ ما ينتجه فرينك، فالأسلحة اختصاصه.

سار ببطء إلى طاولة عمله، والتقط مِدَكّ المسدّس، الذي ما يزال شئزاً وخشناً. كنتُ سأنتهي منه خلال ثلاثة أيّام، أجل، فكّر. إنّها قطعة جيّدة! الخبير وحده قادر على تمييز الفروقات بين القطع الأصليّة، وتلك المقلّدة، لكنّ هواة الجمع اليابانيّين ليسوا خبراء بالمعنى الدقيق للكلمة، ولا توجد معايير أو اختبارات يعتمدون عليها في حكمهم. في الواقع، لم يشكّ اليابانيّون مطلقاً على حدّ علمه، في أصالة تلك القطع المسمّاة «قطعاً فنيّة تاريخيّة»، والمعروضة للبيع في متاجر الساحل الغربيّ. ربمّا سيشكّون ذات يوم، وعندها ستنفجر الفقاعة، وسينهار سوق الأنتيكات بأكملها، حتّى الأصليّة منها. إنّه قانون غريشام: المزوَّر يقوّض قيمة الحقيقيّ، وهذا القانون هو حتماً الدافعُ خلف عدم الشكّ، لأنّ الجميع سعداء في نهاية المطاف: المصانع هنا وفي مختلف المدن، تصنع تلك القطع وتجني الأرباح، تجّار الجملة يبيعونها، وتجّار التجزئة يعرضونها ويروّجون لها. هواة الجمع

1- الحقبة التي انطلق فيها المستوطنون الأوروبيّون لاستعمار القارّة الأمريكيّة الشماليّة بأكملها، بدءاً من المستوطنات الأولى على ساحل المحيط الأطلسيّ في القرن السابع عشر، وانتهاء بأقصى الغرب في القرن التاسع عشر. المترجمة

يدفعون نقودهم لقاءها، ويعودون سعداء بمشترياتهم إلى منازلهم، كي يبهروا أقرانهم وأصدقاءهم وعشيقاتهم.

ما سبق، يشبه تداول الأوراق النقديّة المزوّرة بعد الحرب: ظلّ الوضع جيّداً إلى أن دخلتِ الأوراق إلى حيّز الشكّ، ولم يتضرّر أحد حتّى لحظة اكتشافها، وعندها... تعرّض الجميع على السواء إلى الدمار! في الوقت الراهن، لا يتحدّث أحد عن التزوير، بمن في ذلك أولئك الذين يكسبون رزقهم من صناعة القطع المقلّدة. إنّهم يمتنعون عن التفكير بما يقومون به، ويركّزون على المشاكل التقنية البحتة، فقط لا غير.

«منذ متى وأنتَ تقلّد التصاميم الأصيلة؟»، سأل مكارثي.

هزّ فرينك كتفيه، وأجاب: «منذ سنوات! أنا أصنع نسخاً في غاية الدقّة، ولكن...».

«أتعرف بماذا أفكّر؟ أعتقد أنّك صدّقتَ ادّعاء النازيّين، بأنّ اليهود غير قادرين على الابتكار، وإنّما على التقليد والبيع فقط... مجرّد وسطاء، لا أكثر»، وركّز نظراته المتفحّصة التي لا ترحم على فرينك.

«ربّما»

«جرِّبْ. اصنع بعض التصاميم الأصيلة، أو اشتغلْ على المعدن مباشرة. اعبثْ قليلاً، كأنّك طفل يلهو»

«لن أفعل»، قال فرينك.

«أنت لا تؤمن بنفسك»، قال مكارثي. «لقد فقدتَ إيمانك بنفسك كليّاً، أليس كذلك؟ يا للأسف! أنا أعرف أنّك قادر على صنعها»، ثمّ مضى مبتعداً عن طاولة فرينك.

مؤسف جدّاً، فكّر فرينك، لكنّها الحقيقة. إنّه الواقع! لا يسعني أن أؤمن بنفسي، أو أن أتحمّس، عندما أشاء أو عندما أقرّر ذلك.

مكارثي ذاك، فكّر، إنّه رئيس ورشة رائع، يملك موهبة تحفيز الآخرين، وحملهم على بذل أفضل ما في وسعهم، وعلى العمل بأقصى طاقة رغماً عنهم. إنّه قائد بالفطرة، كاد يُلهمني للحظة... لكنّه غادر، وضاعتْ جهوده.

من المؤسف أنّني لا أحمل كتاب التنجيم معي هنا، فكّر فرينك، لكنتُ استشرته بخصوص هذا الاقتراح، واستفدتُ من حكمة عمرها خمسة آلاف عام... ثمّ تذكّر أنّ هناك نسخة من الآي-تشنغ في بهو مكتب شركة ويندام-ماتسون، فخرج من الورشة، واندفع عبر الممرّ، من ثمّ عبر المكتب إلى البهو.

جلس على أحد الكراسي المصنوعة من البلاستيك والكروم، وكتب سؤاله على الوجه الخلفيّ لمغلّف: هل أخوض تجربة العمل الإبداعيّ الخاصّ، الذي عُرِضَ عليّ للتوّ؟ من ثمّ بدأ يرمي قطع النقود. السطر السفليّ الذي حصل عليه كان سبعة، وكذلك السطران الثاني والثالث. تلك الأسطر ترسم الثلاثيّةَ السفليّة من الهكساغرام «تشين»، وهذا حَسَنٌ، لأنّ «تشين» هو الهكساغرام الإبداعيّ. من ثمّ، ظهر السطر الرابع، وكان ثمانية، أي «بِن»، وكذلك السطر الخامس. يا إلهي! فكّر بحماس، سطرين آخرين، وسأحصل على الهكساغرام الحادي عشر، تاي، أي السلام. إنّها نصيحة إيجابيّة للغاية، أو...

ارتجفت يداه وهو يقلّب قطع النقود. ظهر خطّ يانغ، أيّ أنّ الهكساغرام النهائيّ قد يكون السادس والعشرين، تا تشو: ترويض قوّة العظيم. الهكساغرامان كلاهما إيجابيّان للغاية، وإمّا أن يظهر هذا أو ذاك.

رمى ثلاث قطع نقديّة: ستّة... إنّه «السلام».

فتح الكتاب، وقرأ التفسير: السلام، الانزياحات الصغرى / المقاربات الكبرى / حظٌّ جيّد، نجاح.

إذن، يجدر بي أن آخذ بنصيحة مكارثي، وأن أفتتح ورشتي الخاصّة. الآن... الخطّ ستّة في الأعلى، إنّه الخطّ المتحرّك الوحيد الذي حصلتُ عليه. قلّب الصفحة، ماذا كان النصّ؟ لم يتذكّره، سيخبره بالنصيحة ذاتها على الأغلب، لأنّ الهكساغرام بحدّ ذاته إيجابيّ. اتّحاد السماء والأرض... لكنّ السطر الأوّل والسطر الأخير لا يُحسبان من الهكساغرام، لذلك... ربّما الخطّ ستّة في الأعلى...

التقطت عيناه السطر المطلوب، فقرأه بلمح البصر: سيتهاوى الجدار في

الخندق / لا تستعمل جيشاً الآن / أعلن عن أوامرك في مدينتك / التحفّظ يجلب الإذلال.

تبّاً! هتف، ثمّ قرأ التعليق:

«التغيّر المنسوب إلى الجزء الأوسط من الهكساغرام بدأ يحصل، جدار المدينة سينهار مجدّداً في الخندق الذي حُفِرت أساساته فيه، ساعة الهلاك قريبة...».

إنّه حتماً أحد أخطر الأسطر في الكتاب كلّه، الأسوأ بين ما ينوف على ثلاثة آلاف خطّ، لكنّ حكم الهكساغرام جيّدٌ إجمالاً....

أيّ من النصيحتين يتبع؟!

كيف تكون النصيحتان متناقضتين هكذا؟!

لم يحصل هذا معه من قبل، حظٌّ جيّد وهلاك يمتزجان معاً في نبوءة واحدة! يا لغرابة القدر! كأنّ النبوءة تنبع من أعماق الظلام والخراء، من ثمّ تنقلب مئة وثمانين درجة وتشعّ ضوءاً كالمجنونة! كأنّني ضغطتُ زرّين معاً في آلة، فتشوّش عملها، وأعطتني رؤى سيّئة عن الواقع... لكنّها لم تدم أكثر من لحظة واحدة فقط، لحسن الحظّ!

تبّاً! فكّر، إمّا هذا وإمّا ذاك، لا يمكن أن يجتمعا كلاهما معاً! لا يمكن للمرء أن يحظى بالحظّ الجيّد وبالهلاك في آن واحد!

أو... لعلّ هذا ممكن؟! مكتبة سُر مَن قرأ

صناعة المجوهرات ستجلب له الحظّ السعيد كما تشير نبوءة الكتاب، لكنّ ذلك السطر، ذلك السطر اللعين، يلمّح إلى أمر ما أبعد، إلى كارثة مستقبليّة لا علاقة لها غالباً بالمجوهرات. قَدَرٌ شرّير بانتظاري!

الحرب! فكّر، الحرب العالميّة الثالثة! اللعنة! سيُقتَلُ ملياران منّا، وتندثر حضارتنا، وتتساقط القنابل الهيدروجينيّة كحبّات البَرَد.

يا ربّ! ماذا يحدث؟! هل تسبّبتُ بإطلاق الحرب العالميّة الثالثة للتوّ؟! أو أنّ شخصاً ما غيري -لا أعرف من هو- يعبث؟! لعلّنا جميعنا تسبّبنا بذلك؟! الذنبُ ذنب علماء الفيزياء ونظريّة التزامن تلك، كلّ جزيء

مرتبط مع الجزيئات الأخرى جميعها، ولا يمكن للمرء أن يضرط دون أن يغيّر توازنَ الكون. نظريّة التزامن تجعل الحياة نكتة مضحكة، لكن من دون وجود أحد يستمتع بها! لقد فتحتُ كتاباً، وحصلت على ملخّص عن أحداث المستقبل، سيرغب الربّ شخصيّاً برميه وتناسيه... ومن أنا؟ أنا الشخص الخطأ، هذا ما أعرفه.

يجدر بي أن آخذ أدواتي وآلاتي من مكارثي، وأؤسّس ورشتي الخاصّة، كي أبدأ عملي السخيف. يجب أن أستمرّ على الرغم من ذلك السطر المرعب! سأعمل، وسأبتكر على طريقتي الخاصّة حتّى النهاية، سأحيا كأفضل ما أستطيع، وأبقى نشيطاً قدر الإمكان، إلى أن يتهاوى الجدار في الخندق بالنسبة للبشريّة بأسرها. هذا ما يخبرني به كتاب التنبّؤات، سيقتلنا القَدَر جميعنا في نهاية المطاف بأيّ حال، لكن لديّ عمل في الوقت الراهن. يجب أن أستغلّ عقلي ويديّ، النبوءة تخصّني أنا وحدي فقط، وتتحدّث عن عملي، أمّا ذلك السطر فيعنينا جميعنا.

أنا ضئيل، فكّر، لا يسعني إلّا أن أقرأ المكتوب فقط، وأن ألقي نظرة للأعلى، من ثمّ أحني رأسي وأتابع من حيث توقّفتُ، كأنّني لم أرَ شيئاً. لا يتوقّع منّي الآي-تشنغ أن أركض في الشوارع زاعقاً كي ألفت انتباه الناس! هل يستطيع أيّ شخصٍ تغييرَ القَدَر؟! تساءل، لو اجتمعنا كلّنا معاً، أو لو وُجِدَت شخصيّة واحدة عظيمة، أو شخص ما يتمركز في نقطة استراتيجيّة، يصدف أنّها البقعة الملائمة التي تعتمد حياتنا كلّنا عليها!

أغلق الكتاب، ثمّ غادر البهو عائداً إلى الورشة الرئيسيّة. عندما لمح مكارثي، أومأ له كي يأتي إلى زاوية كي يتابعا الحديث.

«كلّما فكّرتُ بكلامك» قال فرينك، «أحببتُ اقتراحك أكثر».

«جيّد» قال مكارثي، «والآن اسمعني، إليكَ ما أريد منكَ فعله، لا بدّ أن تحصل على تعويض من ويندام-ماتسون»، وغمزه، فارتعش جفنه ارتعاشة بطيئة قويّة خائفة. «لديّ خطّة، وسأستقيل أنا بدوري وأنضمّ إليك، فتصاميمي كما ترى... ما عيبها؟! إنّها جيّدة».

«بالطبع» قال فرينك، وشعر بالذهول.

«أراك الليلة بعد العمل» قال مكارثي، «تعال إلى شقّتي في السابعة، وتناول العشاء معي ومع جين، إن كنتَ تطيق الأطفال».

«حسناً»، أجاب فرينك.

ربّت مكارثي على كتفه، ثمّ مضى.

لقد قطعتُ شوطاً طويلاً، قال فرينك لنفسه، خلال الدقائق العشر الأخيرة. لا يشعر بالخوف الآن، وإنّما بالإثارة. لقد حصل كلّ شيء بسرعة، فكّر وهو يتّجه إلى طاولته كي يلملم أدواته. أعتقد أنّ الأمور تحصل هكذا، عندما تحين الفرصة... لقد انتظرتُها طيلة حياتي، وهو ما يعنيه الآي-تشنغ بقوله: «يجب أن تُنجِز إنجازاً ما»، توقيته رائع! ما هو هذا الزمن الآن؟ ما هي هذه اللحظة؟ الستّة في أعلى الهكساغرام الحادي عشر، تقلبه إلى الهكساغرام السادس والعشرين، أي «ترويض قوّة العظيم». الين يصبح يانغ، يتحرّك الخطّ فتظهر لحظة جديدة. كنتُ ضالّاً تماماً بحيث لم أنتبه! أراهن أنّني حصلتُ على ذلك السطر اللعين بسبب عدم انتباهي، إنّها الطريقة الوحيدة التي يمكن فيها للهكساغرام الحادي عشر أن ينقلب إلى السادس والعشرين، من خلال الخطّ السادس المتحرّك في الأعلى... لا داعي لأن أشغل بالي.

على الرغم من حماسه وتفاؤله، لم يستطع أن يتناسى ذلك السطر تماماً. بأيّ حال، فكّر بسخرية، أنا أبذل ما في وسعي، سأنساه بحلول الساعة السابعة كأنّي لم أقرأه قطّ! فكّر، أتمنّى ذلك، لأنّ اللقاء مع إد مهمّ للغاية، لديه أفكار ممتازة واعدة على ما يبدو، ولا أنوي أن ينتهي بي الحال فارغ اليدين. حالياً، أنا لا شيء، لكن إن نجحتُ فقد أستعيد جوليانا. أنا أعرف ما الذي تريده، إنّها تستحقّ أن تتزوّج رجلاً ذا شأن، شخصاً مهمّاً في مجتمعه، وليس أحمق مثلي. كان الرجال رجالاً حقيقيّين في الأيّام الخوالي، قبل الحرب مثلاً، لكنّهم انقرضوا الآن. لا عجب أنّها تتنقّل من مكان إلى آخر، ومن رجل إلى رجل، دون أن تدري ما الذي تريده هي، وما الذي يحتاجه جسدها، لكنّني أعرف، وعندما أضرب ضربتي مع مكارثي -أيّاً كانت- سأحقّق لها ما تريد.

***

أغلق روبرت تشلدن متجر «شركة المصنوعات اليدويّة الأمريكيّة الفنيّة

المحدودة» في موعد الغداء، وقطع الشارع كي يتناول طعامه في المقهى كعادته كلّ يوم. لا يتجاوز غيابه عادة أكثر من نصف ساعة، ولم يستغرق اليوم بالذّات أكثر من عشرين دقيقة، لأنّ ذكريات محنته مع السيّد تاغومي وموّظفي لجنة التجارة ما زالت تزعجه. في طريق عودته، قال لنفسه: لربّما أتبع سياسة جديدة بعدم عقد الصفقات هاتفيّاً، والاقتصار على إنجازها في المتجر.

استغرق عرض القطع على السيّد تاغومي ساعتين طويلتين للغاية -بل أربع ساعات بالمجمل- ممّا أخّره عن عمله، وضاعت فترة ما بعد الظهر كلّها لبيع قطعة واحدة لا غير، ساعة ميكي ماوس، إنّها كنز باهظ الثمن بلا شكّ، ولكن... فتح القفلَ، ودفع باب المتجر، ثمّ اتّجه إلى الغرفة الخلفيّة كي يعلّق معطفه.

عندما عاد إلى الغرفة الأماميّة، وجد زبوناً بانتظاره: رجل أبيض. حسناً، فكّر، يا لها من مفاجأة! «طاب نهارك يا سيّدي» قال بصوت عال، وهو ينحني قليلاً. إنّه بينوكسيّ على الأرجح، نحيل، قاتم البشرة نوعاً ما، أنيق يواكب الموضة، لكنّه لا يبدو مرتاحاً، فوجهه يلمع بالعرق.

«طاب يومك»، تمتم الرجل وهو يتنقّل في أرجاء المتجر متفحّصاً المعروضات، من ثمّ، اقترب فجأة من الكاونتر. مدّ يده إلى جيب معطفه، وأخرج علبة بطاقات شخصيّة مصنوعة من الجلد اللمّاع، تناول منها بطاقة متعدّدة الألوان فخمة الطباعة.

فحص روبرت تشلدن البطاقة بانبهار: يعلوها الشعار الإمبراطوريّ، وشعار القوّات المسلّحة البحريّة، واسم صاحبها: الأدميرال هاروشا.

«سفينة الأدميرال» شرح الزبون، « الناقلة سيوكاكو، ترسو في هذه اللحظة في خليج سان فرانسيسكو».

«آها»، قال تشلدن.

«لم يزر الأدميرال الساحلَ الغربيّ من قبل قط» تابع الزبون، «لديه العديد من الأمنيات التي يرغب بتحقيقها أثناء وجوده هنا، ومنها زيارة متجرك الشهير شخصيّاً، لأنّه يسمع عنه طيلة الوقت في جزر الوطن».

انحنى تشلدن مبتهجاً

«بأيّ حال» أضاف الرجل، «نظراً لازدحام جدول مواعيده، لن يتسنّى للأدميرال القدوم شخصياً، لذلك أرسلني كمبعوث شخصيّ نيابة عنه، أنا خادمه».

«هل يهوى الأدميرال جمعَ الأنتيكات؟» سأل تشلدن، ودماغه يعمل بطاقته القصوى.

«إنّه ذوّاقة محبّ للفنون، لكنّه ليس من هواة الجمع. يريد شراء هدايا مبهرة، كي يقدّم إلى كلّ ضابط من ضبّاط السفينة قطعة أنتيكا تاريخيّة قيّمة: سلاح فرديّ خفيف من حقبة الحرب الأهليّة الأمريكيّة الملحميّة». صمت الرجل قليلاً، ثمّ أضاف: «يوجد اثنا عشر ضابطاً على متن السفينة».

فكّر تشلدن بينه وبين نفسه: اثنتا عشرة قطعة سلاح فرديّ خفيف من حقبة الحرب الأهليّة... ثمنها يعادل عشرة آلاف دولار تقريباً! وارتجف.

«كما هو معروف» قال الرجل، «متجرك يبيع أنتيكات لا تقدّر بثمن من صفحات التاريخ الأمريكيّ. يا للحسرة! التاريخ يختفي بسرعة في ليمبو الزمن!»

انتقى تشلدن كلماته بمنتهى العناية، فلن يخاطر بخسارة زبون كهذا بسبب زلّة لسان. «أجل صحيح»، قال، «من بين كلّ المتاجر في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، أنا أمتلك أرقى مجموعة تتخيّلها من أسلحة الحرب الأهليّة، وتسعدني خدمة الأدميرال هاروشا. هل أعدّ تشكيلة فاخرة من تلك الأسلحة، وآخذها إلى السفينة كي يراها؟ هذا المساء مثلاً؟».

«كلّا» أجاب الرجل، «سأفحصها هنا».

اثنتا عشرة قطعة! فكّر تشلدن، لا تتوافر لديه إلّا ثلاث فقط، لكنّ تدبّرَ الباقي ممكن إن حالفه الحظّ، خلال أسبوع على الأكثر عبر قنواته الخاصّة، بالبريد الجويّ من الشرق مثلاً، ومن معارفه في متاجر الجملة المحليّة.

«أنت يا سيّدي» قال، «هل أنت خبير بالأسلحة؟».

«نوعاً ما» أجابه الرجل، «لديّ مجموعة صغيرة من أسلحة اليد، بما فيها مسدّس مموّه مصنوع على شكل قطعة دومينو، يعود إلى عام 1840 تقريباً».

«قطعة استثنائيّة!» علّق تشلدن، وذهب لإحضار الأسلحة من خزانة مقفلة، كي يتفحّصها مبعوث الأدميرال هاروشا. عندما عاد، رآه يحرّر شيكاً. توقّف الرجل عن الكتابة لحظة وقال: «يودّ الأدميرال أن يدفع مقدّماً، هاك سلفة بقيمة خمسة عشر ألف دولار».

دارت الغرفة بتشلدن، لكنّه تمكّن من السيطرة على صوته، بل أن يبدو غير مكترث. «كما تشاء، لكنّ هذا غير ضروريّ، إنّها مجرّد شكليّات». وضع على الطاولة صندوقاً صغيراً مصنوعاً من الجلد واللبّاد، وشرح: «مسدّس كولت 44 استثنائيّ، من عام 1860» وفتح الصندوق، «بارود أسود وكرةُ دكّ، استعمله أفراد جيش الاتّحاد الفدراليّ، أثناء معركة بول رَن الثانية على سبيل المثال».

استغرق الرجل وقته في تفحّص مسدّس الكولت 44، من ثم، رفع رأسه وقال بهدوء: «سيّدي، إنّه مزيّف».

«عفواً؟» قال تشلدن دون أن يفهم ما سمع.

«عمر هذه القطعة لا يتعدّى ستّة أشهر. سيّدي، ما تعرضه عليّ مزيّف. يؤسفني ذلك، لكن أترى الخشب هنا؟ لقد عُتِّق باستخدام مادّة كيميائيّة حمضيّة. يا للأسف!»، وألقى المسدّس من يده.

أمسك تشلدن المسدّس، وحمله بين يديه الاثنتين، دون أن يسعفه دماغه بأيّ شيء يقوله. قلّب المسدّس مرّة تلو المرّة، ثمّ نطق أخيراً: «مستحيل!».

«إنّه نسخة مقلّدة عن المسدّس التاريخيّ الأصليّ، لا أكثر. أخشى يا سيّدي أنّك قد خُدِعَت على يد وضيع عديم الوجدان. ينبغي أن تبلغ شرطة سان فرانسيسكو»، قال الرجل ثمّ انحنى، «يؤسفني هذا، لربّما يضمّ متجرك قطعاً مزيّفة أخرى. هل يعقل يا سيّدي أنّك غير قادر على تمييز الحقيقيّ عن المزوّر، على الرغم من أنّك المالك الذي يتعامل بهذه القطع؟!».

ساد الصمت.

مدّ الرجل يده إلى الطاولة، والتقط الشيك الذي لم ينته بعدُ من كتابته. أعاده إلى جيبه، ثمّ وضع القلم جانباً وانحنى. «يا للأسف يا سيّدي، من الواضح أنّه لا يمكنني عقد صفقة مع شركة المصنوعات اليدويّة الأمريكيّة

الفنيّة المحدودة، إذ سيخيب أمل الأدميرال هاروشا! أنت تقدّر موقفي، أليس كذلك؟».

حدّق تشلدن إلى المسدّس.

«طاب يومك يا سيّدي» قال الرجل، «أرجو أن تقبل نصيحتي المتواضعة، وظّف خبيراً يساعدك على فحص ما تقتنيه، حرصاً على سمعتك... أنا واثق أنّك تفهم ما أقصده».

غمغم تشلدن: «سيّدي... لطفاً، إن كان ممكناً...».

«اهدأ يا سيّدي، لن أذكر ما حصل لأحد. سأقول للأدميرال إنّ متجرك كان مغلقاً اليوم، للأسف. بعد كلّ شيء...» توقّف الرجل لحظة عند الباب، «بعد كلّ شيء، كلانا من العرق الأبيض». انحنى مرّة أخيرة، ثمّ غادر.

وحيداً، ظلّ تشلدن واقفاً والمسدّس بين يديه.

«مستحيل!» فكّر.

لكنّه حصل! يا ربّ السماوات! لقد تدمّرتُ، لقد خسرت صفقة قيمتها خمسة عشر ألف دولار! وسمعتي... إن ذاع الخبر، إن لم يبق ذلك الرجل مبعوث الأدميرال هاروشا صامتاً...

سأقتل نفسي! قرّر، لقد خسرتُ مكانتي، لا يمكنني المضيّ قدماً، هذه حقيقة. من ناحية أخرى، قد يكون الرجل مخطئاً، ولعلّه كاذب! لعلّ متجر «أنتيكات الولايات المتّحدة» قد أرسله كي يدمّرني، أو لعلّه متجر «فنُّ الساحل الغربيّ الحصريّ». بأيّ حال، لا بدّ أنّه أحد المنافسين! هذا المسدّس أصليّ، بلا شكّ.

كيف أتأكّد؟!

عصر تشلدن دماغه، آها أجل، سأطلب من قسم علم الجريمة في جامعة كاليفورنيا أن يفحصه. أعرف شخصاً هناك، أو كنتُ أعرف أحدهم فيما ما مضى... فقد حصلت هذه المسألة سابقاً، ادّعاءات بزيف قطعة سلاح عتيقة.

على عجل، اتّصل بإحدى شركات خدمات السعاة وتوصيل البضائع، وطلب منها إرسال ساعٍ على الفور. من ثمّ، لفّ المسدّس، وكتب ملاحظة

إلى مختبر الجامعة، طلب فيها أن يقوم أحد الخبراء بتقدير عمر السلاح، وأن يبلغه بالنتيجة مباشرة عبر الهاتف. عندما وصل الساعي، سلّمه تشلدن المسدّس الملفوف والملاحظة المكتوبة والعنوان، وأمره أن يستقلّ مروحيّة، ثمّ بدأ يذرع متجره جيئة وذهاباً بعد أن انطلق الساعي، وانتظر، وانتظر...

في الساعة الثالثة، اتّصلوا به من الجامعة.

«سيّد تشلدن» قال المتّصل، «لقد طلبتَ فحص هذا المسدّس لمعرفة ما إذا كان أصليّاً أم لا: مسدّس كولت 44، من عام 1860، من أسلحة جيش الاتّحاد الفدراليّ». صمت المتكلّم قليلاً، بينما شدّ تشلدن قبضته على سمّاعة الهاتف متوجّساً. «ها هو تقرير المختبر: إنّه نسخة مقلَّدة، مصبوب باستعمال قوالب بلاستيكيّة، ما عدا المقبض المصنوع من خشب الجوز. الأرقام المتسلسلة كلّها خاطئة، والإطارُ لم يُقَسَّ بالسيانيد. السطوح البنيّة والزرقاء نتجت عن استعمال تقنيّة حديثة سريعة، فضلاً عن أنّ السلاح كلّه عُتِّقَ من خلال عمليّة تجعله يبدو قديماً ومستعملاً».

قال تشلدن بصعوبة: «الرجل الذي أحضره لي بغية تقييمه...»

«قل له إنّه خُدِع» أجاب الخبير التقنيّ من الجامعة، «خدعة كبرى. إنّه عمل مُتقَن، نفّذه محترف حقيقيّ. هل ترى تلك الأجزاء المعدنيّة المزرقّة في المسدّس الحقيقيّ؟ إنّها تُصنَعُ بوضعها في علبة من الشرائح الجلديّة، تُغلَق وتُغمر بغاز السيانيد قبل أن تُسخَّن. إنّها عمليّة معقّدة للغاية حاليّاً، لكنّها أُنجِزَتْ في ورشة متطوّرة، بالإضافة إلى أنّنا اكتشفنا جزيئات من موادّ صقل وإنهاء مختلفة، بعضها غير تقليديّ. لا يمكننا إثبات ما سأقوله لك، لكنّنا نعرف بوجود صناعة منتظمة، تضخّ الأنتيكات المزوّرة في السوق. إنّها موجودة حتماً، فقد رأينا الكثير من هذه القطع».

«كلّا» ردّ تشلدن، «إنّها إشاعة فحسب، أنا أؤكّد ذلك لك تأكيداً قاطعاً يا سيّدي» علا صوته وتقطّع، «أنا في موقع يخوّلني معرفة ذلك. لماذا تظنّ أنّني أرسلتُ المسدّس إليكم؟ أنا قادر على اكتشاف أنّه مزيّف، بفضل سنوات من التمرين والخبرة. حادثة كهذه هي أمر نادر، مصادفة، بل مزحة في الحقيقة،

حيلة» قال وهو يلهث، «شكراً لك لتأكيد ملاحظاتي، أرسِل لي الفاتورة، شكراً لك»، وأغلق الخطّ فوراً.

من ثمّ، دون إبطاء، أخرج سجلّاته، وبدأ يبحث عن المسدّس. كيف حصل عليه؟ ممّن اشتراه؟

اكتشف أنّه اشتراه من أكبر مورّدي الجملة في سان فرانسيسكو: راي كالڤن وشركاؤه، في شارع ڤان نيس، فاتّصل بهم مباشرة.

«أريد أن أتكلّم مع السيد كالڤن» قال، وقد هدأ صوته نسبيّاً.

«نعم»، سرعان ما ردّ عليه صوت أجشّ حيويّ.

«أنا بوب تشلدن، من شركة المصنوعات اليدويّة الأمريكيّة الفنيّة المحدودة، في شارع مونتغومري. راي، لقد طرأ أمر حرج، أريد أن ألتقي بك في اجتماع مغلق، في أيّ وقت اليوم في مكتبك، أو في أيّ مكان آخر. صدّقني يا سيّدي، من الأفضل لك أن تقبل»، واكتشف أنّه يصرخ في سماعة الهاتف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«حسناً»، قال راي كالڤن.

«لا تخبر أحداً، هذا سرّيّ للغاية»

«في الساعة الرابعة؟»

«في الرابعة إذن، في مكتبك. طاب يومك» قال تشلدن، وخبط السمّاعة بغضب، فسقط الهاتف أرضاً. ركع، التقطه، وأعاده إلى مكانه. أمامه نصف ساعة لينطلق، نصف ساعة بأكملها يذرع فيها متجره يائساً، منتظراً. ماذا أفعل؟! خطرت له فكرة، فاتّصل بمكتب صحيفة طوكيو هيرالد في سان فرانسيسكو، الموجود في شارع ماركت.

«من فضلكم» قال، هل ترسو الناقلة سيوكاكو في الميناء؟ وكم ستبقى هناك إن كانت موجودة؟ أنا شاكر لصحيفتكم المحترمة، لتزويدي بهذه المعلومة».

ساد انتظار مؤلم.

ثمّ سمع صوت الفتاة التي ردّت عليه يقول أخيراً: «استناداً إلى مكتب المعلومات يا سيّدي» قالت وهي تقهقه، «الناقلة سيوكاكو موجودة في قاع

بحر الفليبين الآن، بعد أن أغرقتها غوّاصة أمريكيّة عام 1945. هل من سؤال آخر نساعدك به، يا سيّدي؟».

من الواضح أنّهم يستمتعون في مكتب الصحيفة، بهذا النوع من الحيل العبثيّة التي وقع ضحيّة لها!

أغلق الخطّ. الناقلة سيوكاكو غير موجودة منذ سبعة عشر عاماً، والأدميرال هاروشا غير موجود كذلك على الأرجح. ذلك الرجل، مبعوثه، محتال، ولكنّه... كان محقّاً: مسدّس كولت 44 مزيّف.

الأمر غير منطقيّ!

لربّما كان الرجل مستثمِراً، يحاول أن يحتكر سوق السلاح الفرديّ العائد لحقبة الحرب الأهليّة. لقد اكتشف التزييف على الفور، إنّه خبير إذن، بل خبير الخبراء! كشفُ التزييفِ يتطلّب محترفاً، شخصاً يمارس هذا النوع من العمل، لا مجرّد هاوٍ للأنتيكات. شعر تشلدن ببعض الراحة، قلائل غيره يستطيعون كشف التزييف إذن، بل لا أحد سوى هذا الرجل على الأرجح! السرّ بأمان.

هل يغضّ نظره عمّا حصل؟

كلّا، فكّر، لا بدّ من أن يتحرّى المسألة. أوّلاً سيستردّ ما دفعه لراي كالڤن، من ثمّ سيفحص كلّ القطع الموجودة لديه في مختبر الجامعة.

ماذا لو تبيّن أنّ العديد منها مزيّف؟!

معضلة!

هناك حلّ واحد، قرّر، وشعر بالحزن، بل باليأس. سأقابل راي كالڤن، سأواجهه، وسأصرّ على أن يقوم باكتشاف مصدر القطعة. لربّما كان بريئاً بدوره، ولربمّا لا. بأيّ حال، لا قطع مزيّفة بعد اليوم، وإلّا لن أشتري منه أبداً.

يتوجّب عليه أن يعوّض خسارتي، فكّر تشلدن، وإن رفض، سأشتري من مورّدي الجملة الآخرين، وأخبرهم بما حصل، وأدمّر سمعته. لماذا أتدمّر أنا وحدي؟! سألقي بالمسؤوليّة على أولئك المذنبين، من أوّلهم إلى آخرهم... لكن يجب أن يتمّ كلّ شيء بسريّة مطلقة، وأن يبقى بيننا.

***

–5–

اتّصال راي كالڤن الهاتفيّ، حيّر ويندام–ماتسون، الذي لم يفهم ما سمعه أصلاً. أوّلاً، لأنّ راي كالڤن يتحدّث بسرعة، وثانياً لأنّه اتّصل في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، أثناء وجود سيّدة تزوره في شقّته في فندق موروماتشي.

قال كالڤن: «اسمع يا صديقي، سنعيد لكم الشحنة الأخيرة بأكملها، تاريخ فاتورتها 18 أيّار... كنتُ سأعيد لكَ الشحنات الأقدم أيضاً، لو أنّنا لم نسدّد ثمنها».

بطبيعة الحال، أراد ويندام–ماتسون أن يعرف السبب.

«لأنّها قطع مزيّفة حقيرة»، قال كالڤن.

«لكنّك تعرف هذا!» ردّ ويندام–ماتسون مذهولاً، «أعني، راي، أنت تعي الوضع!» وألقى نظرة حوله. لقد اختفت الفتاة في مكان ما، لعلّها في حمّام غرفة الضيوف على الأرجح.

«أعرف أنّها مزوّرة، وأنا لا أتكلّم عن هذه النقطة»، ردّ كالڤن. «أنا أتكلّم عن الجزء الحقير. اسمع، لا يهمّني ما إذا كان المسدّس الذي ترسله لنا قد استُخِدم فعلاً في الحرب الأهليّة أم لا، كلّ ما يعنيني هو أنّه مسدّس كولت 44 مُقنِع... أيّاً كان ما تعرضه في كتالوجك، فلا بدّ أن يستوفي المعايير المطلوبة. اسمعني، هل تعرف من هو روبرت تشلدن؟».

«أجل» قال ويندام–ماتسون. تذكّره بصورة ضبابيّة غامضة على أنّه شخصيّة مهمّة، لكنّه لم يستطع أن يحدّد من هو بدقّة في هذه اللحظة.

«لقد كان هنا اليوم، في مكتبي... أنا أكلّمك من مكتبي، لا من المنزل، ما

زلنا نتابع المسألة. بأيّ حال، زارني روبرت تشلدن اليوم، وسرد قصّة طويلة وقد جُنَّ من الغضب. كان مهتاجاً حقّاً! على ما يبدو، جاء إلى متجره زبون مهمّ، أدميرال يابانيّ ما أو أحد رجاله. تحدّث تشلدن عن صفقة بقيمة عشرين ألف دولار، لكنّني أعتقد أنّه يبالغ. بأيّ حال، ما حدث -وأنا لا أشكّ بصحّة كلامه مطلقاً- أنّ اليابانيّ أراد أن يشتري، لكنّه ألقى نظرة واحدة لا غير على أحد مسدّسات كولت 44 التي تصنعونها أنتم، واكتشف أنّه مزيّف، فأعاد نقوده إلى جيبه وغادر. ما قولك؟».

لم ينطق ويندام-ماتسون، لكنّه فكّر بينه وبين نفسه على الفور: إنّهما فرينك ومكارثي! قالا إنّهما سينتقمان، وهذا ما فعلاه! لم يستطع أن يتصوّر ماذا فعلا بالضبط، ولا أن يستوعب ما يرويه كالڤن، وغمره نوع من التطيّر الخائف. هذان الاثنان! كيف استطاعا أن يزيّفا قطعةً صُنِعَت في شباط الماضي؟! لقد افترض أنّهما سيبلغان الشرطة، أو الصحافة، أو ربّما حكومة البينوكسيّين في ساكرامنتو، وهو يعرف بكلّ تأكيد كيف يتدبّر أمر هؤلاء جميعهم... لكن هذا؟! لم يعرف كيف يردّ على كالڤن، وغمغم طيلة ما بدا له زمناً سرمديّاً، قبل أن يتمكّن في نهاية المطاف من إنهاء المكالمة وإغلاق الخطّ.

عندما وضع السماعة مكانها، اكتشف مرتعباً أنّ ريتا خرجت من الحمّام، وأنّها سمعت المحادثة بأكملها وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً بعصبيّة، بقميصها الداخليّ المصنوع من الحرير الأسود، وشعرها الأشقر الذي ينسدل حرّاً على كتفيها العاريتين، المليئتين بنمش خفيف.

«أبلغ الشرطة»، قالت.

حسناً، فكّر ويندام-ماتسون. الحلّ الأقلّ تكلفة هو أن يعرض على فرينك ومكارثي ألفي دولار أمريكيّ مثلاً، وسيقبلان على الأرجح، لأنّ هدفهما هو الحصول على المال فحسب! طموح رجلين نكرتين مثلهما محدود، وألفان من الدولارات هما مبلغ ضخم بالنسبة لهما، سيستثمرانه في مشروعهما الجديد، سيخسرانه، ثمّ يفلسان مجدّداً خلال شهر.

«كلّا»، قال.

«لماذا؟! الابتزاز جريمة».

من الصعب أن يشرح لها. إنّه معتاد على شراء الناس بالنقود، وهذا جزء من النفقات العامّة، كالبنى التحتيّة بالضبط. إن كان ما سيدفعه مبلغاً صغيراً، ربّما.... إنّها على حقّ! قلّب الفكرة في رأسه. سأعطيهما ألفي دولار، لكنّني سأتواصل مع ذلك الشخص الذي أعرفه في مجلس البلديّة، مفتّش الشرطة ذاك، وسأطلب منه أن يتحقّق من فرينك ومكارثي، فقد ينجح باكتشاف معلومة تفيدني بتأديبهما إن أعادا الكرّة. على سبيل المثال، فكّر، سمعتُ أنّ فرينك يهوديّ، غيّر اسمه وشكلَ أنفه. كلّ ما عليّ فعله هو إخطار القنصل الألمانيّ هنا، إجراء روتينيّ، وسيطلب من السلطات اليابانيّة تسليم المشتبه به، وسرعان ما سيعدمون ذلك الحقير في فرن الغاز بمجرّد أن يقطع الحدود الدوليّة. أعتقد أنّهم شيّدوا أحد معسكراتهم هناك في نيويورك، أحد تلك المعسكرات التي تحتوي على أفران.

«لقد فوجئتُ!» قالت الفتاة وهي تتفحّصه بنظراتها، «كيف يمكن لأحدهم أن يبتزّ شخصاً بمكانتك؟!».

«حسناً، سأشرح لكِ»، قال. «مهنة الأنتيكات اللعينة هذه مجرّد هراء. أولئك اليابانيّون عميان، وسأبرهن لك على هذا». نهض، وهرول إلى مكتبه، ثمّ عاد فوراً مع ولّاعتين وضعهما على المنضدة الصغيرة. «انظري إليهما، تبدوان متطابقتين، أليس كذلك؟ حسناً، اسمعي، إحداهما فقط هي قطعة أنتيكا أصليّة حقيقيّة»، وابتسم. «احمليهما، هيّا، احمليهما، إحداهما تساوي أربعين أو خمسين ألف دولار في سوق هواة الأنتيكات».

التقطت الفتاة الولّاعتين بحماس، وتفحّصتهما.

«ألا تشعرين بها؟» مازحها، «بالأصالة التاريخيّة؟».

«وما هي الأصالة التاريخيّة؟»، سألته.

«أي أن يكون للقطعة تاريخ! اسمعي، إحدى هاتين الولّاعتين من ماركة زيبو، كانت في جيب فرانكلين د. روزفلت في لحظة اغتياله، أمّا الثانية فلا. إحداهما تعبق بالأصالة التاريخيّة، بالكثير منها، أكثر بكثير من أيّة قطعة أخرى، أمّا الولّاعة الثانية فلا تساوي شيئاً. هل تشعرين بها؟». لكزها

مضيفاً: «لا يمكنك التفريق بينهما، لا حضور هيوليّ سحريّ ولا هالة تحيط بالأصليّة».

«يا إلهي!» هتفت ريتا بدهشة، «أهذا صحيح؟! هل كان روزڤلت يحمل إحداهما في ذلك اليوم؟!».

«أجل، وأنا أعرف أيٌّ من القطعتين هي. هل فهمت قصدي؟ إنّه سوق ضخم، وهم يخدعون أنفسهم. أقصد، لربّما استُخدِم السلاح في معركة شهيرة، كمعركة ميوز-آرغون، لكنّ الأمر سواء إن لم يُستخدَم طالما أنّك تجهلين ذلك، لأنّه هنا» وربّت على رأسه، «الموضوع في العقل، لا في السلاح. أنا شخصياً كنتُ من هواة جمع الأنتيكات، ودخلتُ سوق العمل نتيجة لذلك. كنتُ أجمع الطوابع، طوابع المستعمرات البريطانيّة الأولى...».

وقفت الفتاة أمام النافذة وقد شبكت ذراعيها، وتأمّلت الأضواء في مركز مدينة سان فرانسيسكو. «لطالما قال والديّ إنّنا لم نكن سنخسر الحرب لو بقي روزڤلت حيّاً»، قالت.

«حسناً» تابع ويندام-ماتسون كلامه، «الآن، افترضي أنّ... لنقل في العام الماضي مثلاً، أنّ الحكومة الكنديّة أو شخصاً ما، عثرت على قوالب الطباعة المستعملة لطباعة تلك الطوابع القديمة، وعلى حبر، وعلى مؤونة من....».

«لا أصدّق أنّ أيّاً من هاتين الولّاعتين كانت ملكاً لفرانكلين د. روزڤلت»، قاطعته ريتا.

قهقه ويندام-ماتسون، وأجابها: «هذا ما قصدته! يتوجّب عليّ أن أقنعك بوثيقة ما، بشهادة تثبت أصالة الولّاعة... أي أنّ الأمر برمّته زائف، وَهْمٌ ضخم جماعيّ! الشهادة ستثبت قيمة القطعة، لا أصالتها».

«أرني تلك الوثيقة»

«بالتأكيد». قفز عائداً إلى مكتبه، حيث انتزع عن الحائط شهادة من معهد سمثسونيان المؤطّرة. لقد كلّفته الشهادة والولّاعة ثروة، لكنّ الأمر يستحقّ، فقد أتاحتا له أن يبرهن أنّه على حقّ، وأنّ صفة «زائف» لا معنى لها، بما أنّ صفة «أصيل» لا تعني شيئاً في الواقع.

«مسدّس كولت 44 هو مسدّس كولت 44» قال لريتا بعد أن عاد بسرعة

إلى غرفة الجلوس، «المسألة برمّتها تتعلّق بجوف السلاح وتصميمه، لا بتاريخ صنعه. الأمر يتعلّق بـ...».

مدّت يدها، فأعطاها الشهادة.

«إذن، إنّها حقيقيّة!»، قالت أخيراً.

«أجـل، هذه هي»، ورفع الولّاعة التي تحمل خدشاً طويلاً على أحد جانبيها.

«أريد أن أغادر الآن» قالت ريتا، «أراك لاحقاً، في مساء آخر». وضعت الشهادة والولّاعة من يدها، ثمّ دخلت إلى غرفة النوم لتبديل ملابسها.

«لماذا؟!» صرخ منزعجاً وهو يلحق بها، «تعرفين أن الوضع آمن تماماً، لن ترجع زوجتي قبل أسابيع... شرحتُ لك كلّ شيء، إنّها تعاني من انفصال الشبكيّة».

«ليس هذا هو السبب».

«ماذا إذن؟!»

«من فضلك، اطلب لي درّاجة ثلاثيّة ريثما أرتدي ثيابي»، قالت ريتا.

«سأقلّك إلى منزلك بسيّارتي»، قال بامتعاض.

عندما انتهت ريتا من ارتداء ملابسها، تجوّلت بصمت في الشقّة ريثما جلب لها معطفها من الخزانة. بدت مستغرقة في التفكير، منطوية على نفسها، بل ومكتئبة قليلاً. الماضي يسبّب الحزن للناس، أدرك ويندام-ماتسون ذلك، اللعنة! لماذا تحدّثتُ عن الماضي؟! لكن تبّاً... إنّها يافعة للغاية! ظننتُ أنّها بالكاد تميّز الاسم!

ركعت ريتا أمام المكتبة، وسألته وهي تتناول كتاباً: «هل قرأتَ هذا؟».

انحنى عليها بسبب قصور البصر الذي يعاني منه. غلافٌ فاقع الألوان، إنّها رواية. «كلّا»، أجابها، «إنّه لزوجتي، فهي تقرأ كثيراً».

«تجدر بك قراءته»

أخذ الكتاب من يدها وهو ما يزال يشعر بخيبة الأمل، وتصفّحه: «الجندب يُستَثقَل».

«أليس ممنوعاً في بوسطن؟!»، سألها.

«ممنوع في أرجاء الولايات المتّحدة، وفي أوروبا بالطبع»، أجابته. كانت واقفة الآن عند الباب الخارجيّ بانتظاره.

«لقد سمعتُ عن هوثورن أبندسن هذا» قال، على الرغم من أنّه لم يسمع به من قبل في الحقيقة، ولا يتذكّر شيئاً عن الكتاب إلّا أنّه يحظى بشعبيّة واسعة حاليّاً. مجرّد بدعة أخرى، مجرّد جنون جماعيّ آخر. فكّر، وأعاد الرواية إلى الرفّ. «لا أملك وقتاً لقراءة الأدب الخياليّ الشعبيّ» قال، «أنا مشغول للغاية في العمل». السكرتيرات، فكّر بسخرية، هنّ من يقرأن هذه القمامة، وحيدات في السرير ليلاً. هذا النوع من الكتب يستثيرهنّ، عوضاً عن «الشيء الحقيقيّ» الذي يخشينه، لكنّهن يشتهينه بلا شكّ.

«إنّه إحدى قصص الحبّ تلك...»، قال بكآبة وهو يفتح لها الباب.

«كلّا» أجابته، «إنّه قصّة عن الحرب»، ثمّ أضافت وهما يسيران عبر الردهة إلى المصعد: «يقول الشيء ذاته الذي قاله أبي وأمّي».

«من؟ أبوتسون ذاك؟»

«إنّها نظريّته. لو أخطأت رصاصةُ جو زانغارا الرئيسَ روزڤلت، لتمكّن هذا الأخير من إنقاذ أمريكا من الكساد، وتسليحها جيّداً بحيث...» سكتت فجأة، فقد وصلا إلى المصعد حيث يقف بضعة أشخاص بانتظاره.

لاحقاً، وهما يشقّان طريقهما بسيّارة مرسيدس بنز التي يملكها ويندام-ماتسون، تابعت ريتا كلامها.

«يفترض أبندسن أنّ روزڤلت يبقى رئيساً قويّاً، بل في منتهى القوّة -مثل لنكولن- وهو ما أثبته خلال سنوات رئاسته، من خلال كلّ تلك الإجراءات التي اتّخذها. الكتاب خياليّ، أقصد أنّه مكتوب كرواية، وفيه لا يتعرّض روزڤلت للاغتيال في ميامي، بل يبقى حيّاً، ويتمّ انتخابه لولاية ثانية عام 1936، أي أنّه يبقى رئيساً خلال الحرب حتّى عام 1940... هل فهمتَ؟ عندما تهاجم ألمانيا كلّاً من بريطانيا وفرنسا وبولندا في الرواية، يكون روزڤلت هو الرئيس، ويدرك ما يحصل، ويجعل من أمريكا دولةً قويّةً. غارنر كان رئيساً سيّئاً جدّاً، الكثير من المصائب حصلت بسببه... من ثمّ، في عام 1940، يُنتَخب رئيس من الديمقراطيّين عوضاً عن بريكر و...»

«استناداً إلى أبلسون هذا...»، قاطعها ويندام-ماتسون وهو يلقي عليها نظرة بطرف عينه. يا إلهي! يقرأن كتاباً، ويثرثرن عنه للأبد!

«نظريّته هي التالية: عوضاً عن رئيس يتبع سياسة النأي بالنفس مثل بريكر، يُنتَخب ركسفورد تَاغْوِل عام 1940 خلفاً لروزڤلت». تألّق وجهها الصافي بحيويّة في ضوء السيّارات العابرة، اتّسعت عيناها، وأخذت تومئ بيديها وهي تتحدّث: «تابع تاغوِل بحماس سياسات روزڤلت المعادية للنازيّين. لذلك، خافت ألمانيا من مدّ يد العون لليابانيّين عام 1941، ولم يوقّعوا تلك المعاهدة. هل فهمت؟». استدارت في مقعدها صوبه، وأمسكته بقوّة من كتفه، ثمّ قالت: «لذلك، خسرت ألمانيا واليابان الحربَ في الرواية».

ضحكَ ويندام-ماتسون

حدّقت إليه، باحثة في وجهه عن شيء ما لم يتبيّنه -عليه أن ينتبه للسيّارات من حوله بأيّ حال- وقالت أخيراً: «الأمر ليس طريفاً! لو حصل ذلك حقّاً، وتمكّنت الولايات المتّحدة الأمريكيّة من هزيمة اليابانيّين و...».

«كيف؟!»، قاطعها.

«لقد شرح كلّ شيء» وصمتت لحظة، «بصيغة أدب خياليّ. بطبيعة الحال، هناك الكثير من الأجزاء المُتَخيَّلة، أقصد، يجب أن تكون الرواية مسليّة وإلّا لن يقرأها الناس... فيها ثيمة إنسانيّة أيضاً، شابّان، الصبيّ في الجيش الأمريكيّ، والبنتُ... حسناً. بأيّ حال، الرئيس تاغوِل ذكيّ حقّاً، ويدرك ما الذي سيقوم به اليابانيّون»، ثمّ أضافت بقلق: «لا مانع من مناقشة الكتاب، لأنّ اليابانيّين يسمحون بتداوله في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة. سمعتُ أنّ العديد منهم يقرؤونه بدورهم، وأنّه يحظى بالشعبيّة في جزر الوطن، حيث حرّض نقاشات كثيرة».

«اسمعي، ماذا كتب عن بيرل هاربر؟»، سألها ويندام-ماتسون.

«كان الرئيس تاغوِل من الذكاء بحيث أخرج كلّ السفن إلى عرض البحر، فأنقذ الأسطول الأمريكيّ».

«فهمتُ»

«هجوم بيرل هاربر لم يحصل في الرواية، لقد قصف اليابانيّون الميناء، لكنّهم لم يدمّروا إلّا بضعة قوارب صغيرة».

«ما عنوان الرواية؟ جندب ماذا؟»

«الجندب يُستَثْقَل. إنّه اقتباس من الكتاب المقدّس».

«تُهزَم اليابان لأنّ هجوم بيرل هاربر لم يقع! اسمعي، اليابان ستنتصر بأيّ حال، حتّى ولو لم يحصل ذلك الهجوم»

«في الرواية، يمنع الأسطولُ الأمريكيّ اليابانيّين من احتلال الفيليبين وأستراليا».

«كانوا سيحتلّونها على أيّ حال، أسطولهم متفوّق. أنا أعرف اليابانيّين معرفة عميقة، ومن المقدّر لهم أن يبسطوا هيمنتهم على الساحل الباسيفيكيّ. الولايات المتّحدة الأمريكيّة تسير على درب الانحطاط منذ الحرب العالميّة الأولى، وكلّ البلدان التي ناصرت الحلفاء تعرّضت للدمار في تلك الحرب، معنويّاً وروحيّاً».

«لو لم يحتلّ الألمان مالطا، لبقي تشرشل في منصبه، وقاد بريطانيا إلى النصر»، ردّت ريتا بعناد.

«كيف؟! وأين؟!»

«في شمالي إفريقيا! تشرشل كان سيهزم رومل في نهاية المطاف»

قهقه ويندام-ماتسون

«وما إن يهزم البريطانيّون رومل، يسحبون جيشهم بأكمله، ويقطعون تركيا كي ينضمّوا إلى ما تبقى من الجيوش الروسيّة، ويتمركزون في... في الرواية، يوقف البريطانيّون زحفَ الألمان على الجبهة الشرقيّة باتّجاه روسيا، في مدينة على نهر الڤولغا. لم نسمع بها من قبل، لكنّها موجودة على أرض الواقع، رأيتُها في الأطلس».

«ما اسمها؟»

«ستالينغراد، وفيها يقلب البريطانيّون مسار الحرب. في الرواية، لا يتحالف رومل مع الجيوش الألمانيّة العائدة من روسيا، جيوش ڤون بولس،

أتتذكّرها؟ ولا ينجح الألمان على الإطلاق باجتياح الشرق الأوسط، ولا بالحصول على النفط الذي يحتاجونه، ولا يجتاحون الهند كي يلتقوا مع الجيش الياباني كما فعلوا على أرض الواقع و...»

«لا استراتيجيّة على وجه الأرض كانت ستهزم إرفِن رومل»، قاطعها ويندام-ماتسون، «ولا أيّة أحداث تخيّلها ذلك الرجل، ولا حتّى تلك المدينة في روسيا التي تحمل اسماً جريئاً -ستالينغراد!- ولا أيّ فعل كان سينجح بأكثر من تأخير النتائج، من المستحيل تغيير ما حصل! اسمعي، لقد التقيتُ رومل في نيويورك عام 1948، عندما كنتُ في رحلة عمل». في الحقيقة، لم يشاهد إلّا الحاكم العسكريّ للولايات المتّحدة الأمريكيّة، أثناء حفل استقبال في البيت الأبيض، ومن بعيد، فقط لا غير!

«يا له من رجل! يا لعزّة نفسه! يا لأسلوبه! أنا أعرف عمّاذا أتحدّث»، أضاف.

«كان ذلك مريعاً!» قالت ريتا، «عندما أُقيل الجنرال رومل من منصبه، وعُيِّن لامرز الفظيع ذاك مكانه. عندها، بدأت تلك الاغتيالات ومعسكرات الاعتقال و...».

«إنّها موجودة منذ أن كان رومل حاكماً عسكريّاً!»

«أجل، ولكن...» اعترضت وهي تومئ بيديها، «لم تكن رسميّة! لربّما نفّذها سفّاحو الشوتزشتافل[1] آنذاك، لكنّ رومل ليس مثلهم، إنّه أقرب إلى البروسيّين القدماء، قاسٍ و...»

«سأقول لك من الذي قام بعمل جيّد حقّاً في الولايات المتّحدة الأمريكيّة!» قاطعها ويندام-ماتسون، «من يرجع إليه الفضل في الانتعاش الاقتصاديّ هو ألبرت سبير، لا رومل ولا منظّمة تـودت[2]! سبير كان

1- قوّات الأمن الخاصّة النازيّة. المترجمة

2- Todt orgnisation شركة إنشاءات هندسيّة مدنيّة وعسكريّة نازيّة، سمّيت على اسم مؤسسها الدكتور فريت تودت، كانت مسؤولة عن إنشاء مشروعات هندسيّة كبرى في ألمانيا والمناطق التي احتلّها النازيّون خلال الحرب العالميّة الأولى، اشتهرت باستغلال المعتقلين في المعسكرات في العمل غير المأجور. المترجمة

أفضل شخص عيّنه الحزب النازيّ في أمريكا الشماليّة، وهو من جعل تلك المشروعات والمصانع والأعمال تنطلق مجدّداً، وبكفاءة. أتمنّى لو أنّ ذلك تحقّق هنا! هنا يوجد خمسة خصوم يتنافسون في كلّ مجال من المجالات، والحصيلة هي خسارة مرعبة. لا شيء أشدّ حماقة من المنافسة الاقتصاديّة!».

«لا يمكنني أن أعيش في أحد معسكرات العمل، أو المهاجع الموجودة على الساحل الشرقيّ! صديقتي كانت تعيش هناك، حيث خضع بريدها للرقابة ولم تستطع إخباري بما يحصل إلّا بعد أن انتقلتْ إلى هنا. توجّب عليها النهوض في السادسة والنصف صباحاً كلّ يوم، على وقع موسيقا الفرقة!»

«ستعتادين على ذلك. على الأقلّ، سيتوافر لك سكن نظيف، وطعام كافٍ، وإجازات، ورعاية طبيّة. ماذا تريدين أكثر؟!»

انسابت سيّارته ألمانيّة الصنع، عبر ضباب سان فرانسيسكو الليليّ البارد دون صوت.

***

جلس السيّد تاغومي على الأرض، وساقاه مطويّتان تحته، ممسكاً بكوب ليس له مقبض مليء بشاي أولونغ، ينفخ عليه بين حين وآخر وهو يبتسم للسيّد باينس.

«المكان جميل هنا» قال السيّد باينس بعد برهة، «السكينة تعمّ الساحل الباسيفيكيّ. إنّه مختلف كليّاً عن هناك»، ولم يحدّد مكاناً بعينه.

«خاطب الربُّ الإنسانَ بعلامة الاستثارة»، غمغم السيّد تاغومي.

«عفواً؟»

«كتاب التنبّؤات، آسف. إنّه مُنعَكَسٌ دماغيّ حُلُميّ».

إنّه يقصد أحلام اليقظة، فكّر السيّد باينس بينه وبين نفسه، وابتسم.

«نحن سخيفون» قال السيّد تاغومي، «لأنّنا نعيش وفقاً لكتاب عمره خمسة آلاف عام، نطرح عليه أسئلتنا كأنّه حيّ... لكنّه حيٌّ، مثل الكتاب المقدّس المسيحيّ. العديد من الكتب حيّة في الواقع، لا أقصد حيّة بالمعنى

المجازيّ، بل أنّ الأرواح تُحْيِيها. هل فهمتني؟»، وتفحّص وجهَ السيّد باينس مستقصياً ردّ فعله.

صاغ هذا الأخير كلماته بعناية: «لا أعرف ما يكفي عن الدِين، إنّه خارج نطاق اختصاصي. أفضّل الموضوعات التي أتمتّع فيها بالكفاءة». في حقيقة الأمر، لم يفهم عمّا يتحدّث السيّد تاغومي. أنا متعَب، فكّر، منذ أن وصلتُ إلى هنا في هذا المساء، وهناك نوع من... نسخة مصغَّرة عن كلّ شيء! نسخة أصغر من الأصل الحقيقيّ، ذات لمسة سحريّة. ما هو هذا الكتاب الذي عمره خمسة آلاف عام؟! ساعة ميكي ماوس، السيّد تاغومي بحدّ ذاته، الكوب الهشّ بيده، ورأس البوفالو ذاك على الجدار خلفه، ضخم، قبيح، وشرّير.

«ما هذا الرأس؟»، سأل السيّد باينس فجأة.

«إنّه الحيوان الذي اعتمدت عليه حياة السكّان الأصليّين في الأيّام الخوالي»، أجاب السيّد تاغومي.

«فهمتُ»

«هل أمثّل أمامك كيف كانوا يذبحون البوفالو؟!»، وضع السيّد تاغومي كوبه على الطاولة، وقفز على قدميه. هنا، في منزله الخاصّ، يرتدي مساءً روباً من الحرير، وخفّاً، وربطة عنق بيضاء. «ها أنا ذا أمتطي حصاني الحديديّ» وقرفص، «وفي حضني بندقيّة وينشستر 1866 التي لا تخيب، من مجموعتي الخاصّة». رمق السيّدَ باينس مستفهماً، ثمّ علّق: «أنت متعب بسبب السفر يا سيّدي».

«أخشى ذلك» قال باينس، «الوضع يشغلني قليلاً، بل الكثير من هموم العمل في الحقيقة»... وهموم أخرى غيرها، فكّر. رأسه يؤلمه، هل المسكّنات الجيّدة التي تصنعها شركة آي. جي. فاربن متوافرة هنا على الساحل الباسيفيكيّ يا ترى؟ لقد أدمن على استعمالها، لتسكين الصداع الناجم عن التهاب الجيوب.

«علينا كلّنا أن نؤمن بشيء ما» قال السيّد تاغومي، «لا يمكننا أن نعرف الإجابات، ولا أن نرى المستقبل بأعيننا».

هزّ السيّد باينس رأسه.

«قد يتوفّر عند زوجتي شيء ما للصداع»، قال السيّد تاغومي عندما رآه يخلع نظّارته ويفرك جبهته. «عضلات العين تسبّب الألم. اعذرني». انحنى، ثمّ خرج من الغرفة.

ما أحتاجه هو النوم، فكّر باينس، بعض الراحة ليلاً. هل فشلتُ في التعامل مع الوضع يا ترى؟! انكمش على نفسه، الوضع صعب.

عندما عاد السيّد تاغومي حاملاً كأساً من الماء، وقرصاً من دواء ما، قال السيّد باينس: «أنا مضطر حقّاً أنّ أتمنّى لك ليلة طيّبة، وأن أذهب إلى الفندق، لكنّني أريد أن أعرف أمراً ما أوّلاً، قبل أن نناقشه مطوّلاً في الصباح الباكر إن شئتَ. هل أخبروك عن الطرف الثالث الذي سينضمّ إلى مباحثاتنا؟».

لاحت الدهشة على وجه السيّد تاغومي لبرهة، من ثمّ تبخّرت فوراً، وحلّ مكانها تعبير يوحي بعدم الاكتراث. «لم أسمع شيئاً بخصوص ذلك. بأيّ حال، إنّه خبر مثير للاهتمام بالطبع».

«من جزر الوطن»

«آها» قال السيّد تاغومي، ولم تبدُ عليه الدهشة قط هذه المرّة، بل تحكّم بنفسه تحكّماً مطلقاً.

«رجل أعمال كهل متقاعد» قال السيّد باينس، «قادمٌ بالباخرة. إنّه يبحر منذ أسبوعين، لأنّه يرفض ركوب الطائرة رفضاً قاطعاً».

«كهل عتيق الطراز»، قال السيّد تاغومي.

«تبقيه مصالحه مطّلعاً على أسواق جزر الوطن، وسيكون قادراً على تزويدنا بالمعلومات. إنّه قادم إلى سان فرانسيسكو في عطلة بأيّ حال، الأمر ليس مهمّاً، لكنّ خبرته ستضفي المزيد من الدقّة على مباحثاتنا».

«أجل» قال السيّد تاغومي، «بوسعه أن يصحّح معلوماتنا بما يتعلّق بأسواق جزر الوطن، لقد غادرتُها منذ سنتين».

«هل ستعطيني هذا القرص؟»

أجفل السيّد تاغومي، وحدّق إلى الأسفل، فاكتشف أنّ كأس الماء وقرص الدواء ما يزالان في يديه. «آسف! إنّه مسكّن قويّ يدعى زاراكائين،

تصنعه شركة دوائيّة في إقليم الصين»، وناول ما يحمله إلى السيّد باينس مضيفاً: «لا يسبّب الاعتياد».

«ذلك العجوز» قال السيّد باينس قبل أن يبتلع القرص، «لا بدّ أنّه سيتّصل بلجنة التجارة، لذلك سأعطيك اسمه كي لا يصرفه الموظّفون. لم ألتقِ به شخصيّاً، لكنّني فهمتُ أنّه أصمّ قليلاً، وغريب الأطوار نوعاً ما. علينا أن نحرص على عدم إزعاجه». بدا على السيّد تاغومي أنّه استوعب ما سمعه، فتابع باينس: «إنّه يحبّ أزهار الردندرة، وسيسعد إن وجدتَ نسخصاً ما يتجاذب معه أطراف الحديث عنها، لمدّة نصف ساعة مثلاً، ريثما نرتّب أمور الاجتماع. سأدوّن لك اسمه». ابتلع القرص، من ثمّ أخرج قلمه وكتب: «السيّد شينجيرو ياتابي».

قرأ السيّد تاغومي ما كتبه على قصاصة الورق، من ثمّ طواها ووضعها بين أوراق مفكّرته.

«هناك أمرٌ آخر»

نقر السيّد تاغومي على حافّة كوبه ببطء، وأصغى.

«هناك مسألة ثانويّة دقيقة مُحرِجة. الرجل العجوز في الثمانين من عمره تقريباً، وبعض المشروعات التي أقدم عليها في أواخر حياته المهنيّة لم تكن ناجحة. هل تفهمني؟».

«تقصد أنّه لم يعد ميسور الحال» أجاب السيّد تاغومي، «وأنّه يعتمد على راتبه التقاعديّ».

«بالضبط! راتبه التقاعديّ هزيل للغاية، لذلك يحاول تدبير بعض المال هنا وهناك».

«وبذلك يخرق المرسوم التافه» قال السيّد تاغومي، «الذي تفرضه حكومة الوطن وموظّفوها البيروقراطيّون. أفهم الوضع تماماً، سيتلقّى السيّد العجوز عمولة لقاء تقديم استشارته لنا، ولن يبلغ لجنةَ التقاعد بذلك. بالمقابل، ينبغي علينا ألّا نكشف عن زيارته لنا، لأنّ اللجنة تحسبه في إجازة، لا أكثر».

«أنت محنّك»، قال السيّد باينس.

«حصل هذا من قبل. في مجتمعنا، لم ننجح بحلّ مشكلة المسنّين بعد، وأعدادهم تتكاثر باستمرار بفضل تطوّر الطبّ. تعلمّنا الصينُ أن نبجّل المسنّين، لكنّ ألمانيا تجعل إهمالنا لهم أشبه بالفضيلة... سمعتُ أنّهم يقتلون المسنّين».

«الألمان!» غمغم باينس وهو يفرك جبهته مجدّداً، هل بدأ تأثير قرص المسكن؟ إنّه يشعر بالنعاس.

«بما أنك أسكندناڤيّ، فلا شكّ بأنك تعرف أوروبا التي احتلّها النازيّون أفضل منّي. على سبيل المثال، لقد انطلقتَ من مطار تمبلهوف... هل بوسع المرء أن يعتنق موقف الألمان؟ أنتَ محايد، هلّا أخبرتني برأيك من فضلك؟»

«لا أعرف أيّ موقف تقصد»

«تجاه المسنّين، والمرضى، والضعفاء، وعديمي النفع في مختلف المجالات. ما هو نفع الرضيع؟ يقال إنّ أحد الفلاسفة الأنجلوساكسونيّين طرح هذا السؤال. لقد حفظتُه، وفكّرت به كثيراً. سيّدي: لا نفع يرتجى من الرضيع عموماً»

غمغم السيّد باينس بشيء ما بدافع اللباقة، كأنّه يشارك في الحديث.

«أليس صحيحاً» تابع السيّد تاغومي، «أنّه لا يجوز استغلال أيّ رجل كأداة لتحقيق مصالح رجل آخر؟» انحنى للأمام متلهّفاً، وتابع: «من فضلك، أخبرني بوجهة نظرك كإسكندناڤيّ محايد!».

«لا أعرف»، قال السيّد باينس.

«أثناء الحرب، تولّيتُ منصباً صغيراً في إقليم الصين، في شانغهاي. آنذاك، أشرفتِ الحكومةُ الإمبراطوريّة على مستوطنة اليهود في هونغكو، بالاعتماد على المساعدات التي تقدّمها لجنة التوزيع المشتركة اليهوديّة الأمريكيّة. من ثمّ، طالَبَنا الوزيرُ النازيّ في شانغهاي بإبادة اليهود أولئك. أتذكّر ردّ رؤسائي: إبادة اليهود لا تتماشى مع اعتباراتنا الإنسانيّة، ورفضوا الطلب لأنّه فعل بربريّ... وهو ما أدهشني!».

«فهمتُ» تمتم السيّد باينس. هل يحاول الإيقاع بي؟! سأل نفسه، وشعر بأنّه استيقظ فجأة وأنّ حواسه تنبّهت.

«يصم النازيّون اليهودَ دائماً بأنّهم آسيويّون» قال السيّد تاغومي، «وبأنّهم لا ينتمون للعرق الأبيض. سيّدي، تداعيات هذه الفكرة لم تفت الشخصيّات البارزة في اليابان، حتّى بين أعضاء المجلس الحربيّ... لم أناقش هذا قط مع مواطني الرايخ الذين التقيتُ بهم».

قاطعه السيّد باينس: «حسناً، أنا لستُ ألمانيّاً، لذلك لا يسعني أن أتكلّم باسم ألمانيا». وقف، ومشى صوب الباب، ثم أضاف: «سأتابع هذا النقاش معك غداً. اعذرني من فضلك، أنا غير قادر على التفكير حاليّاً». في الواقع، أصبح تفكيره في قمّة الصفاء الآن! عليّ أن أخرج من هنا، فكّر، هذا الرجل يضغط عليّ.

«سامحني على تخيّلاتي الغبيّة!» قال السيّد تاغومي، وهو يخطو باتّجاه الباب مباشرة. «الفلسفة تعميني عن الوقائع البشريّة الحقيقيّة» ثمّ نادى باليابانيّة، فانفتح الباب الخارجيّ، وظهر شابّ ياباني انحنى قليلاً وهو يرمق السيّد باينس.

إنّه السائق، استنتج باينس، ثمّ خطر له فجأة: ماذا لو أنّ الملاحظات الدونكيشوتيّة التي قلتها على متن رحلة اللوفتهانزا لذلك الرجل لوتز، أو أيّاً كان اسمه، وجدت طريقها إلى اليابانيّين هنا، على نحو ما؟! أتمنّى لو أنّني لم أفتح فمي، أنا نادم على ذلك، لكنّ الأوان قد فات! لستُ الشخص المناسب على الإطلاق لأمرٍ من هذا القبيل، كلّا.

من ثمّ فكّر: أيُّ سويديّ كان سيردّ على لوتز بالطريقة ذاتها! لا بأس، لم يحصل مكروه. وساوسي مفرطة، وأنا أُسقِط روتين الماضي على الوضع الراهن. في الحقيقة، بوسعي أن أتحدّث بصراحة أكبر، وهو ما يجب أن أتأقلم معه.

مع ذلك، كلّ منعكساته كانت ضدّ تلك الفكرة، الدماء في عروقه، عظامه، أعضاؤه، كلّها تمرّدت. افتحْ فمكَ، قال لنفسه، قل شيئاً ما، أيّ شيء، رأياً... عليك أن تنطق إن أردتَ النجاح!

قال أخيراً: «لربّما يدفعهم نمط يائس من اللّاوعي، بالمعنى اليونغيّ».

هزّ السيّد تاغومي رأسه موافقاً، وقال: «لقد قرأتُ يونغ. أفهمكَ».

تصافحا، وقال السيّد باينس: «سأتّصل بك صباحاً. طابت ليلتك يا سيّدي»، ثمّ انحنى، فانحنى السيّد تاغومي بدوره.

خطا الياباني الشابّ المبتسم للأمام، وقال شيئاً ما للسيّد باينس، لكنّه لم يفهمه. «عفواً؟»، قال وهو يأخذ معطفه ويخرج إلى الشرفة.

«إنّه يخاطبك باللغة السويديّة يا سيّدي. أثناء دراسته في جامعة طوكيو، درس فصلاً عن حرب الثلاثين عاماً، وأبهره بطلكم العظيم غوستاڤوس أدولفوس»، قال السيّد تاغومي وهو يبتسم بتعاطف. «لكن من الواضح أنّ محاولته لإتقان لغة أجنبيّة قد باءت بالفشل! لا بدّ أنّه استعان بالدروس التعليميّة المُسجَّلة على أسطوانات، فهو طالب، والطلّاب يُقبِلون على تلك الأسطوانات لأنّها رخيصة».

انحنى الشابّ الياباني، وابتسم. إنّه لا يفهم الإنجليزيّة على ما يبدو.

«فهمتُ» غمغم السيّد باينس، «أتمنّى له التوفيق». لديّ مشكلتي اللغويّة الخاصّة على ما يبدو، فكّر بينه وبين نفسه، يا إلهي! لا بدّ أنّ الطالب الياباني الشابّ سيحاول أن يتجاذب معه أطراف الحديث باللغة السويديّة طيلة الطريق عندما يقلّه إلى الفندق، وهي لغة لا يفهمها باينس إلّا لماماً، وفقط عندما تُنطق بأسلوب صحيح تماماً وباللهجة الفصحى. بلا شكّ، لن يفهم ما يقوله طالب ياباني شابّ، تعلّمها مستعيناً بأسطوانات الدروس المسجّلة.

لن يفهمني أبداً، فكّر باينس، لكنّه سيتسمرّ بالمحاولة، لأنّها فرصته الوحيدة. لن يلتقي سويدياً آخر سواي!

يا لها من معضلة! تذمّر السيّد باينس بينه وبين نفسه، لكلينا!

***

–6–

خرجت السيّدة جوليانا فرينك للتسوّق في الصباح الباكر، مستمتعة بالجوّ اللطيف والشمس المشرقة. تمشّت على الرصيف حاملة كيسين من الورق الأسمر، وتباطأت أمام واجهات المتاجر كلّها وتأمّلت ما فيها، فلم تكن مستعجلة.

ألا يلزمها شيء ما من الصيدليّة؟! دخلت إليها. إنّه يوم عطلتها الصباحيّة، وعملها في صالة الجودو لن يبدأ قبل منتصف النهار. جلست أمام الكاونتر، وضعت الكيسين على الأرض، ثمّ أخذت تقلّب صفحات المجلّات المختلفة.

لمحت مقالاً طويلاً أثار اهتمامها، نُشِر في العدد الجديد من مجلّة لايف، عنوانه: «التلفزيون في أوروبا: لمحات من المستقبل»، يعرض صوراً لعائلة ألمانيّة تتابع التلفاز في غرفة الجلوس. قرأت في المقال أنّ محطّة التلفاز تبثّ أربع ساعات يوميّاً من برلين في الوقت الحالي، وأنّ محطّات التلفزة ستبنى يوماً ما في المدن الأوروبيّة الكبرى، وكذلك في نيويورك بحلول عام 1970.

نشر المقال أيضاً صوراً لمهندسي الإلكترونيّات النازيّين، المتواجدين حاليّاً في موقع إنشاء المحطّة في نيويورك، كي يساعدوا طاقم العمل المحليّ. من السهل تمييز الألمان، وجوههم نظيفة، واثقة، تشعّ صحّة وحيويّة، أمّا الأمريكيّون فيبدون... مجرّد أشخاص، نكرات فحسب.

في الصورة، يظهر أحد الخبراء التقنيّين الألمانيّين وهو يشير بيده إلى مكان ما، ومن حوله الأميركيّون الذين يحاولون أن يتبيّنوا ما الذي يشير إليه. أظنّ أن بصرهم أقوى من بصرنا، فكّرت جوليانا، لأنّ غذاءهم كان أفضل

خلال السنوات العشرين الماضية. إنّهم قادرون على رؤية أشياء لا يراها سواهم، كما يقال لنا. هل يرجع الفضل إلى الڤيتامين (أ) مثلاً؟!

كيف سأشعر يا ترى لو جلستُ في بيتي، وشاهدتُ العالم كلّه في صندوق زجاجيّ رماديّ صغير؟! أولئك النازيّون يطيرون جيئة وذهاباً بين الأرض والمرّيخ، لماذا يعجزون عن الاستمرار بالبثّ التلفزيونيّ طيلة اليوم؟! أعتقد أنّني أفضّل مشاهدة الاستعراضات الكوميديّة تلك، وأن أعرف كيف يبدو بوب هوب وديورانت، عوضاً عن التجوّل في المرّيخ.

ربّما يعود السبب، فكّرت وهي تضع المجلّة مكانها، إلى أنّ النازيّين لا يتمتّعون بحسّ الفكاهة، وبالتالي لا يهمّهم التلفاز. بأيّ حال، لقد قتلوا غالبيّة الكوميديّين العظماء، لأنّ معظمهم يهود. في الواقع، أدركتْ، لقد أبادوا معظم العاملين في حقل الترفيه، أتساءل كيف ينجو بوب هوب على الرغم ممّا يقوله! لا عجب أنّه مضطرّ لبثّ برنامجه من كندا، حيث يتمتّعون بحريّة أكبر نسبيّاً... لكنّه يقول أموراً خطيرة حقّاً، كتلك الطرفة عن غورنغ، الذي يشتري مدينة روما ويشحنها إلى منتجعه الجبليّ، فينصبها هناك مجدّداً، ويعيد إحياء المسيحيّة كي يتاح لأسوده الأليفة أن[1]...

«هل ترغبين بشراء هذه المجلّة يا آنسة؟»، سألها العجوز الضئيل الذي يدير الصيدليّة بارتياب.

شعرت جوليانا بالذنب، فأعادت مجلّة ريدرز دايجست التي بدأت بتصفّحها إلى مكانها. عندما خرجت حاملة كيسي التسوّق، فكّرت وهي تتمشى على الرصيف: لربّما سيتولّى غورنغ منصب الفوهرر عندما يموت بورمان ذاك. غورنغ مختلف نوعاً ما عن الآخرين، بورمان لم يصبح الفوهرر أصلاً، إلّا لأنّه تسلّل بمكر عندما أدرك هتلر أنّ صحته تتدهور بسرعة، أمّا غورنغ العجوز فكان بعيداً في قصره الجبليّ آنذاك، على الرغم من أنّه الأجدر بتولّي المنصب خلفاً لهتلر، لأنّه من قاد سلاح الجوّ الذي دمّر محطّات الرادار البريطانيّة، ومن ثمّ سلاح الجوّ البريطانيّ. هتلر كان

1- إشارة إلى الرومان الذين كانوا يرمون المسيحيّين الأوائل إلى حلبات المصارعة، كي تأكلهم الأسود وغيرها من الحيوانات المتوحّشة. المترجمة

سيجعلهم يقصفون لندن، كما قصفوا روتردام! لعلّ غوبلز هو من سيفوز، هذا ما يقوله الجميع. المهمّ ألّا يتولّى المنصبَ هايدريش الرهيبُ ذاك، لأنّه سيقتلنا جميعنا... إنّه مجنون! أنا شخصياً أفضّل بالْدُوْر ڤون شيراخ، لأنّه الوحيد الذي يبدو طبيعياً، لكنّ فرصته معدومة بطبيعة الحال.

استدارت، وصعدت درج المبنى الخشبيّ العتيق الذي تقيم فيه. عندما فتحت باب شقّتها، رأت جو سينادِلا مستلقياً حيث تركتْه في منتصف السرير، متمدّداً على بطنه، وذراعاه متدليّتان... ما يزال نائماً.

كلّا، فكّرتْ، لا يعقل أن يكون هنا! لقد غادرت شاحنته، هل فاته موعد اللحاق بها؟! أجل، على ما يبدو.

دخلت إلى المطبخ، ووضعت الكيسين على الطاولة بين أطباق الإفطار. هل تأخّر عمداً عن موعد الشاحنة؟! ليتني أعرف! يا له من رجل غريب! فكّرت. لقد مارس الجنس معها بحيويّة طيلة الليل تقريباً، لكنّه كان في سريرها بجسده فحسب، أمّا عقله ففي مكان آخر... لعلّ ذهنه مشغول بأمور أخرى!

كعادتها، وضعت الأطعمة في ثلّاجة جنرال إلكتريك عتيقة الطراز، من ثمّ بدأت بتنظيف طاولة المطبخ.

لربّما مارس الجنس كثيراً، استنتجت، ولذلك يؤدّي جسده الحركاتِ تلقائيّاً، كأنّها غريزيّة، تماماً كما يفعل جسدي عندما أضع الأطباق وأدوات المائدة في الحوض. سيبقى قادراً على ممارسة الجنس، حتّى ولو استأصلوا ثلاثة أخماس دماغه كأنّها ساق ضفدع في درس البيولوجيا.

«هاي» نادته، «استيقِظ!».

تقلّب جو في نومه، وشخر.

«هل سمعت حلقة برنامج بوب هوب تلك منذ يومين؟» قالت، «لقد روى نكتة طريفة للغاية عن عقيد ألمانيّ يستجوب المرّيخيّين، الذين لم يتمكّنوا من تقديم وثائق تثبت انتماء أجدادهم إلى العرق الآريّ، تعرف كيف، فأبلغ العقيد رؤساءه في برلين بأنّ اليهود يستوطنون المرّيخ». دخلت إلى غرفة الجلوس حيث ينام جو، وتابعت: «إنّهم بطول قدم واحدة تقريباً، ولهم رأسان... تعرف كيف يروي بوب هوب قصصه!».

فتح جو عينيه، لكنّه لم يقل شيئاً، بل حدّق إليها دون أن يرمش. ذقنه غير الحليق، لحيّته السوداء، عيناه الداكنتان المليئتان بالألم... سكتت جوليانا بدورها.

«ما الأمر؟» سألته أخيراً، «هل أنت خائف؟». كلّا، فكّرت، فرانك هو الخائف، أمّا هذا الرجل... لا أعرف!

«لقد سبقتني الشاحنة»، قال جو وهو يجلس.

«وماذا ستفعل؟» سألته وهي تجلس على حافّة السرير، وتجفّف يديها وذراعيها بخرقة الصحون.

«سألحق بها عندما تعود. لن يقول زميلي شيئاً لأحد، يعرف أنّني سأقوم بالمثل من أجله أيضاً».

«هل قمت بذلك سابقاً؟»، سألته.

لم يجبها جو. لقد فوّت موعد الانطلاق عمداً، قالت جوليانا لنفسها، عرفتُ ذلك فوراً، أجل.

«لنفترض أنّه سلك طريقاً مختلفاً؟!»، قالت.

«إنّه يسلك الطريق رقم 50 دائماً، ولا يسلك الرقم 40 مطلقاً. تعرّض لحادث ذات مرّة، حين اندفعت بضعة خيول إلى الطريق رقم 40، فاصطدم بها، في جبال روكي».

التقط ملابسه عن الكرسي، وباشر بارتدائها.

«كم عمرك جو؟»، سألته وهي تتأمّل جسده العاري.

«أربعة وثلاثون»

إذن، لا بدّ أنّك شاركتَ في الحرب، قالت لنفسها. لم تلمح عيوباً بدنيّة ظاهرة، بل على العكس، جسده جميل ونحيل، وساقاه طويلتان. تجهّم جو عندما انتبه لنظراتها المتفحّصة، فاستدار بعيداً عنها. «ألا تسمح لي بتأمّلك؟!» سألته، وفكّرت: لِمَ لا؟ لقد أمضينا الليلة بطولها معاً، لماذا يصرّ على الاحتشام الآن؟! «هل نحن حشرتان؟» سألت، «لا نطيق أن يرى أحدنا الآخر في ضوء النهار، بل يتوجّب علينا أن نحشر أنفسنا في زاوية؟!».

نخر جو بامتعاض، ومشى صوب الحمّام بسرواله الداخليّ وجوربيه فقط، وهو يفرك ذقنه.

هذا منزلي أنا، فكّرت جوليانا، ولقد سمحتُ لكَ بالبقاء هنا، لكنّك ترفض أن تدعني أنظر إليك! لماذا تريد البقاء هنا إذن؟! تبعته إلى الحمّام، ووجدته يملأ طاسة بالماء الساخن كي يحلق ذقنه، ورأت على ذراعه وشماً: حرف C أزرق اللون.

«ما معناه؟» سألته، «زوجتك؟ كُونْي؟ كورين؟»

«القاهرة Cairo»، أجاب وهو يغسل وجهه.

يا له من اسم إكزوتيكيّ، فكّرت بحسد، من ثمّ احمرّت خجلاً. «أنا غبيّة حقّاً!»، قالت. إيطاليّ، في الرابعة والثلاثين من عمره، من الجزء النازيّ من العالم... لقد شارك في الحرب، حسناً، لكن إلى جانب الحلفاء، وقاتل في القاهرة. الوشم هو الرابطة ما بين أولئك المقاتلين القدماء، الألمانيّين والإيطاليّين، الذين شاركوا في تلك المعركة حين هُزمَ الجيشُ البريطانيّ والأستراليّ بقيادة الجنرال غوت، على يد رومل وفرقته الإفريقية.

خرجت من الحمّام، وعادت إلى غرفة الجلوس حيث رتّبت السرير بسرعة.

أشياء جو مرتّبة بأناقة على الكرسيّ: حقيبة يد صغيرة، ثيابه، وأغراضه الشخصيّة. لفتت نظرها علبة صغيرة من المخمل البنفسجيّ، تشبه علبة النظّارات، فالتقطتها وفتحتها كي ترى ماذا في داخلها. لقد قاتلتَ إذن في القاهرة! فكّرت عندما رأت وسام «الصليب الحديديّ من الدرجة الثانية»، محفور في أعلاه الاسم وتاريخ التكريم: العاشر من حزيران عام 1945. لم ينل الجنود جميعهم هذا الوسام، بل الشجعان فقط. جو، ماذا فعلتَ يا ترى؟! كنتَ في السابعة عشرة من عمرك فحسب آنذاك.

خرج جو من الحمّام في اللحظة التي أخرجت فيها الوسام من علبته المخمليّة، فأجفلت جوليانا شاعرة بالذنب عندما انتبهت لوجوده، لكن لم يبد عليه الغضب.

«أردتُ إلقاء نظرة فقط!» قالت، «لم أرَ وساماً من قبل، هل قلّدك إيّاه رومل شخصيّاً؟».

«وزّعها الجنرال بيرلاين، لأنّ رومل كان في إنجلترا آنذاك، كي يتولّى الأمور هناك». صوته هادئ، لكنّ يده استأنفت حركتها الرتيبة تلك انطلاقاً من جبينه، غاصت أصابعه في فروة رأسه، ومشّط شعره بحركات أشبه بعرّة عصبيّة مزمنة.

«هل ستحكي لي عمّا حصل؟» سألته جوليانا وهو يستدير عائداً إلى الحمّام، كي يكمل الحلاقة.

بعد أن انتهى، وأخذ حمّاماً ساخناً طويلاً، قصّ جو سنادِلا عليها القليل، ولم يعجبها ما سمعتْه: التحق أخواه الكبيران بالخدمة العسكريّة، وقاتلا على الجبهة الإثيوبيّة. كان جو آنذاك في الثالثة عشرة من عمره، وعضواً في منظّمة فاشيّة لليافعين في مدينة ميلان، مسقط رأسه. لاحقاً، انضمّ أخواه إلى وحدة مدفعيّة هجوميّة يقودها الرائد ريكاردو باردي، وعندما اندلعت الحرب العالميّة الثانية، لحق بهما جو، وقاتلوا تحت إمرة غرازياني. عتادهم -خاصّة الدبّابات- كان مريعاً، وتساقط الجنود والضبّاط الكبار على السواء كالأرانب تحت نيران البريطانيّين، لقد اضطرّوا إلى تحصين أبواب دبّاباتهم بأكياس الرمل، كي لا تنفتح تلقائيّاً! بأيّ حال، كان الرائد باردي يقوم بجمع طلقات المدافع الفارغة، من ثمّ يعيد صقلها وتزييتها كي يستخدمها مجدّداً، ونجحت سريته بعرقلة مسيرة دبّابات الجنرال واڤل اليائسة عام 1943.

«أما يزال أخواك على قيد الحياة؟»، سألته جوليانا.

لقد قُتِل أخواه خنقاً بسلك عام 1944، على يد الكوماندوس البريطانيّ من أفراد «فرقة الصحراء بعيدة المدى»، التي كانت ناشطة خلف خطوط قوّات المحور، وازدادت وحشيّة أفعالها في أواخر الحرب، حين بدا واضحاً أنّ الحلفاء غير قادرين على انتزاع النصر.

«ما هو شعورك تجاه البريطانيّين الآن؟»، سألت بتوتّر.

«أتمنّى لو يحصل في بريطانيا ما حصل في إفريقيا»، أجاب جو ببرود.

«لكنّ ذلك... حدث منذ ثمانية عشر عاماً!» قالت جوليانا، «أعرف أنّ البريطانيّين تحديداً ارتكبوا الفظائع، ولكن...».

«إنّهم يتحدّثون عن ممارسات النازيّين ضدّ اليهود» قال جو، «لكنّ البريطانيّين ارتكبوا ما هو أسوأ، في معركة لندن». صمت لحظة، ثمّ تابع:

«تلك الأسلحة الناريّة، الفسفور والزيت... لقد شاهدتُ عدّة فرق ألمانيّة آنذاك، زورق تلو الزورق تفحّم إلى رماد، وتلك الأنابيب تحت البحر التي حوّلت الماء إلى نار... تلك الحشود المدنيّة التي أبادتها القنابل، حين اعتقد تشرشل أنّ قصفها سيحسم الحرب لمصلحته في اللحظة الأخيرة... والهجمات الإرهابيّة على هامبورغ وإيسن و...».

«يكفي هذا» قالت جوليانا، وتشاغلت بقلي اللحم المقدّد في المطبخ. شغّلت راديو إمرسن البلاستيكيّ الأبيض الصغير، الذي أهداها إيّاه فرانك في عيد ميلادها، وقلّبت المحطّات بحثاً عن موسيقا مبهجة خفيفة. «سأعدّ لك شيئاً ما تأكله»، قالت.

«انظري إلى هذا» قال جو. كان جالساً على السرير، وحقيبته الصغيرة إلى جانبه. فتحها، وأخرج منها كتاباً مهترئاً من كثرة الاستعمال. كشّر، وقال لها: «تعالي إلى هنا. أتعرفين ماذا قال هذا الرجل؟» وأشار إلى الكتاب، «إنّه طريف جدّاً. اجلسي». أمسكها من ذراعها، وشدّها كي تجلس بجواره. «أريد أن أقرأ لكِ. كيف سيبدو العالم الآن، لو أنّهم ربحوا الحرب؟ لن نرهق أنفسنا بالتفكير، هذا الرجل تخيّل ما سيحصل». فتح الكتاب، وقلّب صفحاته ببطء. «ستحكم الإمبراطوريّة البريطانيّة قارّة أوروبا بأكملها، وحوض المتوسّط.... لن يسود الإيطاليّون، ولا الألمانيّون أبداً، بل أفراد الشرطة الإنجليزيّة، وأولئك الجنود الصغار المضحكون بقبّعاتهم العالية المصنوعة من الفراء، والملك الذي سيحكم كلّ القارّة وصولاً إلى الڤولغا».

سألته جوليانا بصوت خافت: «هل سيكون الوضع سيّئاً جدّاً؟».

«هل قرأتِ الكتاب؟»

«كلّا»، اعترفت وهي تنحني كي ترى الغلاف. لقد سمعتُ عنه مع ذلك، فالكثيرون يقرؤونه. «لكنّنا لطالما تناقشنا أنا وفرانك... أقصد أنا وزوجي السابق، كيف سيبدو العالَم لو ربح الحلفاء الحربَ».

لم يبدُ على جو أنّه سمعها. حدّق إلى «الجندب يُستثْقَل»، ثمّ سألها: «هل تعرفين كيف تنتصر بريطانيا في الرواية؟ وكيف تهزم المحورَ؟».

هزّت رأسها نافية، وهي تشعر بتوتّره يتفاقم. لقد بدأ ذقنه بالارتجاف، وأخذ يلعق شفتيه مراراً وتكراراً، وأصابعه تحفر فروة رأسه. عندما نطق أخيراً، كان صوته مبحوحاً: «لقد جعل المؤلّف إيطاليا تخون المحور و...».

«آه!»، قالت.

«وتنحاز إلى الحلفاء. انضمّت إلى الأنجلوساكسونيّين، فانفتحت خاصرةُ أوروبا الضعيفة كما سمّاها. من الطبيعيّ أن يفكّر هكذا، كلّنا نعرف كيف هرب الجيش الإيطاليّ الجبان كلّما واجه البريطانيّين. الإيطاليّون يحبّون النبيذ والمرح، ولم يُخلَقوا للقتال. هذا الرجل...» أغلق الكتاب، وقلبه كي يتفحّص غلافه الخلفيّ، «هذا الرجل أبندسن! أنا لا ألومه، لقد كتب هذه الفانتازيا، وتخيّل كيف سيبدو العالم لو هُزِم المحور. كيف سيخسر المحور إن لم تخنه إيطاليا؟!»، وارتجف صوته. «كلّنا نعرف أنّ الدوتشي مهرّج»، قال.

«يجب أن أقلّب اللحم المقدّد»، قالت جوليانا. انزلقت مبتعدة عنه، ثمّ أسرعت إلى المطبخ.

لحق بها والكتاب ما يزال بيده، وتابع: «من ثمّ تتدخّل الولايات المتّحدة الأمريكيّة. بعد أن تهزم اليابانيّين، تنتهي الحرب، وتتقاسم كلّ من الولايات المتّحدة الأمريكيّة وبريطانيا العالَم، تماماً كما فعلت ألمانيا واليابان في عالمنا».

«ألمانيا... اليابان.. إيطاليا» غمغمت جوليانا، فحدّق إليها.

«نسيتَ إيطاليا»، واجهته بهدوء. هل نسيتَ بدورك كما نسي غيرك؟ قالت لنفسها، تلك الإمبراطوريّة الصغيرة في الشرق الأوسط، والاستعراض الغنائيّ «روما الجديدة»؟.

قدّمت له القهوة وطبقاً من اللحم المقدّد والبيض المقليّ، والتوست، والمربّى، فبدأ يلتهمها بسرعة. «ماذا أطعموكَ في شمالي إفريقيا؟»، سألته وهي تجلس إلى المائدة.

«حمار ميت»

«مقرف»

«حمار ميت Asimo Morte. علب لحم البقر المفروم كانت مختومة

بالحرفين AM، والألمان يسمّونها Alter Mann، أي الرجل العجوز»، قال جو بابتسامة صفراويّة، ثم عاد إلى التهام طعامه بسرعة.

أرغب بقراءة هذا الكتاب، فكّرت جوليانا وهي تأخذه من تحت ذراع جو. هل سيبقى وقتاً كافياً هنا إلى أن أنتهي منه؟ الكتاب ملطّخ بالشحم، وصفحاته ممزقّة، تملأها آثار الأصابع بطولها وعرضها. لا بدّ أن سائقي الشاحنات يقرؤونه في رحلاتهم الطويلة، فكّرتْ، في المطاعم الشعبيّة الرخيصة في أواخر الليل... أراهن أنّكَ قارئ بطيء يا جو، وأنّك تحاول أن تنهي هذا الكتاب منذ أسابيع، بل منذ أشهر.

فتحت الرواية عشوائيّاً، وقرأت: «الآن، أصبح مسنّاً ينعم بالسكينة، وهو ما سيحسده عليه القدماء دون أن يفهموه. السفن تنطلق من كريميا إلى مدريد وكلّ أرجاء الإمبراطوريّة، وكلّها تستخدم العملة ذاتها، وترفع الراية نفسها، وتنطق بلغة واحدة. راية المملكة المتّحدة العظيمة القديمة ترفرف منذ مطلع الشمس إلى مغيبها، لقد تحقّقت تلك الأسطورة أخيراً، عن الإمبراطوريّة التي لا تغيب عنها الشمس».

«الكتاب الوحيد الذي آخذه معي» قالت جوليانا، «ليس كتاباً حقيقيّاً، بل كتاب تنجيم، الآي-تشنغ. أدمنتُ على استخدامه بسبب فرانك، وما زلتُ أعتمد عليه دائماً في قراراتي، ولا أدعه يغيب عن بصري مطلقاً». أغلقت رواية «الجندب يستثقل»، وأضافت: «هل تودّ رؤيته؟».

«كلّا»، أجاب جو.

أسندت ذقنها إلى ذراعيها المطويّتين فوق الطاولة، ورمقته بطرف عينيها، ثمّ سألته: «هل قرّرت أن تقيم هنا بشكل دائم؟ وماذا ستفعل؟». فكّرت مليّاً بالإهانات، والافتراءات. أنت تخيفني، قالت لنفسها، لأنّك تكره الحياة، لكن لديك شيء ما. أنت أشبه بحيوان صغير، عديم الأهميّة لكنّه ذكيّ. تفحّصت وجهه القاتم الصغير الذكيّ، وفكّرت: لماذا اعتقدتُ أنّك أصغر منّي عمراً؟! لكنّ هذا صحيح بشكل ما أو بآخر، شخصيّتك طفوليّة، ما زلتَ الأخ الأصغر الذي يعبد أخويه الكبيرين والرائد باردي والجنرال رومل، وما زلت تحاول جاهداً أن تتحرّر من عذابك، وتثأر من الجنود البريطانيّين. هل خنقوهما حقّاً بأنشوطة من الأسلاك؟ سمعنا عن ذلك، سمعنا قصصاً عن

الفظائع، ورأينا تلك الصور الفوتوغرافيّة بعد الحرب، فكّرت وهي ترتجف، لكنّ أفراد الكوماندوس البريطانيّ خضعوا للمحاكمة، ونالوا عقابهم منذ زمن طويل.

انقطعت موسيقا الراديو، الذي انتقل الآن على ما يبدو إلى برنامج إخباريّ مشوّش، يُبَثّ من أوروبا على الموجة القصيرة. خفت صوت المذيع، ثمّ تحوّل إلى شواش، بعدها ساد صمت طويل، لا شيء على الإطلاق سوى الصمت. أخيراً، تعالى صوت مذيع من دنفر، واضح للغاية وقريب. مدّت جوليانا يدها كي تغيّر المحطّة، لكنّ جو أوقفها.

«أنباء وفاة المستشار بورمان صدمت ألمانيا، فالتصريحات المطمئنة أكّدت حتّى مساء البارحة أنّ...»

قفز جو وجوليانا واقفين.

«ألغت كلّ محطّات الرايخ برامجها المقرّرة، وبدأت ببثّ نشيد الحزب النازيّ (ارفعوا الراية)، الذي تغنّيه فرقة الشوتزشتافل الموسيقيّة. لاحقاً في درسدن، حيث يوجد سكرتير الحزب وقادة البوليس السرّيّ الوطنيّ الذي حلّ مكان الغستابو بعد أن...»

رفع جو صوت الراديو.

«بعد أن تمّت إعادة هيكلة الحكومة بتأثير من الفوهرر الراحل هملر، وألبرت سبير، وآخرين. أُعلِنَ الحداد الوطنيّ لمدّة أسبوعين، وبدأت المتاجر والأعمال على الفور بإغلاق أبوابها. حتّى الآن، لم ترد أنباء عن موعد الاجتماع المرتقب للرايخستاغ، أي البرلمان الرسميّ للرايخ الثالث، والمطلوبة موافقته على...»

«سيعيّنون هايدريش»، قال جو.

«أتمنّى لو يعيّنون ذلك الرجل الضخم الأشقر، شيراخ» قالت جوليانا، «يا للمسيح! إذن، مات أخيراً! هل تعتقد أنّ شيراخ سيحظى بفرصة؟».

«كلّا»، أجاب جو باقتضاب.

«ربّما ستنشب حرب أهليّة الآن!» قالت، «لكنّ أولئك الرجال قد شاخوا كثيراً، غورنغ، غوبلز، وكلّ صبيان الحزب القديم».

في تلك اللحظة، أعلن الراديو: «لقد تواصلوا معه في قصره في جبال الألب، بالقرب من برينر»

«يقصد هيرمان السمين»، أوضح جو.

«اكتفى بالقول إنّه شديد الحزن، لا بسبب خسارة جنديّ ومناضل وقائد وفيّ للحزب فحسب، بل لخسارة صديق شخصيّ. يجدر بالذكر أنّ هيرمان قدّم الدعم لبورمان خلال فترة الفراغ الحكوميّ والخلاف على السلطة، الذي نشب إثر انتهاء الحرب، عندما بدا آنذاك أنّ المعارضين لتولّي بورمان المنصب الأعلى في السلطة....».

أطفأت جوليانا الراديو. «مجرّد هراء!» قالت، «لماذا يستخدمون تلك الكلمات؟ إنّهم يتحدّثون عن أولئك المجرمين الرهيبين كأنّهم يشبهوننا».

«إنّهم يشبهوننا» قال جو. جلس مجدّداً، وتابع تناول إفطاره. «كنّا سنقترف الأفعال ذاتها لو كنّا مكانهم. لقد أنقذوا العالم من الشيوعيّة، ولولاهم لكنّا نعيش تحت رحمة النظام الأحمر الآن. لولا ألمانيا، لكان وضعنا أسوأ».

«أنت تتحدّث كالراديو تماماً، هذا هراء!»

«لقد عشتُ في ظلّ النظام النازيّ» قال جو، «وأعرف الوضع. هذا ليس هراء، لقد عشتُ تحت حكم النازيّين اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً، أو ربّما أكثر، خمسة عشر؟ لديّ بطاقة عمل من منظمّة تُودْت، فقد بدأت العمل لحسابها منذ عام 1947 في شمالي إفريقيا وفي الولايات المتّحدة الأمريكيّة. اسمعيني» ولكزها بإصبعه، «ورثتُ عبقريّة الإيطاليّين في أعمال البناء، ونلتُ تقييماً عالياً من منظّمة تودت. لم أعمل بمدّ الإسفلت أو خلط الأسمنت من أجل تعبيد الطرقات، بل ساعدتُ بوضع التصاميم، كمهندس. ذات يوم، زارنا الدكتور تودت كي يفحص العمل الذي أنجزه فريقنا، وقال لي: يداكَ ماهرتان! كانت تلك لحظة عظيمة يا جوليانا! كرامة العمل... إنّهم لا يكتفون بالأقوال فحسب! قبل النازيّين، احتقر الجميع العمل اليدوي، بمن فيهم أنا أيضاً، لكنّ جبهة العمل قضت على الأرستقراطيّة، وعندها رأيتُ يديّ هاتين للمرّة الأولى في حياتي». تحدّث بسرعة فائقة، فطغت لكنته على كلامه، وعانت جوليانا صعوبة في فهم ما يقوله.

«عشنا جميعنا هناك، في الغابات، في نيويورك في شمالي أمريكا. عشنا كالإخوة، ننشد الأغنيات، ونذهب إلى العمل مشياً بروح قتاليّة، نبني ولا نهدم أبداً. كانت تلك أسعد الأيّام على الإطلاق، أيّام إعادة الإعمار بعد الحرب. شيّدنا صفوفاً من المباني العامّة الراقية النظيفة الراسخة، مبنى تلو الآخر، عمّرنا مركز المدينة بأكمله في نيويورك وبالتيمور. حاليّاً، ذلك العمل أصبح تاريخاً، فالكارتيلات الضخمة مثل نيوجيرسي كُرَب وسولن هي من تدير المشهد. هذه ليست النازيّة، بل القوى الأوروبيّة القديمة، وهي أسوأ! هل تفهمين؟ النازيّون من أمثال رومل وتودت أفضل بألف مرّة من الصناعيّين أمثال كُرَب وأصحاب البنوك وأولئك البروسيّين... الأفضل لو أعدموهم جميعهم، أصحاب البزّات هؤلاء!».

ولكن، فكّرت جوليانا، أولئك السادة الذين يلبسون البزّات باقون للأبد، أمّا معبوداك رومل والدكتور تودت فقد ظهرا بعد الحرب، لترحيل الأنقاض وشقّ الطرق السريعة وتدوير عجلة الصناعة من جديد... فضلاً عن ذلك، لقد تركا اليهودَ أحياء بضربة حظّ، بناء على معاهدة، كي يشاركوا أيضاً في إعادة الإعمار... حتّى عام 1949 بأيّ حال، من ثمّ، وداعاً تودت، وداعاً رومل... إلى التقاعد! أنا أعرف كلّ هذا، قالت لنفسها، لقد حدّثني فرانك عن كلّ شيء. لا تخبرني كيف هي الحياة في ظلّ النازيّين يا جو، فزوجي كان -وما يزال- يهوديّاً. أعرف أنّ الدكتور تودت كان مثالاً للرجل المتواضع اللطيف، وأنّ كلّ ما أراده هو توفير فرص العمل، العمل النزيه الشريف، لملايين الرجال والنساء المُحَبطين اليائسين الذين كانوا ينبشون الأنقاض بعد الحرب. أعرف أنّه أراد توفير برامج الرعاية الطبيّة، ومنتجعات للعطلات، والسكن اللائق للجميع، بغضّ النظر عن عِرقهم. كان بنّاء، لا مفكّراً، ونجح بتحقيق مراده في معظم الأحيان، أجل، حقّق ما أراده، ولكن...

هناك أمر آخر يشغل تفكيرها بإلحاح الآن، فسألت: «جو، كتاب الجندب هذا، أليس ممنوعاً في الساحل الشرقيّ؟!».

أومأ بالإيجاب

«كيف تقرأه إذن؟!» أقلقها هذا، «ألا يعدمون من يقرأه؟».

«هذا يعتمد على العِرق الذي تنتمين إليه، على الشارة العتيقة الموثوقة التي تعلّقينها على ذراعك».

هذا صحيح! تُفرَض أقصى درجات الرقابة على ما يقرأه السلاف والبولنديّون والبورتوريكيّون، وعلى ما يسمعونه أو يفعلونه. الأنجلوساكسونيّون وضعهم أفضل، بإمكانهم زيارة المتاحف والمكتبات العموميّة وحضور الحفلات الموسيقيّة، كما يُسمَح لأبنائهم بارتياد المدارس الحكوميّة. لكن بغضّ النظر عن هذا كلّه، «الجندب يُستثْقَل» ليست مجرّد رواية ممنوعة، بل محظورة على الجميع دون استثناء.

«أنا أقرأها في المرحاض، وأخبّئها داخل الوسادة. في الحقيقة، أنا أقرأها لأنّها ممنوعة»، قال جو.

«أنت شجاع للغاية»

«هل تقصدين ذلك حقّاً، أم تسخرين منّي؟!»، سألها بارتياب.

«لا أسخر منك»

هدأ قليلاً، ثمّ أضاف: «الوضع أسهل هنا بالنسبة لكم، حياتكم آمنة، ولا غاية لها. ما من شيء تفعلونه، ما من شيء يقلقكم! أنتم خارج مسار الأحداث، بل بقايا من الماضي... أليس كذلك؟»، وسخرت عيناه منها.

«التهكّم سيقتلك» قالت، «لقد حطّموا أصنامك واحداً تلو الآخر، ولم يبقَ من تغدق حبّك عليه». مدّت شوكتها صوبه، فقَبِلها. كُل! فكّرت، إمّا أن تأكل أو أن تتخلّى عن العمليّات البيولوجيّة كلّها.

أومأ جو إلى الكتاب وهو يأكل، وقال: «أبندسن ذاك يعيش في الجوار، وفقاً لنبذة الغلاف، في شايان، حيث يراقب العالم من زاوية آمنة! هذا بديهيّ، أليس كذلك؟ اقرئي ما يقوله، اقرئيه بصوت عالٍ».

أمسكت جوليانا الكتاب، وقرأت المكتوب على الغلاف الخلفيّ: «إنّه جنديّ سابق، كان رقيباً في الجيش، قاتل في صفوف قوّات البحريّة الأمريكيّة في الحرب العالميّة الثانية، وأصيب في إنجلترا بقذيفة دبّابة تايغر نازيّة. يقول الغلاف إنّه اشترى قلعة حيث يعيش ويكتب حاليّاً، محاطاً بالأسلحة». وضعت الرواية من يدها، ثمّ قالت: «لم يُذكَر أنّه يقيم هنا، لكنّني سمعتُ

أنّه يعاني من البارانويا، لذلك أحاط مسكنه بالأسلاك الشائكة. إنّه يقيم في الجبال، في مكان يصعب الوصول إليه».

«حذره في محلّه» قال جو، «لقد جنّ جنون الألمان بعد أن قرؤوا الرواية».

«كان يعيش هكذا قبل أن يكتبها أصلاً! لقد كتبها في القلعة التي تُسمّى...» وألقت نظرة خاطفة على الغلاف، من ثمّ تابعت: «القلعة العالية، هكذا أطلق عليها».

«لن يقبضوا عليه» قال جو وهو يمضغ بسرعة، «إنّه يقظ وذكيّ».

«أعتقد أنّه في منتهى الشجاعة، كي يؤلّف كتاباً كهذا. لو خسر المحور الحرب، لكان بوسعنا أن نقول وأن نكتب ما نريد، كما في السابق... ولعشنا في بلد واحد، يسوده نظام قضائيّ عادل نخضع جميعنا له سواسية».

أدهشها أنّه هزّ رأسه موافقاً على ما سمعه!

«أنا لا أفهمك!» قالت، «بماذا تؤمن؟ ماذا تريد؟ أنت تدافع عن أولئك الوحوش، عن أولئك المسوخ الذين ذبحوا اليهود، ومن ثمّ أنت...»، جذبته من أذنيه بيأس، فرمش من الدهشة والألم عندما وقفت، وجذبته للأعلى.

وقفا وجهاً لوجه وهما يلهثان، غير قادرين على قول كلمة واحدة.

«دعيني أكمل الإفطار الذي حضّرتِه لي»، قال جو أخيراً.

«ألن تقول شيئاً؟ ألن تخبرني؟ أنت تعرف عمّاذا أتحدّث، ومع ذلك تتابع الأكل متظاهراً بالعكس»، وأفلتت أذنيه بعد أن فركتهما إلى أن أصبح لونهما أحمر قانياً.

«هراء!» أجابها، «لا يهمّ، تماماً كتعقيبك على الخبر الذي بثّه الراديو. أتعرفين ماذا يُطلق العسكر النازيّ على الأشخاص الذين يتفلسفون؟ Eierkopf، أي الرأس-البيضة، لأنّ رؤوسهم المثقّفة الكبيرة الفارغة تتهشّم بسهولة فائقة في شجارات الشوارع».

«هل هذا هو رأيك بي؟» سألته، «لِمَ لا تتابع طريقك؟! لماذا بقيتَ هنا؟!».

صعقتها ابتسامته الغامضة.

ليتني لم أسمح له بالقدوم معي إلى هنا، فكّرت، فات الأوان الآن، لن

أستطيع أن أتخلّص منه، إنّه قويّ جدّاً. هناك شيء ما رهيب ينبعث منه، وأنا أساعده على تنفيذه كما يبدو.

«ما بكِ؟» مدّ يده، ودغدغها تحت ذقنها، داعب عنقها، ثمّ دسّ أصابعه تحت قميصها وقرص كتفها بوَلَه. «أنت مزاجيّة، هذه مشكلتك... سأحلّل شخصيّتك مجّاناً».

«سيلقّبونك بالمحلّل اليهوديّ» وابتسمت ابتسامة باهتة، «هل تريد أن ينتهي بك الحال في أفران الغاز؟».

«أنتِ تخافين الرجال، أليس كذلك؟»

«لا أعرف»

«استنتجتُ ذلك البارحة. فقط لأنّني...» قطع الجملة في منتصفها، ثمّ أكمل: «فقط لأنّني أوليتُ عناية خاصّة لرغباتك».

«لأنّكَ ضاجعت فتيات كثيرات» ردّت جوليانا، «هذا ما قلتَه في البداية».

«أعرف أنّني على صواب. اسمعيني، أنا لن أؤذيك أبداً جوليانا! أقسم بقبر أمّي، أعدك، سأكون متفهّماً للغاية، وإن كنتِ ستثيرين مشكلة بسبب تجاربي، لا بأس، موافق... سأخلّصكِ من توتّركِ، وسأطوّركِ، خلال وقت وجيز. لقد مررتِ بحظّ عاثر، فقط لا أكثر».

هزّت رأسها موافقة، وابتهجت قليلاً، لكنّها ما تزال تشعر بالحزن والبرد في أعماقها، دون أن تعرف لماذا.

***

قبل أن يبدأ يومه، اختلى السيّد نوبوسوكي تاغومي بنفسه قليلاً في مكتبه في مبنى نيبون تايمز، واستغرق بالتفكير.

قبل أن يغادر منزله صباحاً، تلقّى تقرير إيتو عن السيّد باينس: الطالب الياباني مقتنعٌ مئة في المئة أنّ السيّد باينس ليس سويديّاً، بل ألمانيّ على الأرجح... لكنّ موهبة إيتو في اللغات الجرمانيّة لا تبهر لجنة التجارة ولا التوكوكا، أي البوليس السريّ الياباني. لربّما لم يجد ذلك الأحمق ما يبلغ عنه، فكّر السيّد تاغومي، حماس في غير موضعه، مقترن مع العقيدة الرومانسيّة: تحرَّ، ودائماً بريبة.

بأيّ حال، سرعان ما سيبدأ الاجتماع في الموعد المحدّد مع العجوز القادم من جزر الوطن والسيّد باينس، أيّاً كانت جنسيّة هذا الأخير، فضلاً عن أنّه حاز على إعجاب السيّد تاغومي، الذي يعتقد أنّ الموهبة الأساسيّة لأيّ رجل راقٍ -مثله شخصيّاً- هي تمييز الشخص الصالح عند لقائه مباشرة، أي أن يتبع حدسه ويتجاوز الطقوس والشكليّات كلّها، ويرى مباشرة ما في القلب.

القلب محبوس بين خطّي بِن من العاطفة السوداء، يختنق أحياناً، لكنّ نور اليانغ يخفق في مركزه على الرغم من ذلك. السيّد باينس يعجبني، قال لنفسه، سواء كان سويديّاً أم ألمانيّاً. آمل أنّ الزاراكائين قد خفّف صداعه، وينبغي ألّا أنسى الاستفسار حول ذلك ما إن نلتقي.

رنّ الإنتركوم على طاولته.

«لا» قال بفظاظة، «لا نقاش. إنّها لحظة الحقيقةِ الداخليّة، وتأمّلِ أعماق النفس»، لكنّ صوت السيّد رامسي صدح من مكبّر الصوت الصغير: «سيّدي، وصلتنا أخبار من خدمة الصحافة في الأسفل. لقد مات مستشار الرايخ، مارتن بورمان»، ثمّ ساد الصمت. عليّ إلغاء كلّ المواعيد اليوم، فكّر السيّد تاغومي. نهض، وبدأ يتمشّى جيئة وذهاباً في مكتبه وهو يفرك يديه. دعني أرَ، أرسِلْ رسالة رسميّة إلى قنصل الرايخ، مقتضبة، يمكن للموظّفين أن يتولّوا أمرها، سنقول إنّنا نشعر بالأسى العميق، إلخ إلخ، وأنّ اليابان بأكملها تقف إلى جانب ألمانيا في هذه اللحظة الحزينة. تيقّظْ، وجهِّزْ نفسك لتلقّي المعلومات من طوكيو على الفور.

ضغط زرّ الإنتركوم، وقال: «سيّد رامسي، تأكّد أنّنا على اتّصال مع طوكيو، اطلب من عاملات المقسم أن ينتبهن، وألّا يفوّتن أيّ اتّصال».

«حاضر سيّدي»، أجاب السيّد رامسي.

«سأبقى في مكتبي من الآن فصاعداً، أجّل كلّ المسائل الروتينيّة، وحوِّل كلّ الاتصالات المتعلّقة بالأشغال الاعتياديّة».

«سيّدي؟!»

«لا أريد أن أشغل نفسي، في حال طرأ أمر ما فجأة».

«أجل سيّديّ»

بعد نصف ساعة، أي في حوالي التاسعة تقريباً، وصلت رسالة من المسؤول الأعلى رتبة في الحكومة الإمبراطوريّة على الساحل الغربيّ، وهو المحترم بارون إل. بي. كايلِماكيولي، سفير اليابان في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة. ستعقد وزارة الخارجيّة اليابانيّة جلسة طارئة في مبنى السفارة الكائن في شارع سوتر، وعلى كلّ لجنة من لجان التجارة إرسال موظّف رفيع المستوى كمندوب عنها، وهذا يعني السيّد تاغومي شخصيّاً. لا يملك وقتاً كي يغيّر ملابسه، بل هرول بسرعة إلى مصعد الإكسبرس، ونزل إلى الطابق الأرضيّ، ثمّ انطلق بعد لحظات بليموزين اللجنة، وهي سيّارة كاديلاك سوداء موديل 1940، يقودها صينيّ متمرّس يرتدي زيّاً موحّداً خاصّاً بالسائقين.

أمام مبنى السفارة، رأى السيّد تاغومي سيّارات المندوبين الآخرين مركونة في الساحة -عشر سيّارات تقريباً- ورأى أصحاب المناصب العليا الذين لا يعرف إلّا البعض منهم فقط، يصعدون درج السفارة العريض ويدخلون إلى المبنى. فتح السائق له باب السيّارة، فنزل بسرعة ممسكاً بحقيبته. إنّها فارغة، إذ لم يطلبوا منه أن يجلب معه أيّة أوراق، لكن من الضروريّ ألّا يبدو كمتفرّج. ارتقى الدرج بأسلوب يوحي بأنّ له دوراً فائق الأهميّة في مجريات الأحداث، على الرغم من أنّهم لم يخبروه أصلاً عمّاذا سيدور الاجتماع.

في البهو، توزّع الحاضرون في مجموعات صغيرة، وتبادلوا النقاش، فانضمّ السيّد تاغومي إلى بضعة أشخاص من معارفه، وهو يهزّ رأسه وملامحه توحي بأنّه حزين مثلهم. بعد قليل، جاء أحد موظّفي السفارة، وقادهم إلى قاعة كبيرة مليئة بصفوف من الكراسي القابلة للطيّ، فدخلوا جميعهم وتوقّفوا عن الكلام. لم يقطع صمتهم سوى سعال هنا، أو صوت كرسيّ يُجَرُّ هناك، من ثمّ ظهر رجل يحمل رزمة أوراق، شقّ طريقه إلى منضدة موضوعة على منصّة مرتفعة قليلاً. إنّه دبلوماسيّ، ولا بدّ أنّه مندوب وزارة الخارجيّة. سادت الحيرة، وبدأ الحضور يتناقشون بصوت خافت فيما بينهم.

«يا سادة»، قال مندوب وزارة الخارجيّة بصوت عالٍ آمر، فتوجّهت كلّ العيون إليه. «كما تعلمون، لقد توفّي مستشار الرايخ، وهو ما أكّده تصريح رسميّ من برلين. هذا الاجتماع الذي لن يطول -سرعان ما ستعودون إلى مكاتبكم- يهدف إلى إطلاعكم على تقييمنا للشخصيّات المتنافسة في المشهد السياسيّ الألمانيّ، التي نتوقّع منها أن تنتهز الفرصة، وتنخرط في نزاع لا تحدّه أيّ ضوابط للفوز بالمنصب الخالي بعد وفاة هر بورمان. سأطلعكم على أبرز النقاط، وأوّلها وأهمّهما تلك التي تتعلّق بهِرمان غورنغ. لطفاً، تحمّلوا سماع التفاصيل التي نعرفها جميعنا.

يُلقَّب غورنغ بالسمين لأنّه بدين حقّاً، كان طيّاراً حربيّاً باسلاً في الحرب العالميّة الأولى. أسّس الغستابو، وتقلّد منصباً مهمّاً في الحكومة البروسيّة واسعة السلطة. إنّه أحد أوائل النازيّين عديمي الرحمة، لكنّ انغماسه لاحقاً في الملذّات أوحى بصورة خاطئة عنه كشخص ودود المعشر يهوى النبيذ، وهو انطباع ترجو حكومتنا ألا يخدعكم. على الرغم ممّا يشاع عن نمط حياته غير الصحيّ، ونهمه القاتل، لكنّ هذا الرجل أشبه بأباطرة روما القدماء الماجنين، الذين تنامى نفوذهم مع تقدّمهم بالعمر

عوضاً عن أن يتلاشى. الصورة الرهيبة عن هذا الرجل برداء التوغا[2]، ومن حوله أسوده الأليفة في قصره المليء بالغنائم والقطع الفنيّة، هي صورة دقيقة، فقطارات الشحن التي تنقل المسروقات الثمينة لم تنقطع عن القدوم إلى عزبته الخاصّة أثناء الحرب، على حساب الاحتياجات العسكريّة. تقييمنا للوضع هو التالي: هذا الرجل يطمح للحصول على سلطة هائلة، وهو قادر على اقتناصها. إنّه أكثر النازيّين انغماساً بالملذّات، ويتناقض تناقضاً صارخاً مع إتش. هملر الراحل الذي عاش في ضيق اعتماداً على راتبه الضئيل. هر غورنغ يمثّل العقليّة الانتهازيّة الفاسدة، ويستغلّ سلطته للحصول على الثروة. عقليّته بدائيّة، وسوقيّة أيضاً، لكنّه رجل فائق الذكاء، بل لعلّه الأذكى بين القادة النازيّين جميعهم، تدفعه رغبته بتمجيد نفسه على غرار الأباطرة القدماء.

2- رداء طويل فضفاض لبسه المواطنون في روما القديمة، يُخاط من قطعة قماش واحدة، ويغطّي الجسد بأكمله عدا الذراع اليمنى. المترجمة

التالي هو هر جي. غوبلز. عانى من شلل الأطفال في صغره، كاثوليكيّ سابق، خطيب لامع، كاتب، عقليّته مرنة ومتطرّفة، ذكيّ، مهذّب، كوزموبوليتيّ، يهوى النساء، أنيق، مثقّف، كفء، يعمل كثيراً، شبه مهووس بالإدارة، ويقال إنّه لا يرتاح أبداً. إنّه شخصيّة ساحرة يحترمها الجميع، لكن يُشاع أنّ فيه خصلة مسعورة تبزّ النازيّين كلّهم. توجّهاته الإيديولوجيّة تقترح عقيدة جزويتيّة من القرون الوسطى، تغذّيها العدميّة الألمانيّة ما بعد-الرومانسيّة، كما يُعَدُّ المفكّرَ الأصيل الوحيد في الحزب. أراد أن يصبح كاتباً مسرحيّاً في شبابه، أصدقاؤه قلائل ولا يحبّه مرؤوسوه، لكنّه يمثّل أفضل ما في الثقافة الأوروبيّة الراقية. طموحه هو الحصول على السلطة لأجل السلطة فحسب، لا لتسخيرها بغية إرضاء الذات. موقفه التنظيميّ يتماشى مع الدولة البروسيّة الكلاسيكيّة.

هر آر. هايدريش....»

صمت مندوب وزارة الخارجيّة لحظة، وألقى نظرة على الموجودين، من ثمّ تابع:

«هر آر. هايدريش.... أصغر سنّاً بكثير من السابقَين، دعم الثورة الأساسيّة عام 1932، أمضى مسيرته المهنيّة مع نخبة الشوتزشتافل، تحت إمرة إتش. هملر، وربمّا لعب دوراً في موت هملر الغامض عام 1948. قضى رسميّاً على منافسيه ضمن الأجهزة البوليسيّة، مثل إي. إيخمان، دبل يو. شِلِنبرغ، وغيرهما، ويقال إنّ العديد من أعضاء الحزب يخافونه. كان المسؤول عن ضبط عناصر الجيش النازيّ الموحَّد، بعد انتهاء الاقتتال في المواجهة المشهورة بين البوليس والجيش، التي أدّت إلى إعادة تنظيم الأجهزة الحكوميّة، وانتصر فيها حزب العمال القوميّ الاشتراكيّ الألمانيّ، أي الحزب النازيّ. ساندَ مارتن بورمان طيلة الوقت، تلقّى تدريب النخبة، لكن قبل ما يُدعَى بنظام قلعة شوتزشتافل. لا يتدخّل في النزاعات الإيديولوجيّة، ويُشاع أنّه مجرّدٌ من العقليّة العاطفيّة بالمعنى التقليديّ للكلمة، دوافعه غامضة، يعتنق وجهة نظر عن المجتمع مفادها أنّ الصراع الإنسانيّ على البقاء هو سلسلة ألعاب، وهي وجهة نظر تُعَدّ بمنزلة انفصال غريب شبه علميّ عن الواقع، تتبنّاها بعض الأوساط التكنولوجيّة. الخلاصة: بوسعنا أنّ

نعدّه صاحب العقليّة العصريّة الأكثر تقدّماً، من النمط ما بعد التنويريّ، كما أنّه تخلّص ممّا يدعى بالأوهام الضروريّة كالإيمان بالله وما شابه. خبراء علم الاجتماع في طوكيو غير قادرين على فهم معنى تلك العقليّة الواقعيّة، لذلك هناك إشارة استفهام حول هذا الرجل. بأيّ حال، يجب أن ننتبه إلى التشابه ما بين عقليّته، وما بين تدهور الشعور الحسيّ المَرَضيّ في سياق انفصام الشخصيّة».

شعر السيّد تاغومي بالغثيان، وهو يستمع إلى ما سبق.

«بالدور فون شيراخ، الرئيس السابق لمنظّمة شبيبة هتلر، من أتباع المدرسة المثاليّة. جذّاب المظهر، لكنّه لا يُعدّ من ذوي الكفاءة أو الخبرة الممتازة. مؤمن مخلص بأهداف الحزب، كان المسؤول عن تجفيف البحر المتوسّط، والاستيلاءِ على مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة. سهّل سياسات الإبادة العرقيّة الخبيثة ضدّ السلافيين في بداية الخمسينيّات، من ثمّ حثّ الشعب الألمانيّ مباشرة على السماح لبقايا الشعوب السلافيّة تلك بالبقاء في مناطق مغلقة أشبه بالمحميّات، في عمق وطنهم الأمّ. نادى بإنهاء بعض أشكال القتل الرحيم، والتجارب الطبيّة، لكنّه فشل في هذا الصدد.

الدكتور سيس إنكورت، نازيّ نمساويّ سابق، مسؤول حالياً عن مستعمرات الرايخ، وعن السياسات الكولونياليّة. لعلّه أكثر شخص يكرهه الناس في كلّ المناطق التابعة للرايخ، ويقال إنّه حرّض على تطبيق معظم سياسات قمع الشعوب المستعمَرة، إن لم يكن كلّها. تعاون مع روزنبرغ لتحقيق انتصارات إيديولوجيّة مروِّعة، كمحاولة تعقيم الشعب الروسيّ بأكمله بعد انتهاء الحرب. لا وقائع تؤكّد الأمر التالي، لكنّه يُعدّ أحد المسؤولين عن اتّخاذ القرار بتنفيذ الهولوكوست الإفريقي، وبالتالي تحديد شروط الإبادة العِرقيّة للشعوب الزنجيّة. لعلّه الأقرب إلى الفوهرر الأصليّ أدولف هتلر من حيث الطبع...».

توقّف مندوب وزارة الخارجيّة عن القراءة بأسلوبه البطيء الجافّ، ففكّر السيّد تاغومي: سأجنّ! يجب أن أخرج من هنا... سأصاب بنوبة قلبيّة،

سأتقيّأ أو سأنفجر! إنّني أموت! تحامل على نفسه، وشقّ طريقه على طول صفّ الكراسي بين الحضور، وهو لا يكاد يرى أمامه. يجب أن أصل إلى دورة المياه، قال لنفسه، وركض.

استدارت عدّة رؤوس باتّجاهه، ورآه البعض. يا للمهانة! يمرض في اجتماع مهمّ! لقد خسر اللعبة! تابع الركض، وخرج من الباب الذي فتحه له أحد موظّفي السفارة، فزال رعبه على الفور، وتحسّن بصره الزائغ، وتوقّفت الأرض والجدران عن الدوران. إنّها نوبة دوار دهليزيّ بلا شكّ، اختلال في وظيفة الأذن الوسطى. لا بدّ أنّه الدماغ البينيّ -جذع الدماغ القديم- يهبّ للإنقاذ! فكّر، انهيار عضويّ مؤقت لا غير. فكّر بالخطوط المُطَمْئِنة، تذكّر نظام العالَم. ما الذي ستلجأ إليه؟ الدِين؟ فكّر الآن برقصة غاڤوت[3] تؤدَّى بهدوء وسكينة. كلاهما ممتازان، كلاهما ممتازان! وجدتها! هذا هو ما أحتاجه بالضبط، شكلٌ مُصغَّر من العالَم المحسوس، أوبرا ذه غوندولييرز، جي & إس. أغمضَ عينيه، وتخيّل شركة دويلي كايرت[4] كما رآها في جولتها الأوروبيّة بعد الحرب، وفكّر بالعالَم المحدود، المحدود.

ظهر أحد موظّفي السفارة إلى جواره، وسأله: «هل أساعدك يا سيّدي؟».

احنى السيّد تاغومي، وأجابه: «لقد تحسّنت».

وجه الموظّف هادئ ومتفهّم، لا يلوح عليه الاستهزاء. لعلّ الحضور يسخرون منّي هناك؟ فكّر السيّد تاغومي.

الشرّ موجود، الشرّ حقيقيّ كالأسمنت. لا أصدّق هذا، لا يمكنني أن أتحمّله، الشرّ ليس صورة! تجوّل في الردهة مصغياً إلى حركة المواصلات في شارع سوتر، وإلى صوت مندوب وزارة الخارجيّة يتابع الاجتماع. دِيننا

3- رقصة فرنسيّة فولكلوريّة قديمة. المترجمة

4- شركة إنتاج أوبراليّ بريطانيّة، دام نشاطها من عام 1870 إلى 1982. أنتجت أوبرات كوميديّة للمؤلّفين دبل يو. إس. جلبرت وآرثر سوليڤان (جي & إس) بشكل سنويّ تقريباً، ومنها أوبرا The Gondoliers (تعني حرفيّاً من يقودون زوارق الجندول) عام 1889، وأوبرا بينافور المذكورة سابقاً عام 1878. المترجمة

بأكمله خاطئ، ماذا سأفعل؟! سأل نفسه، واتّجه إلى باب السفارة الخارجيّ، ففتحه له أحد الموظّفين.

نزل السيّد تاغومي إلى الشارع، حيث توجد السيّارات المركونة، وسيّارته، وسائقه الذي يقف بانتظاره.

الشرّ مكوِّن من مكوِّناتنا، ومن مكوِّنات العالَم، ينصبّ علينا، ويرشح إلى داخل أجسادنا وعقولنا وقلوبنا، وإلى الرصيف بحدّ ذاته.

لماذا؟!

نحن حيوانات خلد عمياء، نزحف داخل التراب، ونتلمّسه بأنوفنا. نحن لا نعرف شيئاً... أحسستُ بهذا، وها أنا ذا لا أعرف إلى أين أذهب، وقد استولى عليّ الخوف فقط، أريد أن أهرب بعيداً.

أنا مثير للشفقة... اضْحكوا عليّ! فكّر عندما رأى السائقين يرمقونه، وهو يسير نحو سيّارته. لقد نسيتُ حقيبتي! تركتها هناك على الكرسي! كلّ العيون تركّزت عليه عندما أومأ لسائقه، ففتح له باب السيّارة.

خذني إلى المستشفى، فكّر، لا، سأعود إلى المكتب. «مبنى نيبون تايمز» قال بصوت عال، «سُق على مهل». تفرّج على المدينة، السيّارات، المتاجر، العمارات العالية العصريّة، والناس رجالاً ونساء الذين يمضون لأشغالهم الخاصّة..

عندما وصل إلى مكتبه، طلب من السيّد رامسي أن يتواصل مع لجنة أخرى من لجان التجارة، وهي لجنة خامات المعادن غير الحديديّة، وأن يطلب من مندوبهم إلى الاجتماع المذكور الاتّصال بالسيّد تاغومي حالما يعود.

قبل منتصف النهار بقليل، اتّصل المندوب.

«لعلّك لاحظتَ كَرَبي في الاجتماع» قال السيّد تاغومي، «لقد لاحظه الجميع بكلّ تأكيد، خاصّة عندما هربتُ مسرعاً».

«لم أنتبه» قال مندوب لجنة الخامات، «لكنّني لم أجدك بعد الاجتماع، وتساءلتُ عمّا أصابك».

«هذه لباقة منك»، قال السيّد تاغومي بضعف.

«كلّا على الإطلاق، أنا متأكّد أنّ الحضور جميعهم كانوا مأخوذين بمحاضرة وزارة الخارجيّة، ولم يأخذوا باعتبارهم أيّ أمر آخر. بما يخصّ ما سمعناه بعد أن غادرتَ... هل كنتَ موجوداً عندما سمعنا تحليل صفات الطامحين للمنصب؟ تلك كانت البداية».

«سمعتُ الجزء المتعلّق بالدكتور سيس إنكورت»

«بعد ذلك حلّل مندوب وزارة الخارجيّة الوضعَ الاقتصاديّ في ألمانيا بإسهاب. وجهة نظرهم هناك في جزر الوطن، هي أن انتهاج ألمانيا لسياسة اختزال شعوب أوروبا وشمال آسيا إلى مرتبة العبيد، واغتيالِ كلّ المفكّرين والعناصر البرجوازيّة والشباب الوطنيّ وما إلى هنالك، كان كارثة اقتصاديّة لم ينقذهم منها إلّا إنجازاتهم التكنولوجيّة المدهشة سواء العلميّة أو الصناعيّة، أي بعبارة أخرى، أسلحتهم الإعجازيّة».

«أجل»، قال السيّد تاغومي وهو يجلس إلى طاولته، ممسكاً سمّاعة الهاتف بيد، وباليد الأخرى صبّ كوباً من الشاي الساخن، وأضاف: «كصواريخ V1 و V2 الخارقة، أو طائراتهم الحربيّة النفّاثة المقاتلة».

«إنّها خدعة بارعة» قال مندوب لجنة الخامات، «بالدرجة الأولى، استخدام الطاقة النوويّة هو ما أنقذ نظامهم، وساعدهم على ذلك تشتيتُ انتباه العالَم بتسيير رحلات صاروخيّة إلى كوكبي المرّيخ والزهرة، وكأنّها استعراض في سيرك. لقد نوّه مندوب وزارة الخارجيّة إلى أنّ كلّ منجزاتهم المدهشة، بما فيها رحلات الصواريخ، لم تقدّم شيئاً على الصعيد الاقتصاديّ».

«لكنّها مدهشة!»، علّق السيّد تاغومي.

«توقّعات المندوب متشائمة. برأيه، معظم المسؤولين النازيّين الرفيعي المستوى، يرفضون أن يعترفوا بحقيقة محنتهم الاقتصاديّة. بالتالي، يتعاظم ميلهم إلى الإقدام على مغامرات يستعرضون فيها قوّتهم، لكنّ نتائجها غير مضمونة، كما أنّها غير مستقرّة عموماً. إنّها حلقة مفرغة من الحماس الهوسيّ، ثمّ الخوف، ثمّ حلول الحزب اليائسة! حسناً، الخلاصة هي أنّ الأشدَّ طيشاً وجنوناً بين الطامحين للسلطة، هو من سيتربّع على عرش المنصب بسبب كلّ ما سبق».

هزّ السيّد تاغومي رأسه.

«بالتالي، علينا أن نتوقّع الأسوأ -لا الأفضل- عندما يتوصّلون إلى قرار، فضلاً عن أنّ العناصر الواعية المسؤولة ستُهزَم في الصراع الحاليّ على السلطة».

«من هو الأسوأ برأي وزارة الداخليّة؟»، سأل السيّد تاغومي.

«آر. هايدريش، الدكتور سيس إنكورت، وإتش. غورنغ وفقاً لتقييم الحكومة الإمبراطوريّة»

«والأفضل؟»

«لعلّهما ڤون شيراخ، ود. غوبلز... لكنّ المندوب لم يوضّح أكثر».

«هل هناك أي شيء آخر؟»

«قال إنّ علينا اليوم أكثر من أيّ وقت مضى أن نؤمن بالإمبراطور وبالوزارة، وأن نثق بالقصر»

«هل سادت لحظة صمت احتراماً؟»

«أجل»

شكر السيّد تاغومي مندوبَ لجنة الخامات، وأغلق الخطّ.

ما إن جلس لاحتساء الشاي، حتّى رنّ الإنتركوم، وسمع صوت الآنسة إفريكيان يقول: «سيّدي، لقد طلبتَ إرسال رسالة إلى القنصل الألمانيّ»، صمتت لحظة ثمّ تابعت: «هل تريد إملاءها عليّ الآن؟».

أجل، ينبغي أن أرسلها! فكّر السيّد تاغومي، لقد نسيتُ! ثمّ قال: «تعالي إلى مكتبي من فضلك».

دخلت الآنسة إفريكيان مبتسمة بتفاؤل، وسألته: «هل حالك أفضل الآن يا سيّدي؟».

«أجل، نفعتني حقنة الڤيتامينات» قال، «ذكّريني: ما اسم القنصل الألمانيّ؟».

«الفرايهر[5] هوغو ريس»

«سيّدي المحترم» أملى تاغومي عليها، «لقد بلغتنا الأنباء الأليمة عن وفاة

5- freiherr: لقب ألمانيّ يعني حرفيّاً «السيّد الحرّ». يعدّ من ألقاب النبالة الأرستقراطيّة القديمة، ويعادل مرتبة بارون. المترجمة

قائدكم هر مارتن بورمان، والدموع تترقرق في عينيّ الآن وأنا أكتب لكم هذه الكلمات، عندما أتذكّر الأفعال الشجاعة التي قام بها هر بورمان لتحقيق خلاص الشعب الألمانيّ من أعدائه، سواء داخل الوطن أو في خارجه، وكذلك التدابير العقابيّة الصارمة التي فرضها على المتقاعسين والخونة الذين كانوا سيخونون رؤية البشريّة بأسرها للكون، الذي اخترقته حاليّاً صواريخ الأعراق الإسكندناڤيّة الشقراء زرقاء العيون، بعد عصور من...».

توقّف عن الكلام، يستحيل أن يعرف كيف ينهي هذه الرسالة! أوقفت الآنسة إفريكيان آلة التسجيل، وانتظرته.

«إنّه زمن عظيم!»، قال السيّد تاغومي.

«هل أسجّل هذا سيّدي؟ هل هذه هي الرسالة؟»، سألت الآنسة إفريكيان وشغّلت آلة التسجيل متردّدة.

«كنتُ أتكلّم معكِ!»، أجابها السيّد تاغومي، فابتسمت.

«أسمعيني ما سجّلْتِه»، طلب منها.

أزّ شريط التسجيل، ثمّ سمع السيّد تاغومي صوته خافتاً معدنيّاً، يصدر من مكبّر الصوت الذي قطره إنشان... «التي قام بها هر بورمان لتحقيق خلاص...»، وأصغى إلى أزيز الشريط الأشبه بصرير حشرة. حفيفٌ وخفقٌ قشريّ، فكّر.

«لقد استنتجتُ» قال عندما توقّف الشريط، «أنّهم مصمّمون على التضحية بأنفسهم من أجل الحصول على موقع في التاريخ، لا يمكن لأيّ شكل من أشكال الحياة أن يزيحهم عنه، مهما حصل»، وصمت قليلاً ثمّ أضاف: «نحن حشرات، جميعنا، نتوّجه كلّنا إلى شيء ما رهيب أو مقدّس. ألا توافقينني الرأي؟!»، وانحنى، فانحنت الآنسة إفريكيان قليلاً بدورها، وهي ما تزال جالسة على الكرسيّ مع آلة التسجيل.

«أرسليها» قال لها، «أضيفي التوقيع وما إلى هنالك، عدّلي الجمل من فضلك بحيث تصبح ذات معنى»، من ثمّ قال لها وهي تخرج من المكتب: «أو بحيث لا تعني شيئاً على الإطلاق، كما تشائين».

رمقته الآنسة إفريكيان بفضول، وهي تفتح الباب.

عندما أصبح وحيداً، باشر السيّد تاغومي العمل على المسائل الروتينيّة المعتادة، لكن سرعان ما سمع صوت السيّد رامسي عبر الإنتركوم: «سيّدي، اتّصال من السيّد باينس».

جيّد، فكّر السيّد تاغومي، سنبدأ الآن النقاشَ المهمّ. «حوِّل اتصاله»، قال وهو يلتقط سمّاعة الهاتف.

«سيّد تاغومي!»، قال السيّد باينس.

«طاب يومك. لقد اضطررت لمغادرة المكتب صباحاً بسبب وفاة المستشار بورمان المفاجئة. بأيّ حال...»

«هل تواصل السيّد ياتابي معك؟»

«ليس بعد»، أجاب السيّد تاغومي.

«هل طلبت من الموظّفين أن يترقّبوا وصوله؟»، سأل السيّد باينس منزعجاً.

«أجل» أجاب السيّد تاغومي، «سيدخلونه ما إن يصل على الفور»، وذكّر نفسه بأن يخبر السيّد رامسي مباشرة، إذ لم يسعفه الوقت لفعل ذلك من قبل. ألن نبدأ المباحثات قبل أن يأتي ذلك الرجل العجوز؟! فكّر، وشعر بالإحباط. «سيّدي» قال، «أنا متلهّف للبدء، هل ستقدّم لنا قوالب الصبّ؟ لقد تشوّشتُ اليوم ولكن...»

«لقد طرأ تغيير ما» أجابه السيّد باينس، «وسننتظر وصول السيّد ياتابي. هل أنت متأكّد من أنّه لم يصل بعد؟! عدني أن تبلّغني فوراً ما إن يتّصل بك، أرجو أن تتكبّد عناء ذلك يا سيّد تاغومي». كان صوته مرهقاً، ومتوتراً.

«أعدك بذلك».

شعر السيّد تاغومي بالقلق بدوره، لا بدّ أنّ موت بورمان هو سبب التغيير الذي طرأ، فأضاف بسرعة: «يسعدني إمضاء الوقت بصحبتك، هل نتناول الغداء معاً اليوم؟ لم تسنح لي الفرصة لتناول غدائي بعد. سنؤجّل التفاصيل، لكن ما رأيك أن نناقش حال العالَم عموماً، أو تحديداً....»

«كلّا»، أجاب السيّد باينس.

كلّا؟! فكّر السيّد تاغومي، وقال: «سيّدي، أنا مريض اليوم! لقد تعرّضتُ لوعكة صحيّة خطرة، وكنتُ آمل أن أخبرك بها».

«أنا آسف. سأتّصل بك لاحقاً» قال السيّد باينس، وأغلق الخطّ فجأة.

لقد أزعجتُه! فكّر السيّد تاغومي، لقد استنتج حتماً أنّني نسيتُ إبلاغ الموظّفين عن الرجل العجوز... لكنّه أمر تافه! ضغط زرّ الإنتركوم وقال: «سيّد رامسي، تعال إلى مكتبي من فضلك». عليّ تدارك المسألة فوراً، قال لنفسه، لا بدّ أنّ هناك أمراً آخر، لعلّ موت بورمان صدمه.

أن أنسى إبلاغ الموظّفين هو أمر هامشيّ، لكنّه مؤشّر على حماقتي وعدم كفاءتي! شعر السيّد تاغومي بالذنب، إنّه يوم سيّئ، كان عليّ أن أستشير كتاب الآي-تشنغ، كي أكتشف ما هي «اللحظة» بالضبط، لقد انحرفتُ بعيداً جدّاً عن التاو كما يبدو! أيٌّ من الهكساغرامات الأربعة والستّين يحكم هذا اليوم؟ تساءل وهو يفتح درج مكتبه. أخرج كتاب التنبّؤات بجزأيه ووضعه أمامه على الطاولة. تدور في ذهنه أسئلة كثيرة لا بدّ أن يطرحها على الحكماء، وهو بالكاد قادر على التعبير عنها.

عندما دخل السيّد رامسي إلى المكتب، كان الهكساغرام قد اكتمل أمام السيّد تاغومي، الذي قال: «انظر يا سيّد رامسي»، وعرض الكتاب عليه.

إنّه الهكساغرام السابع والأربعون: قمع، وإرهاق.

«نذير سيئ عموماً!» علّق السيّد رامسي، «هل لي أن أعرف ما هو سؤالك يا سيّدي؟».

«لقد سألتُ عن اللحظة الراهنة»، أجاب السيّد تاغومي، «اللحظة التي نشترك بها جميعنا. لم تظهر خطوط متحرّكة، بل هسكاغرام ستاتيكيّ»، وأطبق الكتاب.

***

في الثالثة عصراً من اليوم ذاته، كان فرانك فرينك وشريكه إد مكارثي ينتظران ردّ ويندام-ماتسون بشأن النقود، وقرّر فرينك أن يستشير الآي-تشنغ. «كيف ستؤول الأمور؟» سأل، ورمى العملات المعدنيّة في الهواء، وسرعان ما ظهر أمامه الهكساغرام السابع والأربعون، مع خطّ متحرّك واحد هو الخطّ التاسع في الموقع الخامس:

قدماه وأنفه مقطوعة / القمع على يد الرجل الذي يربط ركبته بعصبة

بنفسجيّة / البهجة تأتي بلطف / وتحثّ المرء على بذل السكائب والتقديمات.

درس فرينك الخطّ والنصّ المرافق له طيلة نصف ساعة تقريباً، محاولاً اكتشاف معناه. أزعجه هذا الهكساغرام، لا سيّما الخطّ المتحرّك، واستنتج أخيراً أنّه وشريكه لن يحصلا على مال.

«أنت تبالغ باعتمادك على هذا الشيء»، قال إد مكارثي.

في الساعة الرابعة، جاء ساعٍ من شركة ويندام-ماتسون، وسلّمهما مغلّفاً من الورق الأسمر، وجدا بداخله شيكاً مضموناً بقيمة ألفي دولار.

«أرأيتَ؟ كنتَ على خطأ!»، علّق مكارثي.

إذن، لا بدّ أنّ الكتاب يشير إلى العواقب المستقبليّة لما قاما به، فكّر فرينك، وهذه مشكلة! بعد أن يحصل الأمر -أيّاً كان- لاحقاً، بإمكان المرء أن يعود للكتاب ويعرف عمّاذا كان يتحدّث بالضبط، لكن الآن...

«صار بوسعنا أن نؤسّس الورشة» قال مكارثي، «ما رأيك أن نبدأ اليوم؟ حالاً؟» وشعر بالإرهاق. «ولمَ لا؟ طلبات مستلزماتنا جاهزة، وكلّ ما علينا فعله هو إرسالها بالبريد بأسرع ما يمكن... سنتولّى بأنفسنا جلب ما نستطيع الحصول عليه في السوق المحليّة». لبس جاكيته، واتّجه صوب باب غرفة فرينك.

لقد طلبا من صاحب منزل فرينك، أن يؤجّرهما القبو الذي يُستخدَم حاليّاً كمستودع، وسيقومان بتجهيز طاولة للعمل، وتمديد الأسلاك والأضواء وما إلى هنالك ما إن يفرغ القبو من الصناديق، بالإضافة إلى أنّهما رسما المخطّطات، ووضعا قوائم بالمستلزمات المطلوبة ومواصفاتها. إذن، لقد بدآ عمليّاً!

فضلاً عن ذلك، سبق أن اختارا اسماً للورشة: «إدفرانك لتفصيل المجوهرات حسب الطلب». لقد انطلقنا إذن، أدرك فرانك فرينك. «أقصى ما يمكنني فعله اليوم» قال، «هو شراء الخشب لطاولة العمل، وربّما القطع الكهربائيّة فقط، لكن ليس مستلزمات المجوهرات».

ذهبا إلى مورّد أخشاب بالجملة في جنوبي سان فرانسيسكو، وحصلا خلال ساعة على ما يلزمهما.

«ما الذي يزعجك؟»، سأله مكارثي وهما يدخلان متجراً لبيع الخردوات بالجملة.

«النقود... يزعجني أن نموّل مشروعنا بهذه الطريقة»

«لقد فهم ويندام-ماتسون العجوز الرسالةَ»، قال مكارثي.

أعرف، فكّر فرينك، وهو ما يثقل عليه. لقد دخلنا إلى العالَم، لكنّنا نشبه ويندام-ماتسون، وهي فكرة لا تبعث على السعادة.

«لا تنظر إلى الخلف» قال مكارثي، «بل إلى الأمام، إلى العمل».

أنا أنظر إلى المستقبل، فكّر فرينك، من ثمّ فكّر بالهكساغرام: ما هي السكائب والتقديمات التي يمكنني تقديمها؟! ولمن؟

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

-7-

الزوجان اليابانيّان الشابّان الأنيقان اللذان زارا متجر روبرت تشلدن، آل كاسورا، اتّصلا به في أواخر الأسبوع، ووجّها له دعوة لتناول العشاء في شقّتهما، فابتهج، لأنّه كان بانتظار ردّهما.

أغلق متجره أبكر بقليل من المعتاد، واستأجر درّاجة ثلاثيّة أقلّته إلى الضاحية التي يقطنها الزوجان، والتي يعرفها جيّداً، على الرغم من أنّها ضاحية خاصّة باليابانيّين حصراً، ولا يقطنها سكّان بيض على الإطلاق. انطلقت الدرّاجة الثلاثيّة به في الشوارع التي تتلوّى بين المروج وأشجار الصفصاف، فتأمّل العمارات الحديثة، وأبهرته فخامة تصميمها: درابزين الشرفات المصنوع من الحديد المطاوع، الأعمدة الشاهقة حديثة الطراز، تدرّجات ألوان الباستيل، الخامات المختلفة... المنطقة الآن لوحة فنيّة، بعد أن كانت مجرّد أنقاض خلال الحرب.

راقبه الأطفال اليابانيّون الذين يلعبون كرة القدم والبيسبول دون تعليق، من ثمّ استأنفوا لهوهم... أمّا الراشدون! فكّر. أولئك الشباب اليابانيّون الأنيقون الذين يركنون سيّاراتهم، أو أولئك الذين يدخلون إلى العمارات بعد أن يعودوا من أعمالهم، كلّهم رمقوه بفضول واضح. لعلّهم يتساءلون إن كان مقيماً هنا، في هذه الضاحية التي يقطنها رجال أعمال يابانيّون، ورؤساء لجان التجارة. لاحظ سيّارات الكاديلاك المركونة، وتفاقم توتّره كلّما اقتربت الدرّاجة من وجهته.

سرعان ما وصل، وفكّر وهو يصعد الدرج المؤدّي إلى شقّة آل كاسورا: ها أنا ذا! لستُ مدعوّاً في سياق العمل، وإنّما كضيف على العشاء. لقد أولى

اهتماماً خاصّاً بمظهره، وهو واثق من ذلك على الأقلّ. مظهري! أجل، هذا هو! كيف أبدو؟ مظهري لن يخدَع أحداً، أنا لا أنتمي إلى هنا، لا أنتمي إلى هذه الأرض التي لملم الرجال البيض أنقاضها، وبنوا عليها إحدى أفخم المدن... أنا غريب في وطني!

مشى في الردهة المفروشة بالسجّاد، وصولاً إلى الشقّة المطلوبة وقرع الجرس. فُتِح الباب على الفور، وظهرت السيّدة كاسورا الشابّة مرتدية كيمونو من الحرير وحزام أوبي، وشعرها الأسود الطويل اللمّاع مربوط أسفل عنقها. ابتسمت له بترحاب، وخلفها زوجها الذي يقف في غرفة الجلوس وبيده كأس من الشراب، والذي أشار لتشلدن بالدخول.

«ادخل سيّد تشلدن»

انحنى تشلدن، ودخل.

الشقّة مؤثّثة بمنتهى الذوق، والتقشّف كذلك. أثاث قليل، مصباح هنا، طاولة هناك، مكتبة، ولوحة على الجدار فقط لا غير. إنّه إحساس اليابانيّين المدهش بـ «الوابي» -وهو مفهوم تعجز اللغة الإنجليزيّة عن شرحه- أي القدرة على إيجاد جَمالٍ في القطع البسيطة، يفوق الموجود في تلك المزخرفة أو المنمّقة... لا بدّ أنّ له علاقة بترتيب القطع.

«هل ترغب بمشروب؟» سأل السيّد كاسورا، «ويسكي مع الصودا؟».

«سيّد كاسورا...»، بدأ تشلدن.

«أنا بول» قال الياباني الشابّ، وأضاف مشيراً إلى زوجته: «وهذه بِتي. وأنتَ؟».

«روبرت»، غمغم السيّد تشلدن.

جلسوا على السجّادة الناعمة حاملين كؤوسهم، واستمعوا إلى أسطوانة من موسيقا الكوتو -وهي قيثارة يابانيّة لها ثلاثة عشر وتراً- صدرت حديثاً عن شركة HMV اليابانيّة، وحصدت شعبيّة واسعة. لاحظ تشلدن أنّ كلّ أجزاء الفونوغراف مخفيّة، بما فيها مكبّر الصوت، ولم يستطع أن يحدّد من أي جزء بالضبط تصدر الموسيقا.

«لم نعرف ماذا تفضّل أن تتعشّى» قالت بتي، «لذلك قرّرنا ألّا نخاطر. أنا أشوي الستيك في الفرن الكهربائيّ، كما حضّرتُ البطاطا المخبوزة مع صلصلة الكريمة الحامضة والكرّاث. الخطأ غير وارد إن قدّمنا الستيك إلى ضيف جديد، يزورنا للمرّة الأولى!».

«هذا رائع!» قال تشلدن، «أنا أحبّ الستيك كثيراً». إنّها الحقيقة، لكنّه نادراً ما يتناول هذا الطبق، لأنّ أسواق الجملة في الغرب الأوسط لا ترسل الكثير من لحم البقر إلى الساحل الغربيّ. لم يستطع أن يتذكّر متى كانت آخر مرّة، تناول فيها قطعة ستيك جيّدة.

حان الوقت كي يقدّم هديّته كضيف.

من جيب معطفه، أخرج صرّة صغيرة ملفوفة بورق التغليف، وضعها خلسة على الطاولة الواطئة، لكنّ الزوجين كاسورا كليهما لاحظاها على الفور، ممّا اضطرّه للشرح: «هدية بسيطة لكما، كي أعبّر عن جزء يسير من المتعة والاسترخاء، اللذين أشعر بهما بسبب وجودي هنا». فتح الصرّة، وأخرج الهديّة: قطعة فنيّة صغيرة مزخرفة من العاج، نُحِتتْ قبل قرن من الزمن على يد صيّادي الحيتان في نيو إنغلاند، وتُدعى «سكريمشو».

أشرق وجها الزوجين كاسورا، لرؤية قطعة السكريمشو التي نحتها البحّارة القدماء في أوقات فراغهم... إنّها أفضل ما يلخّص الثقافة الأمريكيّة الغابرة!

ساد الصمت قليلاً، ثمّ قال بول: «شكراً لك»، فانحنى روبرت تشلدن، وغمره السلام مؤقّتاً. هذه التقدمة، كما وصفها الآي-تشنغ، أدّت دورها، وأزاحت عنه بعض القلق والتوتّر اللذين أصاباه مؤخّراً.

لقد عوّضه راي كالڤن عمّا دفعه لقاء مسدّس كولت 44، وأعطاه عدّة ضمانات مكتوبة بأنّه لن يجد قطعة أخرى مزوّرة بين بضائعه، لكنّه لم يشعر بالراحة. الآن فقط، وفي وضع لا يمتّ إطلاقاً لما حصل، تلاشى مؤقّتاً شعوره ذاك بأنّ الأمور تتدهور بسرعة. أسلوب الوابي من حوله، إشعاعات الهارموني... هذا هو! فكّر، التناسب والتوازن. هذان اليابانيّان الشابّان قريبان جدّاً من التاو، لذلك تفاعلتُ معهما من قبل. لقد أحسستُ بالتاو من خلالهما، ورأيتُ قبساً منه بعينيّ.

كيف سيشعر لو عرف التاو حقّاً؟! التاو الذي خلق النورَ أوّلاً من ثمّ الظلام، وكذلك المناسبات التي تتداخل فيها هاتان القوّتان الأوّليّتان بحيث تتجدّدان دائماً، وهو ما يحفظ الأشياء كلّها من الزوال. لن يفنى الكون أبداً، فما أن يوشك الظلام على الانتصار وبسط هيمنته، حتّى تولَد بذور النور الجديدة في أعماقه. هكذا تسير الأمور: عندما تسقط البذور، فإنّها ستسقط إلى الأرض، إلى التراب، وتحت التراب بعيداً عن الأنظار... تبزغ الحياة.

«تناولْ بعض المقبّلات» قالت بتي، وركعت حاملة طبقاً رتّبت عليه مخبوزات بالجبنة وما شابه، فأخذ تشلدن قطعتين منها شاكراً.

«الأخبار الدوليّة في هذه الأيّام مثيرة للاهتمام» قال بول وهو يرتشف شرابه. «في طريق العودة بسيّارتي إلى البيت، سمعتُ بثّاً مباشراً عن موكب الجنازة الرسميّ في ميونخ، الذي سار فيه خمسون ألف شخص يحملون الرايات وما شابه، وهم ينشدون ich hatt' einen kameraden[1]. الميّت مُسجَّى الآن أمام العامّة، كي يحظى أتباعه الأوفياء جميعهم بفرصة لوداعه».

«أجل، خبر مؤلم حقّاً» قال روبرت تشلدن، «وأخبار بداية الأسبوع أيضاً».

«نقلت صحيفة نيبون تايمز اليوم عن مصادر موثوقة، أنّ ب. ڤون شيراخ وُضِع قيد الإقامة الجبريّة في منزله» قالت بتي، «بناء على أوامر جهاز الاستخبارات النازيّ».

«هذا سيّئ!»، علّق بول وهو يهزّ رأسه.

«لا ريب أنّ السلطات تريد الحفاظ على النظام» قال تشلدن، «ڤون شيراخ معروف بتصرّفاته المتسرّعة العنيدة، وغير المدروسة بعناية. إنّه يشبه آر. هِس في الماضي... كرحلة الطيران الجنونيّة تلك إلى إنجلترا، كما يتذكران».

«ماذا أوردت نيبون تايمز أيضاً؟»، سأل بول زوجتَه.

«تسود الحيرة والترقّب، وحدات الجيش تتحرّك من مكان إلى مكان،

1- «كان لديّ رفيق سلاح»، وهي مرثيّة تقليديّة يغنّيها أفراد القوّات المسلّحة الألمانيّة، كُتِبَت عام 1809، وعنوانها الأصليّ هو «رفيق السلاح الصالح». المترجمة

الإجازات أُلغِيَت، المحطّات الحدوديّة أغْلِقَت، الرايخستاغ يعقد جلسة، والجميع يدلي بالخطابات».

«هذا يذكّرني بخطاب ممتاز سمعته من الدكتور غوبلز» قال روبرت تشلدن، «بثّه الراديو قبل سنة تقريباً، فيه الكثير من الذمّ الذكيّ. كعادته، حاز الدكتور غوبلز على اهتمام المستمعين جميعهم، وسخّر عواطفهم كلّها لمصلحته. إنّه الخطيب النازيّ رقم واحد الآن، بعد اختفاء أدولف هتلر من المشهد».

«صحيح»، وافقه كلٌّ من بول وبتي.

«الدكتور غوبلز لديه زوجة وأولاد رائعون» تابع تشلدن، «إنّهم عائلة راقية».

«صحيح» وافقه بول وبتي الرأي مجدّداً، «إنّه رجل يؤمن بالعائلة، على النقيض من العديد من أولئك المغوليّين الكبار هناك» أضاف بول، «المشكوك بأخلاقيّاتهم الجنسيّة».

«لا تصدّق الشائعات» قال تشلدن، «هل تشير إلى إي. رُويم وأمثاله؟! إنّه تاريخ عتيق، لقد أبعدوه منذ زمن طويل».

«بل أفكّر بإتش. غورنغ»، قال بول متأمّلاً وهو يرتشف شرابه ببطء، «تدور الشائعات عن احتفالات خياليّة باذخة على الطراز الرومانيّ... يقشعّر جسدي عندما أسمع عمّا يحصل فيها!».

«أكاذيب!»، قال تشلدن.

«حسناً، الموضوع لا يستحقّ النقاش» تدخّلت بتي بلباقة وهي ترمق الرجلين كليهما بنظرة معبّرة، ونهضت كي تملأ كؤوس الشراب الفارغة.

«النقاشات السياسيّة تثير الغضب دائماً أينما دارت» قال بول، «من المهمّ أن يحافظ المرء على رباطة جأشه».

«أجل» أجاب تشلدن، «لا بدّ من الحفاظ على الهدوء والنظام، كي تستقرّ الأوضاع مجدّداً».

«الفترة التي تلي موت قائد ما، هي فترة حاسمة بالنسبة للمجتمع الشموليّ» قال بول، «غياب التقاليد السياسيّة، ومؤسّسات الطبقة الوسطى...». صمتَ

فجأة، ثم أضاف: «من الأفضل ألّا نتناقش في السياسة، كما كنّا نفعل أيّام الدراسة»، وابتسم.

أحسّ روبرت تشلدن بوجنتيه تحمرّان، فانحنى على كوبه المليء كي يختبئ عن عيني مضيفه. يا لهذه البداية المروّعة التي بدأها! لقد جادله في السياسة بأسلوب صاخب أحمق، وتواقحَ بعدم موافقته على ما يقوله، ولولا فطنة مضيفته البارعة لخسر الفرصة. ما يزال أمامي الكثير ممّا أتعلّمه! فكّر، إنّهما راقيان ومهذّبان، أمّا أنا فبربريّ أبيض، هذا صحيح! واسى نفسه بارتشاف شرابه، راسماً على وجهه تعبيراً من البهجة المصطنعة. عليّ أن أتبع إشاراتهما بحذافيرها، قال لنفسه، وأن أوافقهما على كلّ ما يقولانه، من ثمّ فكّر مرتعباً: ذكائي يخونني بسبب الكحول والإرهاق والتوتّر. هل سأنجح؟ لن يقوما بدعوتي مرّة أخرى، لقد فات الأوان! وأصابه اليأس.

عادت بتي من المطبخ، وجلست مجدّداً على السجّادة. إنّها جذّابة للغاية، فكّر تشلدن مرّة أخرى. جسدها نحيل... كلاهما يتمتّعان بجسد جميل في الحقيقة! لا شحوم، لا طيّات، ولا يلزمها استعمال مشدّ أو حمّالة نهدين. عليّ أن أخفي اشتهائي لها بأيّ ثمن! مع ذلك، لم يستطع أن يمنع نفسه من استراق نظرة إليها بين حين وآخر. تدرّجات ألوان عينيها وبشرتها وشعرها قاتمة جميلة، نحن «نصف مخبوزين» بالمقارنة معهما، خرجنا من الفرن قبل أن ننضج كما يجب، خرافة السكّان الأصليّين تلك، تتحقّق هنا. عليّ أن أفكّر بشيء آخر، أن أتحدّث عن موضوع اجتماعيّ، أيّ شيء! شردت عيناه حوله بحثاً عن الإلهام، وخيّم صمت ثقيل فاقم توتّره إلى درجة الغليان. هذا لا يُحتَمَل! تباً! ماذا أقول؟! ما هو الموضوع الآمن؟! وعندها، لمح كتاباً موضوعاً على خزانة واطئة من خشب الساج.

«أرى أنّكما تقرآن الجندبَ يُستثْقَل» قال، «سمعتُ الكثيرين يتحدّثون عنه، لكنّ ضغط العمل منعني من الاطلاع عليه». وقف، وذهب كي يفحص الكتاب بعد أن استطلع ملامحهما بحذر، وتأكّد من أنّهما لا يمانعان محاولته بالتقرّب منهما. «هل هو لغز بوليسيّ؟ اعذرا جهلي المطبق» قال، وبدأ بتقليب الصفحات.

«كلّا، ليس لغزاً بوليسيّاً» أجابه بول، «بل على العكس، إنّه نمط ممتع من الأدب الخياليّ، ومن الممكن إدراجه ضمن الخيال العلميّ».

«آه لا!» خالفته بتي الرأي، «لا عِلَم فيه، ولا تدور أحداثه في المستقبل. الخيال العلميّ يهتمّ بقضايا المستقبل، خاصّة الزمن الذي يتقدّم فيه العلم عمّا هو عليه الآن. الكتاب لا يحقّق أيّاً من هذا!».

«ولكن» قال بول، «إنّه يتناول الواقع البديل، وهو نمط تتبعه العديد من روايات الخيال العلميّ المشهورة»، ثمّ شرح لروبرت: «اعذر إصراري على هذه النقطة، لكن كما تعرف زوجتي، كنتُ من هواة أدب الخيال العلميّ لوقت طويل. باشرتُ تلك الهواية في طفولتي الباكرة، منذ أن كنتُ في الثانية عشرة من عمري، في بدايات الحرب».

«فهمتكَ»، علّق روبرت تشلدن بتهذيب.

«هل تودّ قراءة الجندبَ يُستثْقَل؟» سأله بول، «سننتهي منه قريباً، خلال يوم تقريباً. مكتبي يقع في مركز المدينة، ولا يبعد كثيراً عن متجرك المرموق. يسعدني أن أوصل الكتاب لك أثناء استراحة الغداء»، وصمتَ، فظنّ تشلدن أنّ بتي قد غمزته، لكنّه أضاف: «بوسعنا أن نتناول الغداء آنذاك، أنا وأنت يا روبرت».

«شكراً لك»، وهو كلّ ما تمكّن روبرت من قوله. تناولُ الغداءِ في أحد المطاعم الفاخرة الموجودة في مركز المدينة، التي يرتادها رجال الأعمال، بصحبة هذا الياباني الشابّ العصريّ الرفيع المستوى... هذا كثير! زاغ بصر تشلدن، لكنّه استمرّ بتقليب صفحات الكتاب وهو يهزّ رأسه. «أجل» قال، «يبدو مشوّقاً. أودّ أن أقرأه، وسأحاول أن أفهم ما فيه». هل هي الإجابة الملائمة؟! أم إقرار بأنّ اهتمامه بالكتاب ناجم عن رواجه؟! لعلّها سوقيّة؟! لا يدري، مع ذلك أحسّ أنّ موقفه سيُفهم هكذا، فأضاف: «لا يمكن للمرء أن يحكم على كتاب ما بسبب رواجه. كلنّا يعلم أنّ العديد من الكتب التي حقّقت أفضل المبيعات، هي مجرّد قمامة رديئة. بأيّ حال، هذا الكتاب...»، ولم يعد يعرف ماذا يقول.

«صحيح تماماً» علّقت بتي، «الذائقة الشعبية مخزية».

«والذائقة الموسيقيّة أيضاً» قال بول، «لا أحد يهتمّ بموسيقا الجاز الأمريكيّة الشعبيّة الأصيلة على سبيل المثال. روبرت، هل أنت معجب بـ... لنقل، بَنْك جونسون، أو كِد أوري، وأمثالهما؟ هل أنت معجب بجاز ديكسيلاند[2] الباكر؟ لديّ مكتبة كاملة من التسجيلات الموسيقيّة القديمة، أسطوانات جِنِت[3] أصليّة».

أجابه روبرت: «أخشى أنّني لا أعرف إلّا القليل عن موسيقا الزنوج»، لكنّ جوابه لم يعجبهما على ما يبدو، لذلك أضاف: «أنا أفضّل الموسيقا الكلاسيكيّة، باخ وبتهوڤن». هذا مقبول بلا شكّ! أحسّ ببعض الامتعاض... هل يُفتَرض به أن يتنكّر لكبار الموسيقيّين الأوروبيّين العظماء، للكلاسيكيّات الخالدة، لمصلحة جاز نيو أورليانز الذي يُعزَف في مقاهي وملاهي ضواحي الزنوج؟!

«لِم لا أُسمِعك مجموعة من أغاني نيوأورليانز ريذم كينغز[4]؟» قال بول وهو يهمّ بالخروج من الغرفة، لكنّ بتي رمقته بنظرة محذّرة، فتردّد، وغيّر رأيه.

«العشاء جاهز تقريباً»، أعلنت.

عاد بول إلى مكانه، وجلس. ما يزال مستاء قليلاً، فكّر روبرت، فغمغم: «جاز نيو أورليانز هو أكثر أنماط الموسيقا الأمريكيّة الشعبيّة أصالةً، وُلِدَ على هذه القارّة، أمّا بقية أنواع الموسيقا فقد وصلتنا من أوروبا، كأغاني بالاد العود[5] المبتذلة ذات الطراز الإنجليزيّ».

2- Dixieland: نمط من موسيقا الجاز يشار إليه أحياناً بالجاز التقليديّ، يرتكز على الموسيقا التي تطوّرت في نيو أورليانز في بدايات الثلاثينيّات من القرن العشرين، واشتهر على يد فرقة Original Dixieland Jazz Band. المترجمة

3- Gennett Records: شركة تسجيلات موسيقيّة أمريكيّة، أصدرت أولى أسطواناتها عام 1917. المترجمة

4- New Orleans Rhythm Kings: أشهر فرقة جاز أمريكيّة خلال حقبة عشرينيّات القرن الماضي، ألهمت العديد من موسيقيّي الجاز اللّاحقين. المترجمة

5- البالاد هو شعر غنائيّ يروي قصّة ما بمصاحبة الموسيقا، وله أنواع عديدة، نال شعبيّة واسعة في إنجلترا وإيرلندا خلال القرون الوسطى. المترجمة

«إنّه جدال أبديّ بيني وبينه» علّقت بتي مبتسمة، وهي توجّه كلامها إلى روبرت. «أنا لا أشاطره حبّه للجاز الأصيل».

«ما هو الواقع البديل الذي يصفه هذا الكتاب؟» سأل روبرت، ورواية الجندب يُستثقَل ما تزال بين يديه.

«واقع بديل تخسر فيه ألمانيا واليابان الحرب»، أجابته بتي بعد لحظة، فصمتوا جميعهم.

«حان وقت الطعام» أعلنت بتي وهي تنهض، «اتبعاني من فضلكما أيّها السيّدان رجلا الأعمال الجائعان»، وقادت بول وروبرت إلى طاولة السفرة التي أعدّتها لتوّها، وفرشتها بمفرش أبيض، ورتّبت عليها الأدوات الفضيّة والخزف الصينيّ، وفوطاً كبيرة خشنة موضوعة ضمن ما اكتشف روبرت أنّها حلقات مصنوعة من العظام، تعود إلى حقبة الثقافة الأمريكيّة الباكرة. أدوات المائدة مصنوعة من الفضّة الأمريكيّة الخالصة، من ماركة أمِريكان، أمّا الفناجين وصحونها فمن ماركة رويال ألبرت، كحليّة وصفراء اللون. إنّها قطع غير عاديّة! وتأمّلها بإعجاب الخبير. الأطباق ليست أمريكيّة الصنع، بل يابانيّة على ما يبدو... لا يعرف بالضبط، لأنّه لا يتعامل بها.

«إنّه بورسلان إيماري» قال بول وقد انتبه إلى فضول روبرت، «من آريتا. إنّه مُنتَج من النخب الأوّل في اليابان».

من ثمّ، جلسوا كلّهم.

«قهوة؟»، وجّهت بتي سؤالها إلى روبرت.

« أجل، شكراً لكِ»

«في نهاية الوجبة»، قالت وهي تذهب لإحضار العربة المحمّلة بالمأكولات.

بدأوا بتناول الطعام، الذي وجده روبرت لذيذاً، بتي طبّاخة بارعة! أعجبته السلَطة بشكل خاصّ: أفوكادو وقلوب الأرضي شوكي، مع تتبيلة الجبنة الزرقاء. حمداً لله أنّهما لم يقدما له وجبة يابانيّة، من تلك الأطباق التي تجمع اللحوم والخضروات –والتي اعتاد على تناولها منذ بداية الحرب– أو تلك الأطعمة البحريّة الأبديّة. إنّه يتناولها طيلة الوقت، ولم يعد يطيق رؤية القِ يدس ولا القشريّات الأخرى.

«أودّ لو أعرف» قال، «كيف يتصوّر الكاتب العالَم لو خسرت ألمانيا واليابان الحرب». لم يردّ أيٌّ من الزوجين، من ثمّ أجابه بول أخيراً: «الاختلافات شديدة التعقيد. لن أفسد عليك متعة الكتاب بسرد ما يقوله، الأفضل أن تقرأه بنفسك».

«لديّ قناعاتي الراسخة حول هذا الموضوع» قال روبرت، «وكثيراً ما فكّرتُ به. سيكون العالَم أسوأ». كان صوته قويّاً، وفظّاً. «أسوأ بكثير»، أضاف.

بدت الدهشة على مضيفيه، لعلّ نبرته هي السبب.

«لأنّ الشيوعيّة ستكتسح العالم»، قال.

هزّ بول رأسه موافقاً، وقال: «الكاتب، السيّد إتش. أبندسن، فكّر بتلك النقطة أيضاً، أي بتوسّع روسيا السوفياتيّة التي لا يردعها أحد، ولكن... كما حصل في الحرب العالميّة الأولى -وعلى الرغم من أنّها تنتصر في الرواية- تنهار روسيا المتخلّفة المكوّنة بمعظمها من الفلّاحين، وتصبح أضحوكة. تذكّر حربها مع اليابانيّين، عندما...».

«توجّب علينا أن نعاني وأن ندفع الثمن» قال روبرت، «لكنّ هدفنا كان نبيلاً، وهو أن نمنع السلافيّين من اجتياح العالم».

قالت بتي بصوت خافت: «أنا شخصيّاً لا أصدّق ذلك الخطاب الهستيريّ عن اجتياح العالم من قبل أيّ شعب، سواء السلافيّون أم الصينيّون أم اليابانيّون»، ورمقت روبرت بهدوء. إنها تسيطر تماماً على نفسها، ولم تجرفها عواطفها، بل حاولت أن تعبّر عمّا تحسّ به فقط، لكنّ وجنتيها تضرّجتا بالحمرة القانية.

تناولوا الطعام بصمت، دون أن يتبادلوا الأحاديث لفترة.

لقد فعلتُها مجدّداً! قال روبرت لنفسه، من المستحيل تجنّب هذا الموضوع، لأنّه في كلّ مكان، سواء في الكتاب الذي أمسكتُه بالصدفة، أو في مجموعة أسطوانات موسيقيّة، أو في حلقات فوط المائدة المصنوعة من العظام، التي غنمها الغزاة وسرقوها من شعبي. واجِه الحقيقة: أنا أدّعي أنّنا نشبه بعضنا بعضاً، أنا وهذان اليابانيّان، لكننّا لم نجد قاسماً مشتركاً بيننا، حتّى عندما عبّرتُ عن سعادتي لأنّ اليابان ربحت الحربَ التي خسرتها

بلادي. ما تعنيه الكلماتُ بالنسبة لي، يتناقض تناقضاً صارخاً مع ما تعنيه لهما. دماغهما مختلفان، وروحاهما أيضاً. انظر إليهما يحتسيان الشراب من كؤوس إنجليزيّة مصنوعة من الخزف الصينيّ، ويأكلان بأدوات من الفضّة الأمريكيّة، ويستمعان إلى موسيقا الزنوج... كلّ هذا مجرّد ادّعاء، زيف محض، نتاج للثروة والسلطة اللتين تتيحان ذلك لهما... حتّى الآي-تشنغ الذي فرضه اليابانيّون علينا: إنّه ابتكار صينيّ، أخذه اليابانيّون عن الصينيّين منذ زمن طويل عندما... من يخدعون باعتقادهم؟! أنفسهم؟! يسرقون العادات من هنا وهناك، كيف يلبسون وكيف يأكلون ويتحدّثون ويمشون... يتلذّذون بالبطاطا المخبوزة مع صلصلة الكريمة الحامضة والكرّاث، علماً أنّها طبق أمريكيّ تقليديّ يُضاف إلى سرقاتهم. إنّهم عاجزون عن خداع أحد، أنا متأكّد، إنّهم عاجزون عن خداعي أنا على الأقلّ، من بين الناس جميعهم.

الأعراق البيضاء وحدها تملك موهبة الابتكار، فكّر، وأنا الذي أنتمي إلى هذا العرق، أجد نفسي مضطرّاً للانحناء حتّى الأرض أمام هذين الاثنين! لو ربحنا الحرب، لاختلف العالَم اختلافاً جذريّاً! كنّا سنسحقهم ونبيدهم، كنّا سنمحو اليابان عن وجه الأرض، وبذلك تبقى الولايات المتّحدة الأمريكيّة القوّةَ العظمى الوحيدة في الكوكب بأسره! لا بدّ لي من قراءة كتاب الجندب ذاك، إنّه واجب وطنيّ، كما يوحي عنوانه!

أيقظته بتي بلطف من تأمّلاته: «روبـرت! لِمَ لا تأكل؟ ألم يعجبك الطعام؟!».

تناول روبرت تشلدن لقمة من السلطة على الفور، وأجابها: «كلّا على العكس، إنّها أشهى وجبة تناولتُها منذ سنوات».

«شكراً لكَ» قالت وقد سرّت بمجاملته، «أنا أبذل ما في وسعي على صعيد الأصالة... أنا أتسوّق على سبيل المثال من الدكاكين الأمريكيّة الصغيرة جدّاً في شارع ميشن، لأنّ ابن البلد الأصيل يقوم بذلك كما فهمتُ».

أنتِ تتقنين طهي الطعام المحليّ، فكّر روبرت تشلدن، ما يقولونه صحيح، مقدرتكم هائلة أيّها اليابانيّون على التقليد: فطيرة التفّاح، الكوكا كولا، التنزّه

بعد مشاهدة فيلم في السينما، غلِن ميللر[6]... يمكنكم أن تشيّدوا قارّةً أمريكيّةً صنعيّةً كاملة، انطلاقاً من الصفيح وورق الأرزّ[7]... أمُّ ورقِ الأرزّ في المطبخ، أبو ورقِ الأرزّ يقرأ الجريدة، جرو ورقِ الأرزّ نائم عند قدميه... كلّ شيء.

راقبه بول بصمت. تشلدن، وقد أحسّ بانتباه الياباني يتركّز عليه، قطع تأمّلاته واستأنف تناول طعامه. هل يمكنه أن يقرأ أفكاري؟ تساءل، وأن يعرف بماذا أفكّر حقّاً؟ أنا متأكّد أنّ ملامحي لم تفضحني، يستحيل أن يعرف!

«روبـرت!» خاطبه بول، «بما أنّك ولـدتَ وترعرتَ هنا، وتعرف المصطلحات الأمريكيّة، هل تساعدني بقراءة كتاب صعب؟ رواية ألّفها كاتب أمريكيّ في حقبة الثلاثينيّات».

أحنى روبرت رأسه قليلاً.

«الكتاب» تابع بول، «نادر جدّاً، لكنّني أملك نسخة منه. ألّفه ناثانيال ويست، وعنوانه الآنسة لونليهرتس. استمتعتُ بقراءته، لكنّني لم أفهم ما يريد ناثانيال ويست قوله بالضبط»، ونظر بلهفة إلى روبرت الذي ردّ فوراً: «أخشى أنّني لم أقرأ هذا الكتاب قط». في الحقيقة، لم يسمع به مطلقاً.

ظهرت الخيبة على وجه بول. «يا للأسف!» قال، «إنّه كتاب صغير، يروي قصّة رجل يكتب عموداً يوميّاً في الصحيفة، ويراسله القرّاء باستمرار كي يستشيروه بمشاكلهم المؤلمة الحزينة. في النهاية، يدفعه الألم الذي يشعر به إلى الجنون، فيتوهّم أنّه يسوع المسيح. هل تذكّرتَه؟! لعلّك قرأتَه منذ زمن طويل؟».

6- Glenn Miller (1904–1944): عازف ترومبيت ومؤلّف موسيقيّ أميركيّ شهير، قاد فرقته الخاصّة في حقبة موسيقا السوينغ، وحصدت أسطواناته أفضل المبيعات من عام 1939 إلى 1942. تطوّع بالانضمام إلى الجيش الأمريكيّ أثناء الحرب العالميّة الثانية كي يقدّم عروضاً ترفيهيّة للجنود، لكنّ الطائرة التي كانت تقلّه اختفت دون أثر فوق القنال الإنجليزيّ عام 1944. المترجمة

7- أوراق الأرزّ تندرج ضمن فئتين إجمالاً، فئة تُصنَع من لبّ نبتة الأرزّ ونباتات أخرى كالكتان، وتُستَخدم للكتابة والفنون، وفئة أخرى أشبه بالرقائق صالحة للأكل، مصنوعة من حبيبات الأرزّ وموادّ أخرى أحياناً، وتستعمل لصنع لفائف الأرزّ في المطبخ الآسيويّ التقليديّ. المترجمة

«كلّا»، أجابه روبرت.

«إنّه يطرح وجهة نظر غريبة حول المعاناة» قال بول، «كما يقدّم رأياً أصيلاً عن مغزى المعاناة دون سبب، وهي مشكلة تناولتها كلّ الأديان. الأديان، كالمسيحيّة مثلاً، تعلن أنّ الخطيئة هي سبب المعاناة، ويبدو لي أنّ ناثانيال ويست يؤكّد على وجهة النظر العتيقة هذه. لعلّه عانى دون طائل، لأنّه يهوديّ».

«لو أنّ ألمانيا واليابان خسرتا الحرب» قال روبرت، «لحكم اليهودُ عالَم اليوم، من خلال وول ستريت وموسكو».

بدا اليابانيّان كلاهما، الزوج والزوجة، كأنّهما ينكمشان، ويبهتان، ويبردان، وينطويان على نفسيهما. حتّى الغرفة بحدّ ذاتها أصبحت باردة، وشعر روبرت تشلدن بأنّه وحيد، يأكل بمفرده لا بصحبتهما. ما الذي اقترفه؟! ما الذي أساءا فهمه؟! إنّهما عاجزان عن فهم الفكر الغربيّ، بسبب غبائهما الذي يحول بينهما وبين إتقان اللغة الأجنبيّة، ولذلك امتعضا. يا لها من مأساة! فكّر تشلدن وهو يتابع تناول طعامه، لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟!

لا بدّ أن يتمسّك بوضوح أفكاره السابق -ولو أنّه لم يدم إلّا لحظة- بكلّ ما تعنيه، بكلّ أبعادها التي لم يدركها من قبل. لم يشعر بالذنب كما حدث قبل لحظات، لأنّ الحلم السخيف الذي يغشّي عقله بدأ يتلاشى. لقد جئتُ إلى هنا مفعماً بالأمل، فكّر، شوّشتني الرومانسيّة الضبابيّة الأشبه بالمراهقة وأنا أصعد الدرج، لكنّ تجاهل الواقع مستحيل، لا بدّ أن ننضج! الخدعة الصارخة موجودة أمامي مباشرة: هذان الاثنان ليسا كائنين بشريّين، إنّهما يلبسان ملابس البشر، لكنّهما أشبه بالقرود المُدرَّبة في سيرك: ذكيّة، وبوسعها أن تتعلّم، لا أكثر. لماذا أسعى إلى إرضائهما؟! لمجرّد أنّ اليابان انتصرت؟! هذا اللقاء كشف لي عن عيب كبير في شخصيّتي، ولكن... أنا هكذا! أنا أعاني من ميل دائم مثير للشفقة إلى... حسناً، لأقل: إلى اختيار أهون الشرّين، وأنا أهرول إلى خياري دون تفكير، كبقرة تلمح العلف. أنا أحاول أن أجاري المشاعر الظاهريّة لا أكثر، لأنّ هذا أكثر أماناً، فهذان اليابانيّان في نهاية المطاف هما من انتصر في الحرب، وهما من استلم زمام

القيادة... سأستمرّ بالقيام بذلك كما أظنّ، لأنّه... لماذا أصرّ على تعذيب نفسي؟! لقد قرآ كتاباً، رواية أمريكيّة، ويريدان أن أشرحها لهما، آملَين أن يجدا عندي، أنا الرجل الأبيض، جواباً. هل أحاول؟! لا أستطيع، على الرغم من أنّني قادر على ذلك بمجرّد أن أقرأ الكتاب.

«لربّما ألقي نظرة ذات يوم على كتاب الآنسة لونليهرتس» قال لبول، «من ثمّ أشرح لك أهميّته».

هزّ بول رأسه.

«بأيّ حال، أنا مشغول جدّاً بالعمل حاليّاً» أضاف روبرت، «ربّما لاحقاً. أنا واثق أنّ الرواية لن تأخذ منّي وقتاً طويلاً».

«كلّا» أجاب بول، «إنّها قصيرة جدّاً». يبدوان حزينَين، هو وبتي، فكّر روبرت، وتساءل إن كانا قد شعرا بدورهما بتلك الهوّة التي لا يمكن ردمها ما بينهم. آمل ذلك، قال لنفسه، إنّهما يستحقّان ذلك! يا للأسف، عليهما أن يتوصّلا إلى مغزى الكتاب بمفردهما.

في تلك اللحظة، بدأ يأكل باستمتاع أكبر.

لم يعكّر صفو الأمسية أيّ توتّر آخر، وعندما غادر روبرت شقّة آل كاسورا في الساعة العاشرة، رافقه الشعور ذاته بالثقة بالنفس الذي غمره أثناء تناول العشاء.

نزل على درج البناء من دون أن يكترث لنظرات السكّان اليابانيّين الذين رأوه أثناء ذهابهم إلى الحمّامات المشتركة، أو عودتهم منها. خرج إلى الرصيف في عتمة الليل، وأوقف درّاجة ثلاثيّة عابرة، وها هو الآن في طريق عودته إلى منزله.

لطالما تساءلتُ كيف سيبدو اللقاء بالزبائن خارج إطار العمل، ليس سيّئاً في نهاية المطاف، فكّر، وقد تفيدني هذه التجربة في عملي. اللقاء مع الأشخاص الذين يخيفونك، هو نوع من العلاج، لأنّ خوفك مهم سيتلاشى ما أن تكتشف حقيقتهم.

غائصاً في أفكاره تلك، وصل إلى حيّه، من ثمّ إلى باب البناء الذي يقطن فيه. دفع أجرة السائق الصينيّ، ونزل على الدرج المألوف بالنسبة له... ولكن،

في غرفة جلوسه، وجد رجلاً غريباً! رجلاً أبيض يرتدي معطفاً، يجلس على الأريكة وهو يقرأ صحيفة! وقف روبرت تشلدن مشدوهاً عند العتبة، فوضع الرجل الصحيفة من يده، وقام متكاسلاً. مدّ يده إلى جيب داخليّ في معطفه، وسحب محفظة عرضها على روبرت.

«كمبيتاي»

إنّه بينوكسيّ، موظّفٌ في ساكرامنتو، ويعمل مع الكمبيتاي، أي مع البوليس العسكريّ التابع لسلطات الاحتلال اليابانيّة.

هذا مخيف!

«هل أنتَ روبرت تشلدن؟»

«أجل سيّدي» أجاب تشلدن، وقلبه يخفق.

«مؤخّراً» قال الشرطيّ وهو يقلّب مجموعة من الأوراق، أخرجها من حقيبة موضوعة على الأريكة، «زارك رجل أبيض، ادّعى بأنّه يمثّل ضابطاً في البحريّة الإمبراطوريّة. التحقيقات اللّاحقة بيّنت أنّه كاذب، وأنّ السفينة المذكورة والضابط الياباني وهميّان». رمق تشلدن بنظرة.

«صحيح»، قال تشلدن.

«وردنا تقرير» تابع الشرطيّ، «عن احتيال يدور في خليج سان فرانسيسكو، وهذا الرجل متورّط فيه على ما يبدو. صِفه لي».

«ضئيل، وبشرته أميل إلى الداكنة»

«يهوديّ؟»

«أجل!» قال تشلدن، «الآن فقط أدركتُ ذلك، ما أن لفتّ نظري! فاتتني هذه الملاحظة آنذاك».

«هاك صورة له»، وناوله رجلُ الكمبيتاي صورة فوتوغرافيّة.

«إنّه هو!» قال تشلدن، وهو متأكّد من ذلك مئة في المئة. أرهبته قدرة الكمبيتاي على اكتشاف ما يحدث. «هل عثرتم عليه؟ أنا لم أبلّغ عنه، لكنّني هاتفتُ المورِّد راي كالڤن، وأخبرته بأنّ...».

أشار له الشرطي بأن يصمت، وقال: «أريد منك أن توقّع على هذا التقرير، وهذا كلّ شيء. لا يتوجّب عليك المثول أمام المحكمة، مسؤوليّتك القانونيّة

تنتهي هنا»، وناول تشلدن ورقةً وقلماً. «مكتوب هنا أن ذلك الرجل تواصل معك، وحاول أن يخدعك بانتحال شخصيّة زائفة... إلخ. اقرأها». شمّر الشرطي عن معصمه كي يلقي نظرة على ساعته، ريثما يقرأ تشلدن التقرير، من ثمّ سأله: «هل المعلومات صحيحة مبدئيّاً؟».

إنّها كذلك، لكن لم يتسنّ لتشلدن وقتٌ كافٍ كي يتمعّن فيها، فضلاً عن أنّه مشوّش قليلاً بسبب مجريات يومه. لقد انتحل الرجل شخصيّة زائفة، وهو متورّط باحتيال ما، كما أنّه يهوديّ وفقاً لما يقوله هذا الشرطيّ. ألقى نظرة خاطفة على الاسم المكتوب تحت صورة الرجل: فرانك فرينك، واسمه بالولادة فرانك فينك. أجل، إنّه يهوديّ بكلّ تأكيد، أيُّ شخص سيحزر ذلك بمجرّد النظر إلى كنية كـ«فينك»، فضلاً عن قيامه بتغييرها.

وقّع تشلدن على التقرير.

«شكراً» قال الشرطيّ، ثمّ لملم أشياءه، ولمس قبعته متمنيّاً لتشلدن ليلة سعيدة، وغادر. المسألة برمّتها لم تستغرق سوى لحظات!

أعتقد أنّهم نالوا منه، فكّر تشلدن، أيّاً كان ما يخطّط له. شعر بالراحة المطلقة، لأنّ الشرطة تعمل بسرعة. حسناً، نحن نعيش في مجتمع القانون والنظام، حيث لا يمكن لليهود أن يتحايلوا على الأبرياء، نحن نحظى بالحماية هنا. لا أدري لماذا لم أميّز صفاته العِرقيّة بمجرّد أن وقع بصري عليه! من الواضح أنّني أُخدَع بسهولة... أنا عديم الحيلة لأنّني ببساطة غير قادر على خداع الآخرين، ولولا القانون لوقعتُ تحت رحمة المحتالين. كان بمقدور ذلك المحتال أن يقنعني بأيّ شيء! إنّه نوع من التنويم المغناطيسيّ، بوسعهم أن يتحكّموا بمجتمعنا بأكمله!

سأشتري كتاب الجندب غداً، قال لنفسه، من الممتع أن أعرف كيف يتخيّل كاتبه عالَماً يحكمه اليهود والشيوعيّون، ويتعرّض فيه الرايخ للدمار، وتصبح اليابان إقليماً روسيّاً بلا شكّ. كيف سيبدو العالَم، إن حكمته روسيا من المحيط الأطلسيّ إلى المحيط الهادئ؟! أتساءل إن توقّع الكاتب... ما اسمه؟ حرباً بين روسيا والولايات المتّحدة الأمريكيّة؟ إنّه كتاب مثير للفضول، لِمَ لم يفكّر أحد بتأليفه من قبل؟!

من ثمّ فكّر: لا شكّ بأنّه سيساعدنا على الاقتناع بأنّنا محظوظون. أوضاعنا ستكون أسوأ لو هُزِمَت ألمانيا واليابان، على الرغم من منغّصاتنا العديدة حاليّاً. هذا الكتاب يقدّم عبرة أخلاقيّة عظيمة! أجل، اليابانيّون يحكموننا، لكن علينا أن نبني، ومن هذا الوضع سنخلق إنجازات عظيمة، كاستعمار الكواكب!

لا بدّ أنّهم يبثّون نشرة إخباريّة الآن، ولعلّهم عيّنوا مستشاراً جديداً للرايخ! فكّر وهو يجلس. شغّل الراديو، وقد غمره الحماس والترقّب. بالنسبة لي، قال لنفسه، سيس إنكورت هو الرجل الأكثر ديناميكيّة بين المرشّحين، وهو غالباً من سينفّذ تلك البرامج الجريئة.

أتمنّى لو أنّني هناك! لربّما أصبح ثريّاً بما يكفي ذات يوم كي أزور أوروبا، وأشاهد كلّ ما أنجزوه فيها. من المؤسف أنّ الأحداث تفوتني، أنا عالق هنا على الساحل الغربيّ حيث لا يحدث شيء، بل يمرّ بنا التاريخ مروراً عابراً، لا أكثر.

***

-8-

في الثامنة صباحاً، نزل الفرايهر هوغو ريس -قنصلُ الرايخ في سان فرانسيسكو- من سيّارة مرسيدس بنز E-220، وصعد درج مبنى القنصليّة بسرعة، وخلفه شابّان من موظّفي وزارة الخارجيّة. فتح الموظّفون له الباب، فدخل رافعاً يده في تحية لعاملتي مقسم الهاتف، ونائبه هر فرانك، ومن ثمّ حيّا سكرتيره هر بفِردِهوف في المكتب الداخليّ.

«فرايهر» قال بفِردِهوف، «وصلتنا للتوّ برقيّة لاسلكيّة مُشَفَّرة من برلين، هذا أوّلاً».

خلع القنصل معطفه، وناوله لبفِردِهوف كي يعلّقه.

«اتّصل هر كروز ڤوم مير قبل عشر دقائق، وطلب أن تعاود الاتّصال به».

«شكراً لك»، قال ريس، ثمّ جلس إلى المنضدة الصغيرة الموضوعة تحت شبّاك مكتبه، ورفع الغطاء عن طبق إفطاره، فوجد أمامه لفافة، وبيضاً مخفوقاً، وسجقاً. صبّ فنجاناً من القهوة السوداء الساخنة من الإبريق الفضيّ، ثمّ تناول صحيفة الصباح. المتّصل، كروز ڤوم مير، هو رئيس شعبة الاستخبارات النازيّة في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، ومقرّه في المطار تحت مسمّى وهميّ. العلاقات بين الرجلين متوتّرة، لأنّ صلاحيّاتهما تصادمت في قضايا لا حصر لها، وهي بلا ريب سياسة متعمّدة من ذوي النفوذ في برلين، خاصّة أنّ ريس يتولّى منصباً فخريّاً في الشوتزشتافل برتبة رائد، ممّا يجعله تقنيّاً خاضعاً لكروز ڤوم مير. مُنِح ذلك المنصب قبل سنوات عديدة، وأدرك الغاية منه آنذاك، لكنّه كان عاجزاً عن فعل أيّ شيء، وما يزال منزعجاً بسببه.

الصحيفة التي تُنقَل باللوفتهانزا، وتصل إلى مكتبه في الساعة السادسة صباحاً، هي جريدة فرانكفورتر زيتنغ. قرأ ريس الصفحة الأولى بعناية: ڤون شيراخ قيد الإقامة الجبريّة في منزله -وربّما تمّت تصفيته بحلول هذا الوقت- مؤسفٌ للغاية! غورنغ يتحصّن في قاعدة تدريب تابعة لسلاح الجوّ، محاطاً بالمحاربين القدماء المحترفين، وجميعهم مخلصون له. لن يجرؤ أحد على الاقتراب منه، ولا حتّى من ينفّذون المهمّات القذرة لمصلحة جهاز أمن الرايخ. ماذا عن الدكتور غوبلز؟! لعلّه يتوارى في أعماق برلين الآن، وهو يعوّل كعادته على فطنته وقدرته على إنقاذ نفسه من خلال الحوار. إن أرسل هايدريش فرقة كي تغتاله، فكّر ريس، لن يقنع غوبلز أفرادها بتركه حيّاً فحسب، بل بالتخلّي عن ولائهم لهايدريش كذلك، من ثمّ يوظّفهم في وزارة البروباغاندا والتنوير الشعبيّ.

تخيّل الدكتورَ غوبلز جالساً في هذه اللحظات في شقّة ممثّلة سينمائيّة فاتنة، مزدرياً وحدات القوّات المسلّحة التي تمشطّ الشوارع. لا شيء يخيف ذلك الرجل! لا بدّ أنّه سيبتسم ابتسامته الساخرة تلك، ويداعب مؤخّرة السيّدة الجميلة بيده اليسرى، بينما يكتب باليمنى مقاله اليوميّ الهجوميّ على...

قاطعه سكرتيره الذي قرع الباب، وقال: «عذراً! كروز ڤوم مير يتّصل بك مرّة أخرى».

قام ريس، والتقط سمّاعة الهاتف الموضوع على طاولة مكتبه: «ريس يتكلّم»، فسمع صوت رئيس شعبة الاستخبارات المحليّة يسأله بلكنته الباڤاريّة الثقيلة: «هل من أنباء عن رجلِ الاستخبارات العسكريّة؟».

احتار ريس، وحاول أن يحزر من الرجل الذي يقصده ڤوم مير بالضبط. «اممم! هناك حسب معلوماتي ثلاثة أو أربعة عملاء من عملاء الاستخبارات العسكريّة، متواجدون حاليّاً على الساحل الباسيفيكيّ»، غمغم.

«الرجل الذي جاء في الأسبوع الماضي برحلة اللوفتهانزا».

«آها» قال ريس، وأسند السمّاعة بين ذقنه وكتفه ثمّ تناول علبة السجائر. «لم يأتِ إلى هنا قط».

«ماذا يفعل إذن؟!»

«يا إلهي! لا أعرف، اسأل كاناريس»

«أودّ لو أتّصل بوزارة الخارجيّة، كي أطلب منهم الاتّصال بمكتب مستشاريّة الرايخ، كي يجعلوا المسؤول هناك -أيّاً كان- يتّصل مع سلاح البحريّة، ويطلب منهم أن يأمروا الاستخبارات العسكريّة إمّا بسحب رجالهم من هنا، أو بإعطائنا تقريراً مفصّلاً عن سبب تواجدهم».

«ألا يمكنك ذلك؟»

«الأوضاع فوضويّة»

لقد أضاعوا أثر العميل تماماً! استنتج ريس. أحد موظّفي هايدريش طلب من رجال ڤوم مير في شعبة الاستخبارات المحليّة هنا، أن يبقوا أعينهم على العميل، لكنّهم فقدوا صلة الوصل معه، والآن يريدون منّي إنقاذهم!، فكّر.

«إن مرّ بنا» قال، «سأكلّف شخصاً ما بمراقبته. ثِق بي»، قال. احتمال أن يمر العميل بالقنصلية ضعيف إلى منعدم، وكلا الرجلين يدركان ذلك.

«إنّه يستخدم اسماً مستعاراً بلا شكّ» قال كروز ڤوم مير ببطء، «ونحن نجهله بطبيعة الحال. إنّه رجل أرستقراطيّ الملامح، في حوالي الأربعين من عمره، وهو برتبة كابتن. اسمه الحقيقيّ رودولف ڤيغنر، ينتمي بالولادة إلى تلك العائلات النبيلة القديمة في شرقي بروسيا، ولعلّه ناصر ڤون بابن على الأرجح إبّان تولّيه منصب المستشار».

جلس ريس على نحو مريح، بينما تابع ڤوم مير كلامه: «الردّ الوحيد برأيي على بقايا النبلاء هؤلاء، هو إيقاف تمويل البحريّة، بحيث لا يعود بإمكانهم توظيف...».

استطاع ريس أخيراً أن ينهي المكالمة، فعاد إلى تناول إفطاره. لقد بردت اللفافة، لكنّ القهوة ما تزال ساخنة، فشربها، واستأنف قراءة الصحيفة. هذا لا ينتهي! فكّر، رجال جهاز الاستخبارات يعملون ليل نهار، ولا يتورّعون عن الاتّصال في الثالثة فجراً!

مدّ السكرتير بِفردِهوف رأسه من الباب، كي يعرف ما إذا انتهت المكالمة، وقال لريس: «اتّصلوا بك للتوّ من ساكرامنتو، وقد أصابهم الهلع! يدّعون أنّ هناك يهودياً طليقاً يجوب شوارع سان فرانسيسكو!»، فضحكا كلاهما.

«حسناً» قال ريس، «قل لهم أن يهدؤوا، وأن يرسلوا الأوراق المطلوبة. هل من شيء آخر؟».

«هل قرأت رسائل التعازي؟»

«هل وردنا المزيد منها؟»

«بضع رسائل فقط. سأحتفظ بها في مكتبي إن أردت الاطلاع عليها، لقد أرسلتُ الردود لتوّي».

«عليّ أن أدلي بخطاب اليوم» قال ريس، «في الساعة الواحدة، أثناء الاجتماع مع رجال الأعمال أولئك».

«سأذكّرك به»، قال بفِردِهوف.

أسند ريس ظهره إلى كرسيّه، وقال: «ما رأيك أن نتراهن؟».

«لن نتراهن على خيارات الحزب، إن كان ذلك ما تقصده»

«سيختارون الجلّاد[1]»

قال بفِردِهوف ببطء: «لقد وصل هايدريش إلى أقصى ما يستطيع تحقيقه. لا ينجح أمثاله بالحصول على موقع قياديّ في الحزب، لأنّ الجميع يخافونهم. سيصاب كبارُ مسؤولي الحزب بالذعر لمجرّد التفكير بتلك الفكرة، وسيشكّلون تحالفاً في غضون خمس وعشرين دقيقة، بمجرّد أن تنطلق أوّل سيّارة من سيّارات الشوتزشتافل من شارع برنس ألبريخت، وسيضمّون إلى صفوفهم كلّ عمالقة الاقتصاد، مثل كرَب وتايسن...»، لكنّه قطع كلامه فجأة، فقد جاء أحد محلّلي الشيفرات إليه حاملاً مغلّفاً. مدّ ريس يده، وأخذ المغلّف من سكرتيره. بداخله، توجد البرقيّة اللّاسلكيّة العاجلة، بعد أن فُكّت رموزها وطُبِعَت. ظلّ بفِردِهوف واقفاً، بانتظار أن يسمع ماذا جاء فيها. عندما انتهى ريس من قراءتها، كوّرها ورماها في منفضة السجائر الخزفيّة الكبيرة، ثمّ أضرم النار فيها بولّاعته، وقال: «هناك جنرال ياباني متخفٍ سيأتي سرّاً إلى سان فرانسيسكو، اسمه تِديكي. من الأفضل

1- المقصود هو رينهارد هايدريش (1904-1942)، الذي لُقِّب بجلّاد هتلر، وجزّار براغ. المترجمة

أن تذهب إلى المكتبة العموميّة، وتجلب إحدى تلك المجلّات العسكريّة اليابانيّة الرسميّة التي تنشر صور القادة. قم بذلك سرّاً بالطبع... لا أظنّ أنّنا نملك عنه معلومات هنا». قام، واتّجه صوب خزانة الملفّات المغلقة، ثمّ غيّر رأيه. «ابحث عن أيّة معلومات تجدها، أو إحصائيّات... لا بدّ أنّها متوافرة في المكتبة. هذا الجنرال تديكي كان قائداً في القوّات المسلّحة قبل سنوات، هل تتذكّره؟!».

«أتذكّر القليل عنه فحسب» أجاب بفِردِهوف، «رجل سريع الغضب، ولا بدّ أنّه في الثمانينيّات من عمره الآن. أظنّ أنّه روّج لخطّة إسعافيّة، تهدف إلى إطلاق البرنامج الفضائيّ الياباني».

«لقد فشل بذلك».

«أعتقد أنّه قادم إلى هنا لأسباب طبيّة»، قال بفِردِهوف، «العديد من العسكريّين اليابانيّين العجائز يأتون إلى هنا، لدخول مستشفى جامعة كاليفورنيا الكبير، حيث يستفيدون من التقنيات الجراحيّة الألمانيّة التي لا تتوافر في بلدهم. يتكتّمون عادة على هذا الموضوع، لأسباب تتعلّق بالوطنيّة كما تعلم. بالتالي، الأجدر بنا أن نرسل شخصاً إلى المستشفى، إن كانوا يريدون منّا إبقاء أعيننا عليه».

هزّ ريس رأسه موافقاً. لعلّ الجنرال العجوز متورّط في صفقة تجاريّة، من تلك الصفقات التي يُعقَد الكثير منها حاليّاً في سان فرانسيسكو، فالصلات التي كوّنها أثناء خدمته العسكريّة ستنفعه الآن لا ريب بعد أن تقاعد... هل هو متقاعد أم لا؟! ورد في البرقيّة المشفّرة «الجنرال»، وليس «الجنرال المتقاعد».

«عندما تحصل على صورته» قال لسكرتيرته، «وزِّع نسخاً منها على رجالنا في المطار وفي الميناء. لعلّه وصل منذ فترة، وأنت تعلم كيف يتأخّرون بإبلاغنا بمعلومات كهذه من برلين». إن سبق للجنرال الوصول إلى سان فرانسيسكو، سيثور غضب رؤسائه بلا ريب، إذ يُفترَض بالقنصليّة النازيّة في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، أن تكتشف وجوده قبل أن تتلقّى الأمر بذلك.

«سأختم بتاريخ اليوم على البرقيّة المشفّرة الواردة من برلين، وإن طرحوا الأسئلة لاحقاً، سنريهم متى وصلتنا باليوم والساعة بالضبط»، قال بفِردِهوف.

«شكراً لك»، قال ريس. أولئك الأشخاص في برلين ضليعون بإزاحة المسؤوليّة عن عاتقهم وإلقائها على الآخرين، ولقد سئم هو شخصيّاً الوقوعَ في مصيدتهم كما حصل كثيراً في السابق. «لن نخاطر» قال لسكرتيره، «الأفضل أن تردّ على تلك البرقية. قل: وصلت تعليماتكم متأخّرة للغاية، فقد تمّ إبلاغنا عن وجود الشخص المطلوب في المنطقة، واحتمال أن ننجح في تعقبّه حالياً هو احتمال ضئيل... اكتب شيئاً ما يدور حول هذا السياق، وأرسله إلى برلين، ليكن ردّك جيّداً وغامضاً بآن واحد... تعرف كيف».

أومأ بفِردِهوف قائلاً: «سأرسل الردّ فوراً، وسأسجّل تاريخه وساعة إرساله بالضبط»، ثمّ خرج وأغلق الباب خلفه.

عليّ توخّي الحذر، قال ريس لنفسه، وإلّا سأصبح قنصلاً لمجموعة من الزنوج على جزيرة ما في جنوب إفريقيا... ودون أن أدري، سأجد نفسي بصحبة خليلة سوداء ودزّينة من الزنوج الصغار الذين ينادونني بابا!

عاد إلى إفطاره، وأشعل سيجارة «إيجبشن سيمونز آرزت رقم 70»، ثمّ أغلق علبة السجائر المعدنيّة بحرص. لن يقاطعه أحد حاليّاً، لذلك أخرج الكتاب الذي بدأ بقراءته سابقاً من حقيبته، وفتحه على الصفحة المطلوبة. استرخى، واستأنف القراءة من حيث اضطرّ للتوقّف:

«هل مشى حقّاً في الشوارع الهادئة، وتوغّل بعيداً في حديقة تيرغارتن مستمتعاً بصبيحة يوم الأحد المفعمة بالسلام؟! لربّما في حياة أخرى... البوظة، لعلّه لم يذقها قط! الآن، يغلون القرّاص فرحين لأنّ لديهم ما يأكلونه. يا إلهي! صرخ، ألن يتوقّفوا؟! مرّت الدبّابات البريطانيّة الضخمة، وانهار مبنى آخر، لعلّه عمارة سكنية أو متجر أو مدرسة أو مكتب، لم يستطع أن يحدّد بالضبط، فالأنقاض تراكمت متحطّمة إلى قطع، ودفنت تحتها عدداً من الأشخاص ماتوا دون صوت. الموت في كلّ مكان، انتشر بين الأحياء والجرحى على السواء، والجثث تراكمت طبقة فوق طبقة وبدأت تتحلّل وفاحت رائحتها النتنة. جثّة برلين المقرفة المرتجفة، الأبراج عديمة النوافذ

التي ما تزال منتصبة، والتي تحتفي دون مقاومة كهذا المبنى عديم الاسم الذي بناه الإنسان ذات يوم بفخر.

اكتشف الصبيّ أنّ الرماد يغطّي ذراعيه: بقايا موادّ لا عضويّة، وبقايا احتراق آخرِ ما أنتجته الحياة، كلّها ممتزجة معاً كما يعلم. نظّف نفسه، لم يفكّر أكثر بالرماد، فهناك ما يشغل باله الآن إن كان لا بدّ له من التفكير وسط الصراخ وضجيج القذائف: الجوع. منذ ستّة أيام، لم يأكل سوى القرّاص، وحتّى القرّاص اختفى الآن. هناك حفرة ضخمة تشغل البقعة التي ينمو فيها، ظهر عند حوافّها أشخاص باهتون نحيلون، وقفوا مثله بصمت، ثمّ ابتعدوا بعيداً: أمّ عجوز تلفّ رأسها الأشيب بمنديل، وتحمل سلّة فارغة تحت إبطها، رجل بذراع واحدة عيناه فارغتان كسلّتها، وفتاة. اختفوا جميعهم بين الأشجار المحطّمة حيث يختبئ الصبيّ إريك.

ومع ذلك، جاءت الأفعى!

ألن ينتهي هذا أبداً؟! سأل الصبيّ، دون أن يوجّه سؤاله إلى شخص محدّد. وإن لم ينتهِ، ماذا إذن؟! ألن يشبع أولئك الـ...»

«فرايهر!» سمع ريس صوت بِفِردِهوف يناديه، «آسف لمقاطعتك. هناك أمر آخر».

أجفل ريس وأغلق الكتاب. «بالتأكيد»، قال. يا لموهبة ذلك الرجل بالكتابة! فكّر، لقد جرفني معه كأنّ ما كتبه حصل فعلاً! برلين تسقط بيد البريطانيّين... صوره حيّة كأنّها حقيقيّة. آه! وارتجف. قدرة الأدب الخياليّ على التحريض مدهشة، بما فيه الأدب الشعبيّ الرخيص. لا عجب أنّ الرواية ممنوعة في مقاطعات الرايخ، كنتُ سأحظرها بدوري! أشعر بالأسف لأنّني بدأتُ بقراءة هذا الكتاب، لكنّ الأوان فات، لا بدّ لي من إنهائه.

قال السكرتير: «هناك بحّارة من سفينة ألمانيّة، يتوجّب عليهم إخطارك شخصياً بقدومهم».

«حسناً»، قال ريس، ومشى صوب الباب، ثمّ إلى المكتب الخارجيّ، حيث وجد بانتظاره ثلاثة بحّارة يرتدون كنزات رماديّة سميكة. ملامحهم قويّة، شعرهم أشقر كثيف، ويبدون متوتّرين قليلاً. رفع ريس ذراعه اليمنى قائلاً: «يحيا هتلر»، وابتسم لهم ابتسامة ودودة سريعة.

«يحيا هتلر»، غمغموا، وعرضوا عليه أوراقهم، فصادق على مرورهم بالقنصليّة ثمّ عاد مسرعاً إلى مكتبه الخاصّ.

ما إن اختلى بنفسه، حتّى فتح «الجندب يُستثْقَل» مرّة أخرى، لكنّ عينيه وقعتا على مقطع يتحدّث عن هتلر. لم يستطع أن يمنع نفسه، فباشر بقراءته على الرغم من أنّه يستبق تسلسلَ الكتاب، وشعر بنقرته تحترق. إنّها محاكمة هتلر! أدرك، الذي يقع في قبضة الحلفاء بعد انتهاء الحرب... يا إلهي! وكذلك غوبلز وغورنغ والباقون. المقطع يدور في ميونخ، حيث يجيب هتلر على ما يبدو على أسئلة المدّعي العامّ الأمريكيّ:

«سوداء، مشتعلة، بدت روح العجوز كأنّها تتقد للحظة من جديد. انتفض الجسد المرتجف الأخرق، انتصبت القامة، وعلا الرأس. من بين الشفتين اللتين يسيل منهما اللعاب باستمرار، صدر صوت متهدّج، نصفه نباح ونصفه همسٌ: Deutsche, hier stehe ich[2]، فارتعد أولئك الذين يسمعون ويشاهدون، وضغطوا السمّاعات بإحكام على آذانهم، ولاح القلق والتوتّر على الوجوه، وجوه الروس والأمريكيّين والبريطانيّين والألمانيّين على السواء. أجل، فكّر كارل، إنّه يتحدّاهم مرّة أخرى! لقد هزمونا... بل أكثر! لقد جرّدوا سوبرمان هذا، وعرّوه على حقيقته. إنّه مجرّد...»

«فرايهر!»

أدرك ريس أنّ سكرتيره قد دخل إلى المكتب. «أنا مشغول» قال غاضباً وأطبق الكتاب، «أنا أحاول أن أقرأ هذا الكتاب، بحقّ السماوات!»، لكن ليس بيده حيلة، وهو يعرف ذلك.

«وصلتنا برقية لا سلكيّة مشفّرة ثانية من برلين» قال بِفِردِهوف، «لمحتُها وهم يفكّون شيفرتها، إنّها عن الوضع السياسيّ الراهن».

«ماذا جاء فيها؟»، تمتم ريس وهو يفرك جبينه بأصابعه.

«أدلى الدكتور غوبلز بخطاب مفاجئ في الراديو، خطاب مهمّ» وبدا السكرتير متحمسّاً للغاية، «يجب أن نأخذ نصّ الخطاب -إنّهم يفكّون شيفرته حاليّاً- وأن نحرص على نشره في الصحف المحليّة هنا».

2- أيّها الألمان، ها أنا ذا. المترجمة

«أجل، أجل»، قال ريس.

ما إن خرج سكرتيره، حتّى فتح الكتاب من جديد. لا يجدر بي هذا، قال لنفسه، لكنّني سأسترق نظرة أخرى! واستأنف قراءة المقطع السابق:

«بصمت، تأمّل كارل التابوت الملفوف بالعلم. ها هو يرقد بداخله، ميتاً، ميتاً حقّاً، ولا أحد -ولا حتّى الشياطين- بمقدوره أن يُحيي هذا الرجل، أو... الرجل-السوبرمان كما ادّعى؟! لقد أطاعه كارل طاعة عمياء، وعَبده، إلى أن وصل إلى حافّة القبر. أدولف هتلر مات، لكنّ كارل تشبّث بالحياة. لن ألحق به! همس صوت في داخل رأسه، سأتابع حياتي، وسأبني من جديد، كلّنا سنبني من جديد، يجب علينا ذلك.

لقد جرفه سحر القائد بعيداً، بعيداً للغاية، لكن ماذا سيحصل الآن، بعد أن وُضِعَت النقطةُ الأخيرة في تاريخه ذاك الذي لا يُصدَّق، في رحلته تلك التي بدأها من مدينة خراب نائية في النمسا، مروراً بالفقر المدقع في ڤيينا، إلى الأهوال المرعبة في خنادق الحرب، ومن ثمّ دسائس السياسة، وتأسيس الحزب، انتهاء بمنصب المستشار وما بدا لوهلة أنّه هيمنة على العالَم بأسره.

كارل يعرف: كذبة. أدولف هتلر كذب عليهم، وقادهم بكلمات جوفاء. لم يفت الأوان بعد، نحن نعرف أنّك تكذب يا أدولف هتلر، عرفنا حقيقتك في نهاية المطاف، وحقيقة الحزب النازيّ، وتلك الحقبة المرعبة، حقبة الاغتيالات وفانتازيات جنون العظمة، لقد أدركنا حقيقتها أيضاً.

استدار كارل، ومضى مبتعداً عن التابوت بصمت».

أغلق ريس الكتاب، وجلس دون حراك لفترة. لقد شعر بالانزعاج رغماً عنه، كان يجب أن نضغط أكثر على اليابانيّين، قال لنفسه، كي يحظروا هذا الكتاب اللعين! في الحقيقة، من الواضح أنّهم يتعمّدون السماح بتداوله، بوسعهم أن يعتقلوا هذا الرجل، ما اسمه؟ أبندسن، لأنّ نفوذهم واسع في الغرب الأوسط.

ما أزعجه كان التالي: موت أدولف هتلر، فضلاً عن هزيمة ودمار هتلر والحزب وألمانيا بحدّ ذاتها كما ورد في رواية أبندسن... بشكل ما أو بآخر، كلّ ذلك أعظم من الواقع، ويتماشى مع روح العالم القديم لا مع العالم الحقيقيّ، عالم الهيمنة الألمانيّة.

كيف يعقل هذا؟! تساءل ريس، هل هي موهبة الرجل في الكتابة فحسب؟! في جعبتهم ألف حيلة، أولئك الروائيّين... الدكتور غوبلز على سبيل المثال، بدأ بكتابة الروايات الخياليّة، ودغدغة الشهواتِ الخسيسة التي تختبئ في أعماق كلّ شخص، مهما بدا محترماً في عيون الآخرين. أجل، الروائيّون يعرفون البشريّة على حقيقتها، لكنّهم خسيسون، تسيّرهم شهواتهم، ويتلاعب بهم جبنهم، كما أنّهم يسوّقون أيّة قضيّة بدافع الطمع. كلّ ما على الروائيّ فعله هو إعطاء الإشارة، وسيستجيب له الناس، وعندها سيضحك بلا ريب بسبب التأثير الذي يمارسه عليهم.

انظروا كيف تلاعب بمشاعري، فكّر هوغو ريس، لا بعقلي أو بذكائي! بطبيعة الحال، سيدفعون له مالاً لقاء ذلك. لا بدّ أنّ شخصاً ما حرّض ذلك الحقير على تأليف الرواية، وأملى عليه ما يجب أن يكتبه. الروائيّون يكتبون أيّ شيء لقاء المال، سيقولون الأكاذيب المطلوبة منهم، وسيصدّق العامّة تلك الأكاذيب النتنة عندما يقرؤونها في كتاب مطبوع. أين نُشِرت هذه الرواية؟! تفحّص هوغو ريس النسخة الموجودة بين يديه: أوماها نبراسكا، المعقل الأخير لصناعة النشر البلوتوقراطيّة الغابرة في الولايات المتّحدة، التي تمركزت في نيويورك فيما مضى، وموّلها اليهود والشيوعيّون.

لعلّ أبندسن يهوديّ!

لم ييأسوا بعد، وما يزالون مصرّين على تسميمنا! كتابٌ يهوديٌّ! أطبق كتاب الجندب بعنف. اسمه الحقيقيّ هو أبندشتاين على الأرجح، ولا بدّ أنّ جهاز الاستخبارات قد تحقّق منه. يجب أن نرسل شخصاً ما إلى ولايات جبال الروكي، كي يزور هر أبندشتاين! أتساءل إن كان كروز ڤوم مير قد تلقّى تعليمات بهذا الصدد... لا، لا أعتقد، مع كلّ ذلك الارتباك الذي يسود برلين حاليّاً، الجميع مشغولون بشؤونهم المحليّة.

لكنّ هذه الرواية، فكّر ريس، خطرة! إن عثروا على أبندشتاين متدليّاً من السقف في صبيحة أحد الأيّام، سيُعَدّ ذلك تحذيراً لأيّ شخص ينساق وراء كتابه، وستكون لنا الكلمة الأخيرة، نحن من سنكتب خاتمة الرواية...

يلزمنا رجلٌ أبيض بالطبع لتنفيذ ذلك، أتساءل ماذا يفعل سكورزني هذه

الأيّام؟! فكّر، ثمّ قرأ نبذة الغلاف مرّة أخرى. هذا اليهوديّ يتحصّن في تلك القلعة العالية! لن يُخدَع أحد، الكلّ يعرف أنّ من سيدخل إلى القلعة كي يقتله، لن يخرج حيّاً!

لعلّ المسألة برمّتها محض حماقة! لقد فات الأوان، فالكتاب مطبوع بأيّ حال، وجبال روكي خاضعة لليابانيّين... أولئك الصُفر سيثيرون جلبة هائلة!

بغضّ النظر... لو تمّت تصفيته ببراعة فحسب، لو تدبّرنا المسألة كما يجب...

دوّن الفرايهر هوغو ريس ملاحظة على دفتره. سأطرح المسألة على الشوتزشتافل، على الجنرال أوتو سكورزني... لا، الأفضل أنّ أطرحها على الجنرال أوتو أولندورف من المكتب الثالث في فرع أمن الرايخ الرئيسيّ، أليس هو من يترأّس وحداتِ القتل المتنقّلة حاليّاً؟

من ثمّ، دون سابق إنذار، انتابه غضب شديد. ظننتُ أنّ هذا الأمر انتهى، قال لنفسه، هل يجب أن يستمرّ للأبد؟! انتهت الحرب قبل سنوات عديدة، اعتقدنا أنّها انتهت حقّاً آنذاك، ولكن... إخفاقنا في إفريقيا، وذلك المجنون سيس إنكورت الذي حاول تنفيذ مشروعات روزنبرغ! هر هوب على صواب، فكّر، بنكتته تلك عن رَجُلنا في المرّيخ الذي يستوطنه اليهود. سنصادفهم هناك أيضاً، حتّى ولو كانوا مخلوقات برأسين طولها قدم واحدة!

عليّ أن أقوم بواجباتي الروتينيّة، قرّر، لا وقت لديّ لمغامرة طائشة، كإرسال قوّات الوحدات الخاصّة لاغتيال أبندسن. أنا مشغول بتحيّة البحّارة الألمان، والردّ على البرقيّات المشفّرة... فلينشغل بذلك شخص ما أعلى منّي رتبة... إنّه عملهم! بأيّ حال، قرّر، أعرف مصيري إن بادرتُ أنا وفشلتُ: الحبس الاحترازيّ لدى الحكومة العامّة الشرقيّة[3]، إن لم يكن في غرفة يُضخّ إليها غاز سيكلون B هيدروجين السيانيد.

3- في عام 1939 اتفقتْ ألمانيا النازيّة مع الاتّحاد السوفياتي على تقسيم بولندا: احتلّ الاتّحاد السوفياتي الأجزاء الشرقيّة منها، بينما احتلّت ألمانيا الأجزاءَ الغربيّة والوسطى، وقسّمتها إلى منطقة تُعَدّ بمنزلة مقاطعة ألمانيّة (وأنشأت فيها لاحقاً معسكر أوشفيتز)، ومنطقة عُرِفَت باسم «الحكومة العامّة» في الشرق تضمّ أغلبيّة يهوديّة، ويديرها حاكم ألمانيّ. المترجمة

مدّ يده، وشطب الملاحظة من دفتره، ثمّ حرق الورقة في منفضة السجائر الخزفيّة. قُرِع باب مكتبه، وظهر سكرتيره حاملاً رزمة من الأوراق. «خطاب د. غوبلز، كاملاً» قال، ووضع الأوراق على طاولة القنصل، «لا بدّ لك أن تقرأه. إنّه خطاب جيّد جدّاً، بل أفضل خطاباته على الإطلاق!».

أشعل ريس سيجارة «سيمونز آرزت رقم 70» ثانية، وبدأ بقراءة الخطاب.

***

-9-

بعد أسبوعين من العمل شبه المتواصل، أنتجت شركة « إدفرانك لتفصيل المجوهرات حسب الطلب» مجموعتها الأولى، وها هي القطع مرتّبة على صينيّتين مغلّفتين بالمخمل الأسود، ستُوضع في سلّة قشّ مربّعة صغيرة، يابانيّة المنشأ. بالإضافة إلى ذلك، طبع إد مكارثي وفرانك فرينك بطاقات عمل خاصّة بهما: استعملا ممحاة لدنة كتلك التي يستخدمها الرسّامون، حفرا اسميهما عليها، من ثمّ طبعا الاسمين باللون الأحمر، وأكملا البطاقات باستخدام عدّة طباعة دوّارة، هي عبارة عن لعبة للأطفال. استعملا ورقاً مقوّى سميكاً ملوّناً فاخراً، خاصّاً ببطاقات عيد الميلاد، وحصلا على نتيجة مبهرة.

لقد أنجزا كلّ مراحل العمل بإتقان، ولا أثر لأيّ لمسة غير احترافيّة، سواء في البطاقات أو المجوهرات أو طريقة عرضها. لماذا نخشى أن نبدو كالهواة؟! فكّر فرانك فرينك، كلانا محترفان، ولو أنّنا خبيران بعمل الورشات عموماً، لا بصناعة المجوهرات.

هناك تشكيلة واسعة على لوح العرض: أساور مصنوعة من البرونز، النحاس، النحاس الأصفر[1]، ومن الحديد الأسود المُعالَج. قلائد، معظمها مصنوع من النحاس الأصفر ومُزخرفة بالقليل من الفضّة. أقراط فضّيّة، ودبابيس من الفضّة أو النحاس الأصفر.

الفضّة كلّفتهما الكثير، وكذلك لحامها. اشتريا أيضاً بضعة أحجار نصف كريمة لتزيين الدبابيس، ولآلئ متطاولة عشوائيّة الشكل، ويَشَماً، وشذرات من الأوبال الناريّ. إن سارت أمورهما كما يرام، سيستخدمان

1- يُعرف أيضاً بـ «الصُفْر»، ويُصنع من خليط النحاس والتوتياء. المترجمة

الذهب، وربّما ماساً عياره أربعة أو ستّة قراريط. الذهب هو ما سيدرّ عليهما ربحاً حقيقيّاً، لذلك باشرا البحث عن مصدر لشراء البقايا الناتجة عن صهر الأنتيكات الذهبيّة التي لا تتمتّع بقيمة فنيّة، لأنّها أرخص نوعاً ما من الذهب الحقيقيّ الجديد. تلك البقايا باهظة الثمن بالنسبة لهما، لكنّ المبلغ الذي سيحصلان عليه من بيع دبّوس ذهبيّ واحد، يكفي لتصنيع أربعين دبّوساً من النحاس الأصفر، فضلاً عن أنّهما سيفرضان السعر الذي يريدانه في سوق التجزئة، لقاء أيّ دبّوس ذهبيّ مُتقَن الصنع، على افتراض -كما نوّه فرينك- أنّ مجوهراتهما ستُباع أصلاً.

لم يبِعْنا شيئاً بعد حتّى هذه اللحظة، لأنّهما فضّلا البدء بالمشاكل التقنيّة الأساسيّة: توفير طاولة العمل مع المحرّكات المثبَّتة عليها، والمخرطة، ومجموعة منفصلة من دواليب الصقل والطحن. تتوافر لديهما مجموعة متكاملة من الأدوات في الحقيقة، تتراوح ما بين الفراشي المعدنيّة الخشنة، إلى تلك النحاسيّة، حجر الصقل، دواليب التلميع المصنوعة من القطن، والكتّان، والشامواه، والجلد، التي يمكن تغطيسها بمركّبات متنوّعة كالخفّان وموادّ الصنفرة والأصبغة الحسّاسة. يملكان أيضاً عدّة لحام بالأوكسي إيتيلين، فيها خزّانات، ومقاييس، وصنابير، وأقنعة واقية، بالإضافة إلى عدّة جوهرجيّ رائعة: كلّابات من ألمانيا وفرنسا، موازين حسّاسة، حفّارات ماس، مناشير، ملاقط، حوامل لِلحَام، ملازم، خرق تلميع، مقصّات، مطارق صغيرة مصنوعة يدويّاً... صفوف وصفوف من الأدوات الدقيقة، فضلاً عن مخزون وافر من القضبان المعدنيّة مختلفة الأقطار، والصفائح المعدنيّة، وبكلات الدبابيس، وبكلات الأقراط. لقد أنفقا ما يزيد على نصف ما حصلا عليه من ويندام-ماتسون، ولم يبق في حسابهما المصرفيّ المشترك إلّا مئتان وخمسون دولاراً، لكنّهما أسّسا مشروعهما وفق ما يمليه القانون، وحصلا على الأذونات المطلوبة في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، وهذا كلّ شيء: إنّهما جاهزان الآن لبيع ما صنعاه.

ما من تاجر تجزئة، فكّر فرينك وهو يتفحّص الحليّ، سيفحص هذه القطع أدقّ ممّا فعلنا نحن. هذه النماذج القليلة المنتقاة تبدو جيّدة حقّاً، فحصناها كلّها بمنتهى الحرص بحثاً عن جزء لم نلحمه كما يجب، أو حوافّ شئزة أو خشنة، أو شوائب لونيّة... «تحرّي النوعيّة» هذا الذي نفّذناه، ممتاز! أيّة بقعة

باهتة أو خدش بسبب الفرشاة المعدنيّة ستدفع الزبون إلى إعادة القطعة، ولا يمكن أن نغامر بعرض حلية غير مكتملة، أو مصنوعة كيفما اتفق... بقعة سوداء واحدة نغفل عنها في طوق فضيّ، كفيلة بالقضاء علينا!

متجر روبرت تشلدن، هو الأوّل على قائمة المتاجر التي خطّطا لزيارتها. سيزوره إد بمفرده، لأنّ تشلدن سيتعرّف إلى فرينك مباشرة بكلّ تأكيد.

«ينبغي أن تتولّى أنت معظم عمليّات البيع الفعليّة»، قال إد، لكنّه كان مصمّماً على التعامل مع تشلدن بنفسه: اشترى بزّة جيّدة، وربطة عنق جديدة، وقميصاً أبيض، كي يعطيه انطباعاً أوّليّاً جيّداً، لكنّه بدا قلقاً على الرغم من كلّ تحضيراته. «أدرك أنّنا بارعان» قال للمرّة المليون، «ولكن... تبّاً!».

معظم الحليّ تجريديّة، دوّامات من الأسلاك والحلقات والأشكال العشوائيّة، التي أخذها المعدن المصهور من تلقاء ذاته في كثير من الأحيان. بعضها مرهف وخفيف كشبكة عنكبوت، والبعض الآخر أشبه بكتل ثقيلة للغاية. أمامها تشكيلة مدهشة من الأشكال، على الرغم من أنّ الصينيّتين المخمليّتين لا تحملان سوى بضع قطع. متجرٌ واحد فحسب، أدرك فرينك، قادر على شراء كلّ ما نعرضه هنا. سنزور كلّ متجر مرّة واحدة فقط إن أخفقنا، لكنّنا سنبيعه مصنوعاتنا دائماً إن نجحنا، وسنزوره مراراً وتكراراً لتلبية طلباته، طيلة حياتنا.

تعاون الرجلان معاً على وضع الصينيّتين المخمليتّين في سلّة القشّ. سنجني مالاً ببيع المعدن، فكّر فرينك، إن ساءت الأمور كثيراً، كما سنبيع الأدوات والمعدّات. سنبيعها بخسارة حتماً، لكنّنا سنستردّ بعض النقود بالمقابل.

آن أوان استخارة كتاب التنبّؤات، كي يسأله كيف سيبلي إد في أوّل عمليّة بيع ينفّذها، لكنّه متوتّر للغاية، وخائف... فقد يعطيه الكتاب نذيراً سيّئاً لا يقدر على مواجهته. بأيّ حال، المشروع انطلق، والمجوهرات صُنِعَت، والورشة جاهزة، بغضّ النظر عن دلالات الآي-تشنغ في هذه المرحلة.

لا يمكنني أن أبيع مجوهراتنا بنفسي، كلّا، فكّر، لن يجلب لنا ذلك حظّاً جيّداً!

«سأزور متجر تشلدن أوّلاً» قال إد، «وقد ننتهي من الأمر كلّه هناك. من ثمّ، يمكنك أن تزور متجرين بنفسك... ستأتي معي، أليس كذلك؟ ابقَ في الشاحنة، سأركنها عند زاوية الشارع».

عندما ركبا شاحنة البيك-آب، مع سلّة القشّ، فكّر فرينك: الله وحده يعلم إن كان إد بائعاً ماهراً أم لا، وكذلك أنا! قد يشتري تشلدن مجوهراتنا، لكنّ ذلك يتطلّب أن نقدّم له «عرضاً عن منتجاتنا» كما يسمّونه. لو كانت جوليانا هنا، لدخلتِ المتجر، وباعت كلّ البضاعة دون أن يرفّ لها جفن. إنّها جميلة، وقادرة على تبادل الأحاديث مع أيّ شخص في العالم، فضلاً عن أنّها امرأة، وهذه المجوهرات نسائيّة في نهاية المطاف... يمكن أن تتزيّن بها عندما تزور المتجر! أغمض عينيه، وحاول أن يتخيّل كيف ستبدو الأساور أو الأطواق الفضيّة الكبيرة إن وضعتها جوليانا، بشعرها الأسود وبشرتها الفاتحة وعينيها الكئيبتين المتفحّصتين. كنزتها الصوفيّة ضيّقة نوعاً ما، والفضّة ترتاح على جلدها العاري، والمعدن يعلو ويهبط كلّما تنفّست...

يا إلهي! صورتها حيّة في رأسه، الآن تحديداً! أصابعها النحيلة القويّة تلتقط كلّ ما صنعناه قطعة قطعة، وها هي تفحصها وهي تلقي برأسها للخلف، ثمّ ترفع الحليّ للأعلى، وترتّبها... جوليانا هي دائماً الشاهد على ما يفعله!

أفضل ما يليق بها، قرّر، هو الأقراط، تلك اللمّاعة المتدلّية، خاصّة المصنوعة من النحاس الأصفر، إن جمعتْ شعرها للخلف، أو قصّته قصيراً جدّاً، بحيث تكشف عن رقبتها وأذنيها... سنلتقط صوراً لها وهي تضع مجوهراتنا، بهدف العرض والدعاية. سبق له أن ناقش مع إيدي موضوع طباعة كتالوج، كي يروّجا للمجوهرات بالبريد في مختلف بقاع العالَم، وستبدو جوليانا رائعة فيه. بشرتها جميلة، تشعّ صحّة، لا تجاعيد فيها ولا ترهّلات، ولونها ممتاز. هل ستوافق جوليانا، إن عرفتُ مكانها؟! بغضّ النظر عن رأيها بي، المسألة لا تتعلّق بحياتنا الشخصيّة، بل مجرّد علاقة عمل بحتة، لا أكثر.

تبّاً! لن أقوم أنا بالتقاط الصور، بل سنستأجر مصوِّراً محترفاً، وهو ما سيسعدها، لأنّها ما تزال مغرورة كما كانت على الأرجح، تحبّ أن ينظر

الناس إليها وأن يعجبوا بها جميعهم. أعتقد أنّ معظم النساء يشبهنها، يشتهين الاهتمام دائماً بطريقة طفوليّة. من ثمّ فكّر: جوليانا لم تتحمّل الوحدة قط، بل أرادتني أن أحوم إلى جانبها طيلة الوقت كي أثني عليها. الأطفال الصغار هكذا، يظنّون أنّ أفعالهم ليست حقيقيّة إن لم يشاهدها أهلهم. لا بدّ أنّها عثرت الآن على رجل يهتمّ بها، ويقول لها كم هي جميلة، ويتغزّل بساقَيْها، وبطنها المسطّحة الناعمة...

«ما المشكلة؟!» سأله إد وهو يسترق نظرة إليه، «هل فقدتَ أعصابك؟».

«كلّا»، أجابه فرينك.

«لن أقف هناك مكتوف اليدين» قال إد، «لديّ بضع أفكار... سأخبرك بأمر آخر: أنا لستُ خائفاً، ولا أخشى دخول ذلك المتجر الراقي! أعترف أنّني لا أحبّ أن أتأنّق، وأنّني لستُ مرتاحاً... لكن هذا غير مهمّ إطلاقاً، سأدخل إلى هناك، وسأبيع ما صنعناه إلى ذلك الأحمق...».

أحسنتَ! فكّر فرينك.

«تبّاً! إن كان بمقدور أيّ شخص أن يدخل إلى هناك كما فعلتَ أنت» تابع إد، «حين أقنعته بكلمتين أنّك خادم الأدميرال، فلا بدّ أنّني قادر على إخباره بالحقيقة، وهي أنّ هذه المجوهرات هي مجوهرات أصيلة مصنوعة باليد، جميلة ومبتكرة، وأنّ...».

«مصنوعة يدويّاً»، صحّح له فرينك.

«أجل، مصنوعة يدويّاً... أقصد، سأدخل متجره، ولن أخرج إلّا بعد أن أهزمه. لا بدّ أن يشتري منّا... سيكون أحمق إن لم يفعل! لقد ألقيتُ نظرة على السوق، ولا مثيل لمجوهراتنا! يا إلهي! عندما أتخيّله وهو يلقي نظرة عليها، ومن ثمّ يرفض أن يشتريها... أجنّ غضباً، إلى حدّ أنّني قد أضربه!»

«احرص على إخباره بأنّها ليست مصنوعة من معدن مطليّ» قال فرينك، «بل من معدن خالص صلد، سواء كان النحاس أو النحاس الأصفر».

«دعني أتصرّف بطريقتي» أجاب إد، «لديّ أفكار جيّدة حقّاً».

ما يمكنني فعله هو التالي، فكّر فرينك، سآخذ حليتين -لن يبالي إد

إطلاقاً- وأضعهما في طرد، من ثمّ أرسلهما إلى جوليانا كي ترى ماذا أفعل. سأرسل الطرد بالبريد المسجّل إلى آخر عنوان معروف لها، وستتولّى مؤسّسة البريد تعقّبها. ماذا ستقول عندما تفتح الطرد؟! لا بدّ أن أرفقه بملاحظة أشرح فيها أنّني صنعتُ القطعتين بيديّ، وأنّني شريك في مشروع صغير لصنع المجوهرات المُبتكَرة. سأقدّم لها وصفاً يثير فضولها ويجعلها ترغب بمعرفة المزيد. سأكتب لها عن الأحجار الكريمة والمعادن، وأين نبيع مصنوعاتنا، وعن تلك المتاجر الراقية...

«هل وصلنا؟» سأل إد وهو يخفّف سرعة الشاحنة. حركة المواصلات كثيفة في مركز المدينة، والعمارات تحجب السماء. «الأفضل أن أركن الشاحنة هنا»، أضاف.

«إنّه على بعد خمسة أحياء»، قال فرينك.

«هل معك سيجارة ماريجوانا؟» سأله إد، «ستهدِّئ أعصابي».

ناوله فرينك علبة «الموسيقا السماويّة»، التي التقط عادة تدخينها أثناء عمله في شركة ويندام-ماتسون.

أعرف أنّها تعيش مع رجل ما، قال لنفسه، وأنّها تنام معه كأنّها زوجته. أنا أعرف جوليانا جيّداً، لا يمكنها أن تحيا بطريقة أخرى. أعرف كيف يسوء حالها مع دنوّ الليل، عندما يحلّ الظلام والبرد، ويعود الآخرون إلى منازلهم ويجتمعون بعائلاتهم. جوليانا لم تُخلَق لحياة العزلة، ولا أنا! أدرك أخيراً.

لعلّ ذلك الرجل هو شخص لطيف حقّاً، طالبٌ خجول اختارته هي... قد تصبح زوجة صالحة لشابّ صغير السنّ، لم يمتلك يوماً الجرأة للاقتراب من امرأة غيرها. إنّها ليست قاسية، ولا ماكرة، بل ستعامله بمنتهى الطيبة. أتمنّى من أعماق قلبي ألّا ترتبط برجل مسنّ، لا أطيق ذلك! رجل لئيم خبير بالنساء، يضع عود سواك الأسنان في زاوية فمه، ويوجّه لها الأوامر...

شعر بأنفاسه تتثاقل، رجل سمين مشعّر يضطهد جوليانا، ويحوّل حياتها إلى جحيم! ستقتل نفسها في نهاية المطاف، فكّر، هذا ما يخبّئه لها القدر إن لم تجد الرجل المناسب، وهذا يعني طالباً لطيفاً للغاية، وحسّاساً، ومرهفاً، يقدّر كلّ أفكارها... أعرفُ أنّني عاملتها بفظاظة، على الرغم من أنّني لستُ

بذلك السوء... الكثير من الرجال أسوأ منّي! على الأقلّ، كنتُ أعرف بماذا تفكّر، وماذا تريد، ومتى تشعر بالوحدة أو الاكتئاب أو الاعتلال. قضيتُ أوقاتي قلقاً عليها، واهتممتُ بشؤونها... لكنّ ذلك لم يكن كافياً، إنّها تستحقّ المزيد، بل تستحقّ أكثر بكثير! فكّر.

«سأركن الشاحنة»، قال إد عندما وجد مكاناً خالياً، وقام بذلك وهو ينظر من فوق كتف فرينك.

«اسمع» قال فرينك، «هل أستطيع أن أرسل حليتين إلى زوجتي؟».

«لم أكن أعرف أنّك متزوّج!» ردّ إد بشكل عفويّ، وكلّ تركيزه منصبٌّ على رَكن الشاحنة. «أجل بالتأكيد، على شرط ألّا ترسل لها فضّة»، أضاف، ثمّ أطفأ المحرّك. «لقد وصلنا»، قال، ونفخ دخان الماريجوانا، ثمّ أطفأ السيجارة على لوحة القيادة، ورمى العقب على أرض الشاحنة. «تمنَّ لي الحظّ!»، قال.

«حظّاً سعيداً»، قال فرانك فرينك.

«هاي، انظر! هناك نصٌّ من شعر الواكا الياباني على الوجه الخلفيّ للعلبة!»، وقرأ النصّ بصوت عالٍ وسط ضجّة المواصلات:

سمعتُ صيحة طائر الكوكو / رفعتُ رأسي ونظرتُ / إلى مصدر الصوت: / ماذا رأيتُ؟ / لا شيء، إلّا قمر الفجر الشاحب

ناول علبة «الموسيقا السماويّة» إلى فرينك، وقال: «يا للسماء!»، وضرب شريكه على ظهره مبتسماً ابتسامة عريضة، ثمّ فتح باب الشاحنة ونزل حاملاً سلّة القشّ. «سأترك لك مهمّة وضع عشرة سنتات في العدّاد»، قال، وهو يمشي مبتعداً على الرصيف.

خلال لحظة، اختفى بين المشاة.

جوليانا! فكّر فرينك، هل أنتِ وحيدة مثلي؟! ثمّ نزل من الشاحنة، ولقّم العداد عشرة سنتات.

الخوف! فكّر، مغامرة مشروع المجوهراتِ هذه... ماذا لو كان مقدَّراً لها أن تفشل؟! أجل، ماذا لو كان مقدَّراً لها أن تفشل فعلاً؟! هكذا قال

الآي-تشنغ: نواح، دموع، نفاق... ولكن يجب على الرجل أن يواجه ظلالَ حياته القاتمة، ومسيرتَه نحو القبر. لو أنّ جوليانا هنا لما كان الوضع بهذا السوء، بل بالأحرى، لن يكون سيّئاً على الإطلاق! أنا خائف! أدرك، لنفترض أنّ إد لم ينجح ببيع شيء، لنفترض أنّهم سخروا منّا، إذن... ماذا سنفعل؟!

***

فوق ملاءة مفروشة على أرض غرفة الجلوس، استلقت جوليانا وجو سينادِلا متعانقَين. الغرفة حارّة خانقة بسبب شمس منتصف النهار، وجسدا جوليانا والرجل الذي بين ذراعيها رطبان. تدحرجت قطرة عرق عن جبين جو، وتوقّفت لحظة على خدّه، قبل أن تستقرّ على عنق جوليانا.

«ما يزال العرق يتقاطر منك»، تمتمت.

لم يجبها، أنفاسه بطيئة، منتظمة... كالمحيط! فكّرتْ، نحن مجرّد ماء من الداخل.

«هل استمتعتَ؟»، سألتْه.

«لا بأس»، غمغم.

ظننتُ ذلك، فكّرت جوليانا، صار بإمكاني أن أحزر. الآن، علينا كلانا أن ننهض كي نرتّب أمورنا... هل هذا سيّئ؟! هل هي إشارة على رفضٍ لا واعٍ لما حصل؟!

تقلّب جو، فسألتْه: «هل ستنهض؟!»، ثمّ حضنته بقوّة بكلتا ذراعيها. «لا تنهض، ليس بعد!»، أضافت.

«ألا يتوجّب عليكِ الذهاب إلى النادي؟»

لن أذهب إلى النادي! قالت جوليانا لنفسها، ألا تعرف ذلك؟! سنذهب إلى مكان ما، لن نبقى هنا طويلاً... آن الأوان كي نذهب إلى مكان ما، لم نزره من قبل.

أحسّت بأنّه يسحب نفسه للخلف، من ثمّ استند إلى ركبتيه ونهض، فانزلقت ذراعاها عن ظهره الرطب. سار مبتعداً عنها بقدميه الحافيتين، إلى الحمّام بلا شكّ، كي يأخذ دوشاً.

لقد انتهينا! فكّرت، أوه، حسناً... وتنهّدت.

«لقد سمعتكِ!» قال جو من الحمّام، «سمعتكِ تتأوّهين! أنتِ مُحبَطة دائماً، أليس كذلك؟ قلِقة، مرتابة، خائفة... منّي ومن كلّ شيء في العالَم». خطا خارج الحمّام لبرهة، الصابون يقطر منه، ووجهه يتألّق. «ما رأيكِ أن نذهب في رحلة؟»، سألها.

تسارع قلبها. «إلى أين؟!»، سألته.

«إلى مدينة كبيرة! ما رأيكِ أن نذهب إلى الشمال؟ إلى دنفر؟ سآخذك في نزهة، وأشتري لك تذكرة لحضور استعراض، من ثمّ نتناول الغداء في مطعم، ونركب التاكسي. سأشتري لك فستاناً يليق بالمساء، أو أيّاً كان ما يلزمك... موافقة؟».

بالكاد صدّقت أذنيها! لكنّها أرادت حقّاً أن تصدّقه، وحاولت ذلك.

«هل تتحمّل سيّارتكِ الرحلة؟»، صاح جو.

«بالتأكيد!»، قالت.

«سنشتري كلانا بعض الملابس الجميلة» قال، «ونقضي وقتاً ممتعاً، ربّما للمرّة الأولى في حياتنا... ولن أدعكِ تنهارين».

«من أين لنا المال؟!»

«لديّ مال! انظري في حقيبتي» أجابها جو، من ثمّ أغلق باب الحمّام، فأعاقهما صوتُ تدفّق الماء عن متابعة الحديث.

فتحت جوليانا الخزانة، وأخرجت الحقيبة الصغيرة المبقّعة المبعوجة. في زاوية من زواياها، وجدت مغلّفاً فيه بنكنوت الرايخسبانك، وهو عملة عالية القيمة، صالحة للاستخدام في كلّ مكان. إذن، بوسعنا أن نذهب حقّاً! أدركت، لعلّ جو ليس محتالاً في نهاية المطاف! أتمنّى لو أخترقُ عقله، كي أعرف ماذا يدور فيه! فكّرت وهي تعدّ النقود.

تحت المغلّف، عثرت على ما يشبه قلم حبر أسطوانيّاً ضخماً، يُغلَق بمشبك، لكنّه ثقيل للغاية. رفعت المشبك، وفتحت الغطاء. أجل، له سنّ ذهبيّة، ولكن...

«ما هذا؟!»، سألتْ جو ما إن خرج من الحمّام، لكنّه أخذ القلم منها، وأعاده إلى الحقيبة، فأدهشها كيف تعامل معه بحرص شديد.

«هل من مشاكل أخرى تزعجكِ؟» سألها جو، وبدا سعيداً، أسعد من أيّ وقت مضى منذ أن التقت به. طوّقها من خصرها وهو يصرخ بحماس، ورفعها بين ذراعيه، هدهدها، وأرجحها للأمام وللخلف، دفن وجهه في وجهها، ونفخ عليها أنفاسه الدافئة، عصرها وعصرها إلى أن أجابته متوسّلة: «كلّا، ما من شيء آخر! أنا أتغيّر ببطء»، وما زلتُ خائفة منك قليلاً، فكّرت بينها وبين نفسها، خائفة إلى حدّ أنّني عاجزة عن قول ذلك لنفسي، أو إخبارك به.

«سأرميكِ من النافذة!» صاح جو وهو يحملها عبر الغرفة، «ها نحن أولئك».

«أرجوك!»، قالت.

«أنا أمزح معكِ! اسمعيني، نحن ذاهبان في مسيرة، كتلك المسيرة إلى روما، تتذكرينها، تلك التي قادها عمّي الدوتشي كارلو. الآن، سنخرج في مسيرة صغيرة، أقلّ أهميّة، ولن تذكرها كتب التاريخ. أليس كذلك؟». أحنى رأسه، وقبّلها بعنف حتّى تصادمت أسنانهما. «كم سنبدو جميلَين، أنا وأنتِ، بملابسنا الجديدة، وستعلّمينني كيف أتكلّم وكيف أعبّر عن نفسي، موافقة؟ ستعلّمينني الأساليب الحسنة، أليس كذلك؟».

«لا بأس بطريقة حديثك»، أجابت جوليانا، «أنت تتكلّم أفضل منّي».

«كلّا!» قال، وانتابه حزن مفاجئ. «أسلوبي في الحديث رديء، ولكنتي إيطاليّة واضحة. ألم تلاحظيها عندما التقيتِ بي أوّل مرّة في المطعم؟».

«ربّما»، لكنّها لم تهتمّ بذلك أصلاً آنذاك.

«وحدها المرأة تعرف الآداب الاجتماعيّة الملائمة» قال جو وهو يحملها، ثمّ رماها على السرير بقوّة، فارتدّ جسدها للأعلى بعنف. «دون وجود المرأة، سنناقش نحن الرجال سباق السيّارات والخيول، ونروي نكات بذيئة. لا حضارة من دون امرأة»، أضاف.

مزاجك غريبٌ فكّرت جوليانا، تقلق وتستغرق بالتفكير إلى أن تقرّر ماذا ستفعل، وعندها يغمرك الحماس. هل تريدني حقّاً؟! بوسعكَ أن تهجرني، وأن تتركني هنا، كما حصل معي سابقاً! سأهجركَ أنا، إن أردتُ متابعة طريقي!

«هل هي أجورك؟» سألته وهو يرتدي ملابسه، «هل كنت توفّرها؟». معه الكثير من النقود! المال وفير في الشرق بكلّ تأكيد، ولكن...

«كلّ سائقي الشاحنات الآخرين الذين التقيتُ بهم لم يكن معهم...»، قالت.

«هل تظنّين أنّني سائق شاحنة؟!» قاطعها جو، «اسمعي، أنا أركب تلك الشاحنة لا كسائق، وإنّما كحارس يحميها ممّن يحاولون اختطافها. أنا لا أبدو كسائق شاحنة إلّا عندما أنام في المقصورة». قلبَ كرسيّاً في زاوية الغرفة، واضطجع عليه متظاهراً بالنوم، فمه مفتوح وجسده رخو. «أرأيتِ؟»، سألها.

لم تنتبه في البداية، من ثمّ أدركت أنّه يحمل سكّيناً في يده! سكّيناً رفيعة، كتلك التي تستعملها في المطبخ لتقشير البطاطا. يا إلهي! فكّرت، من أين جاء بها؟! من الهواء؟! «لذلك وظّفني أصحاب الڤوكس ڤاجن، بسبب سجلّ خدمتي العسكريّة. نحن من قمنا بالدفاع عن أنفسنا ضدّ هاسلدن، الذي قاد أولئك الكوماندوس الإنجليز» قال جو وعيناه السوداوان تبرقان، ثمّ ابتسم لجوليانا. «احرزي من قبض على الكولونيل هناك أخيراً! لقد قبضنا عليه هو وأربعة من رجاله -أفراد فرقة الصحراء البعيدة المدى- عند نهر النيل، بعد عدّة أشهر من حملة القاهرة. لقد أغاروا علينا لسرقة الغازولين في إحدى الليالي، عندما كنتُ أقوم بمهمّة الحراسة... تسلّل هاسلدن وقد طلى وجهه وجسده -ويديه أيضاً- باللون الأسود... لم يكن معهم أسلاك هذه المرّة، بل رمّانات يدويّة ورشّاشات، كلّها صاخبة! حاول أن يخنقني، لكنّني نلتُ منه»، ووثب عليها من حيث يجلس ضاحكاً. «دعينا نحزم أشياءنا، قولي للنادي إنّك ستأخذين عطلة لبضعة أيّام، اتّصلي بهم».

لم تقنعها روايته تلك، لعلّه لم يذهب إلى شمالي إفريقيا أصلاً، ولم يقاتل في الحرب ضمن صفوف الحلفاء. أيٌّ خاطفون؟! تساءلت، لم تسمع أبداً بشاحنة جاءت من مدينة كانون سيتي في الساحل الشرقيّ، يرافقها حارس مسلّح محترف كان جنديّاً سابقاً. لعلّه لا يقطن في الولايات المتّحدة الأمريكيّة أيضاً، بل اختلق كلّ ما رواه لها منذ أن التقى بها، مجرّد أقاصيص يغريها بها لإثارة اهتمامها، متظاهراً بالرومانسيّة.

لعلّه مجنون! فكّرت، لكن.. يا للسخرية! بوسعي أن أقوم بما ادّعيتُ مرّات كثيرة أنّني قمتُ به: أن أسخّر الجودو للدفاع عن نفسي، إنّما من ماذا؟! لإنقاذ عذريّتي؟ لإنقاذ حياتي؟ إنّه على الأرجح إيطاليّ فقير وضيع، عامل كسول يعاني من أوهام العظمة، ويريد أن يعيش مغامرة كبرى ينفق عليها كلّ نقوده، ويستمتع بالتجربة إلى آخرها قبل أن يعود إلى متابعة حياته الرتيبة، لكنّه بحاجة إلى امرأة تشاركه فيها.

«حسناً» قالت، «سأهاتف النادي». عندما خرجت إلى الصالة، فكّرت: سيشتري لي ملابس باهظة الثمن، من ثمّ يصطحبني إلى فندق فاخر! يشتهي الرجال جميعهم أن ترافقهم امرأة أنيقة قبل أن يموتوا، حتّى ولو اضطروا إلى شراء الملابس لها على حسابهم. هذه المغامرة هي طموح جو سينادِلا، طموح حياته. إنّه ذكيّ، وأراهن أنّ تحليله صحيح، أنا فعلاً مصابة بخوف عصابيّ من المذكّر. فرانك أدرك ذلك بدوره، وهو ما تسبّب بانفصالنا، ما زلتُ أشعر بالتوتّر وعدم الثقة حاليّاً!

عندما انتهت من استعمال الهاتف المدفوع الموجود في الصالة، عادت إلى شقّتها، حيث وجدت جو سينادِلا مستغرقاً بقراءة الجندب يُستثْقَل، متجهّماً، غافلاً عمّا حوله.

«كنتَ ستعيرني الكتاب كي أقرأه، أليس كذلك؟»، سألته.

«ربّما، أثناء قيادة السيّارة»، أجابها دون أن يرفع رأسه.

«هل ستقودها أنت؟! لكنّها سيّارتي!»

لم يجبها، بل تابع القراءة.

***

من مكانه بالقرب من صندوق الكاش، رفع روبرت تشلدن رأسه، فرأى رجلاً نحيلاً طويلاً شعره أسود، يدخل إلى المتجر. بزّته تواكب الموضة نوعاً ما، ومعه سلّة قشّ كبيرة يحملها بيده، لا بدّ أنّه مندوب مبيعات، على الرغم من أنّه لا يبتسم ابتسامة من يعملون في هذه المهنة، تلك الابتسامة المشرقة المألوفة، بل تلوح نظرة كئيبة بائسة على وجهه المتغضّن. إنّه أشبه بسمكريّ، أو كهربائيّ، فكّر تشلدن.

عندما انتهى من زبونه، نادى الرجلَ قائلاً: «أنت مندوب لأيّة شركة؟».

«مجوهرات إدفرانك» غمغم الرجل، ووضع السلّة على أحد الكونتوارات.

«لم أسمع بها من قبل»، قال تشلدن وهو يقترب منه بكسل، ففتح الرجل سلّته بحركة استعراضيّة.

«مصنوعة باليد، وكلٌّ منها فريدة من نوعها، وأصيلة. نحاس، فضّة، نحاس أصفر... وحديدٌ أسْوَدُ مُعالَج».

ألقى تشلدن نظرة داخل السلّة: معدن على مخمل أسود! هذا غريب! «كلّا شكراً، لا أتعامل بها»، قال للرجل.

«إنّها تحف فنيّة أمريكيّة معاصرة»

رفض تشلدن بهزّة من رأسه، وعاد إلى الجلوس بالقرب من صندوق الكاش.

بقي الرجل واقفاً في مكانه لفترة من الزمن، وهو يعبث بالسلّة وصينيّتي العرض المخمليّتين دون أن يخرجهما كليّاً من السلّة، ودون أن يعيدهما إلى مكانهما تماماً. بدا حائراً، لا يعرف ماذا يجب أن يفعل.

صالب تشلدن ذراعيه، وتأمّل المندوب وهو يفكّر بمشاكل يومه الكثيرة. لديه موعد في الساعة الثانية، سيعرض خلاله على أحد الزبائن أكواباً من حقبة غابرة، ثمّ سيستلم في الساعة الثالثة شحنة أخرى من القطع الفنيّة، تعيدها إليه مختبرات جامعة كاليفورنيا بعد التأكّد من أنّها ليست مزيّفة، فقد بدأ بفحص المزيد والمزيد من بضائعه في الأسبوعين الماضيين، بعد حادثة مسدّس كولت 44 البغيضة تلك.

«ليست مطليّة» قال الرجل صاحب السلّة وهو يرفع إسوارة، «بل نحاس صلد». هزّ تشلدن رأسه دون أن يعلّق. يعرف أنّ الرجل سيبقى لفترة قصيرة، ويعرض عليه نماذج ممّا يحمله، من ثمّ يغادر في نهاية المطاف.

رنّ الهاتف، إنّه زبون يستفسر عن كرسيّ هزّاز عتيق ثمين وعده تشلدن بترميمه، لكنّ هذا الأخير لم ينته منه بعد، وتوجّب عليه أن يختلق عذراً مقنعاً،

وهو يحدّق من نافذة المتجر إلى الشارع وحركة المواصلات عند الظهيرة. جعله هذا المنظر يشعر بالراحة والاطمئنان، وتمكّن من إرضاء الزبون بطريقة ما أو بأخرى في نهاية المطاف. مشكلة مسدّس كولت 44 تلك أثارت قلقه بلا شكّ، فكّر وهو يغلق الخطّ، ولم يعد ينظر إلى ما يبيعه بالتبجيل ذاته. أبعاد ما حدث واسعة، أشبه بصحوة الطفولة الأولى بعد أن يدرك المرء حقائق الحياة. ما حصل يرتبط بسنواتنا الأولى، فكّر حالماً، لا بتاريخ الولايات المتّحدة فحسب، بل بتاريخنا الشخصيّ أيضاً، كأنّنا نشكّك بأصالة شهادة ميلادنا بحدّ ذاتها، أو انطباعاتنا عن آبائنا. لعلّني مثلاً لا أتذكّر فرانك ديلانو روزفلت حقّاً، بل صور صنعيّة مستقاة من أحاديث متنوّعة عنه، أشبه بخرافات زُرِعَت خلسة في أنسجة الدماغ-كخرافة هِبلوايت[2]، أو خرافة تشيبنديل[3]-أو بالأحرى، تلك الخرافة عن أنّ أبراهام لينكولن تناول الطعام هنا، واستعمل هذه السكّين الفضيّة العتيقة وتلك الشوكة أو الملعقة، لا يسعنا أن نراه يأكل، لكنّ القصّة باقية.

ما زال مندوب المبيعات واقفاً عند الكاونتر الآخر، وهو يعبث بسلّته وبضائعه، وقال أخيراً: «يمكننا أن نصنع قطعاً وفق الطلب، مصمّمة خصّيصاً وفق رغبة الزبون... إن أراد أحد زبائنك تصميماً معيّناً»، وبدا صوته مخنوقاً. تنحنح وحدّق إلى تشلدن، من ثمّ إلى الحلية التي يمسكها بيده... على ما يبدو، إنّه لا يعرف كيف يغادر!

ابتسم تشلدن ولم يجبه. لا تقع على عاتقي مسؤوليّة أن أنقذه من هذا الموقف، فكّر، إنّها مشكلته هو، سواء نجح أم لا. إنّها لحظة صعبة، لكنّ الآخرين يمرّون بها أيضاً، لا مندوبي المبيعات فحسب. كلّنا نعاني! انظروا إليّ، أعاني مع اليابانيّين من أمثال السيّد تاغومي طيلة النهار... بكلمة واحدة فقط، بوسعه أن يذكّرني دائماً بما حصل، ويجعل حياتي بائسة!

2- George Hepplewhite (1727-1786): نجّار وصانع مفروشات إنجليزيّ، يُعدّ من أشهر صانعي الأثاث في إنجلترا في القرن الثامن عشر، لم تبق أيّة قطعة ممّا صنعه، لكنّه أعطى اسمه لأسلوب مميّز في التصميم. المترجمة

3- Thomas Chippendale (1718-1779): صانع أثاث إنجليزيّ مشهور في حقبة القرن الثامن عشر، قطعه تنتمي إلى أسلوب الروكوكو الإنجليزيّ والأسلوب الكلاسيكيّ الجديد. المترجمة

من ثمّ خطرت له فكرة! من الواضح أنّ هذا الرجل غرّ... وقد يوافق على ترك بعض القطع أمانة هنا، الأمر يستحقّ المحاولة!

«اسمع»، قال تشلدن.

نظر الرجل إليه على الفور، وثبّت نظراته عليه.

تقدّم تشلدن صوبه وهو ما يزال متصالب الذراعين، ثمّ قال: «يبدو أنّ المتجر قد يبقى خالياً من الزبائن لمدّة نصف ساعة. لا أعدك بشيء، لكن بوسعك أن تريني بعض القطع. أبعِد ربطاتِ العنق تلك».

هزّ الرجل رأسه موافقاً، وبدأ بإزاحة الأغراض عن الكاونتر كي يفسح مجالاً لحليّه، من ثمّ فتح السلّة وأخذ يعبث بمحتوياتها مجدّداً.

سيُخرِج كلّ ما يحمله، ويضعه أمامي! أدرك تشلدن، سيتكبّد عناء ترتيب القطع طيلة ساعة كاملة، من ثمّ يعيد ترتيبها وتنسيقها من جديد، إلى أن يعرضها كلّها. سيصلّي مفعماً بالأمل، وسيرمقني بطرف عينه في كلّ لحظة، كي يكتشف إن أثارت بضائعه اهتمامي أم لا.

«عندما تنتهي» قال تشلدن، «سألقي نظرة إن لم أكن مشغولاً»، فأخذ الرجل يعمل بحماس، كأنّ نحلة لدغته.

دخل بضعة زبائن إلى المتجر في تلك اللحظة، فاستقبلهم تشلدن. ركّز اهتمامه كليّاً عليهم وعلى طلباتهم، ناسياً مندوبَ المبيعات الذي يشقى لعرض مجوهراته، والذي انتبه لوجود الزبائن، فحاول أن يجعل نفسه غير مرئيّ، وتحرّك خلسة.

باع تشلدن طاسة حلاقة، وكاد أن يبيع بساطاً يدويّ الصنع، كما أخذ سلفة مقابل بساط أفغانيّ. انقضى الوقت وغادر آخر الزبائن، فخلا المتجرُ إلّا منه ومن مندوب المبيعات الذي انتهى أخيراً من مهمّته، وها هي مجوهراته كلّها مرتّبة على المخمل الأسود الذي فرشه فوق الكاونتر.

مشى تشلدن صوبه على مهل، وأشعل سيجارة لاند -أُو- سمايلز. وقف أمام الكاونتر متمايلاً للأمام وللخلف على عقبيه، وهو يدندن بصوت خافت. ظلّ المندوب صامتاً، ولم ينطق أيّ منهما بكلمة. أخيراً، أشار تشلدن إلى دبّوس وقال: «يعجبني هذا».

«إنّها قطعة جيّدة» ردّ المندوب بسرعة، «لن تجد عليها ولو خدشاً واحداً بسبب الفرشاة، كما أنّها ملمَّعة، ولن تتبقّع أبداً. كلّ القطع مطليّة بطلاء بلاستيكيّ خاصّ يدوم سنة كاملة، وهو أفضل طلاء صناعيّ متوافر».

هزّ تشلدن رأسه هزّة خفيفة.

«ما قمنا به هنا» تابع المندوب، «هو تطبيق التقنيّات الصناعيّة المُجَرَّبة المضمونة، على صناعة المجوهرات... وهو ما لم يقم به أحد من قبل وفقاً لمعلوماتي. لم نستخدم قوالب الصبّ، وإنّما اشتغلنا على المعدن مباشرة... لِحَام، وصهر الحوافّ». صمت قليلاً، ثمّ أضاف: «كما قمنا بتلحيم الوجه الخلفيّ لكلّ قطعة يدويّاً».

انتقى تشلدن سوارين، من ثمّ دبوساً، ودبوساً ثانياً. تأمّل هذه القطع للحظة، ووضعها جانباً.

ارتعش وجه المندوب. إنّه الأمل!

فحص تشلدن بطاقة السعر المرفقة بأحد الأطواق، وسأل: «هل هذا...».

«إنّه سعر المبيع للزبائن، وستحصل على نصفه... سنقدّم لك حسماً إضافيّاً مقداره 2% إن اشتريتَ منّا بمئة دولار تقريباً»

انتقى تشلدن تشكيلة أخرى، قطعة قطعة، ومع كلّ حلية انتقاها تزايد حماس مندوب المبيعات، وأخذ يتكلّم أسرع فأسرع مكرّراً ما يقوله، وثرثر عن أمور حمقاء لا معنى لها، بسرعة هائلة وصوت خفيض. يظنّ أنّه سيبيع حقّاً! فكّر تشلدن، لكنّ ملامحه لم تشِ بنواياه، وتابع لعبة انتقاء القطع.

«هذه تحديداً قطعة مميّزة!» قال المندوب عندما انتقى تشلدن قلادة كبيرة، وتابع بعد لحظة صمت: «أعتقد أنّك انتقيتَ أفضل ما لدينا... كلّ القطع الممتازة في الحقيقة». ضحك ثمّ قال: «ذوقك فاخر»، وزاغت عيناه. لا بدّ أنّه يحسب ذهنيّاً قيمة ما انتقاه تشلدن، وما سيربحه من الصفقة.

«سياستنا هنا» قال تشلدن، «عندما نتعامل مع بضائع لم نجرّبها من قبل، هي بيعها بالأمانة».

لم يستوعب المندوب ما سمعه، فصمت وحدّق أمامه لبرهة دون أن يفهم.

ابتسم له تشلدن.

«بالأمانة!»، قال الرجل أخيراً.

«هل تفضّل ألّا تتركها هنا؟»، سأله تشلدن.

«تقصد أن أترك الحليّ هنا، من ثمّ تدفع لي لاحقاً عندما...»، تأتأ الرجل.

«ستحصل على ثلثي السعر الذي طلبتَه إن بيعَت الحليُّ، وبذلك تجني ربحاً أكبر. يتوجّب عليك أن تنتظر بلا شكّ، ولكن...» هزّ تشلدن كتفيه، «أنت صاحب القرار! سأعرضها في الواجهة، وإن اشتراها الزبائن... ربّما خلال شهر تقريباً، عندما نطلب الدفعة التالية، قد نحسم المسألة ونشتري بعض القطع منك مباشرة».

لقد أمضى هذا الرجل أكثر من ساعة وهو يرتّب مجوهراته، أدرك تشلدن، وعرض عليّ كلّ ما في سلّته. القطع كلّها مبعثرة الآن، وستتطلّب إعادة ترتيبها ساعة أخرى، كي يتمكّن من عرضها على متجر آخر.

ساد الصمت، ولم يتفوّه أيٌّ منهما بكلمة.

«تلك القطع التي وضعتَها جانباً» غمغم الرجل بصوت خافت، «هل هي الحليّ التي تريدها؟»

«أجل. سأسمح لك بتركها كلّها هنا» أجابه تشلدن، ومضى إلى مكتبه الموجود في الجزء الخلفيّ من المتجر. «سأحرّر لك إيصالاً بها، كي تحتفظ بسجلّ عمّا تركتَه عندي» قال، من ثمّ أضاف عندما عاد حاملاً دفتر الإيصالات: «عندما تُترَك البضاعة للبيع للأمانة كما تعرف، لا يتحمّل المتجر تبعات قانونيّة في حال السرقة أو التلف». ناول المندوبَ نسخة صغيرة، عن الإقرار برفع المسؤوليّة القانونيّة عن متجره. بالتالي، لن يُعدّ متجره مسؤولاً عن القطع التي تُترك في عهدته، وأيّة حلية مفقودة ستعدّ مسروقة عندما تُعاد القطع التي لم تُبَع إلى المندوب، قال تشلدن لنفسه، دائماً ما تحصل سرقات من هذا النوع في المتاجر، خاصّة بالنسبة للقطع الصغيرة كالحليّ.

روبرت تشلدن لن يخسر مطلقاً، لا يتوجّب عليه أن يدفع ثمن مجوهرات هذا الرجل، ولم ينفق مالاً في استثمارها. إن باع حلية، سيحصل على أرباحه، أمّا إن كسدت القطع فسيعيدها كلّها -أو ما يعثر عليه منها- إلى المندوب في وقت لاحق لم يحدّده. سجّل ما انتقاه على الإيصال، ثمّ وقّعه، وأعطى

نسخة منه إلى الرجل قائلاً: «اتّصل بي بعد حوالي الشهر، كي تعرف كيف تسير الأمور».

أخذ المجوهرات، وعاد إلى مكتبه، تاركاً المندوب يلملم ما تبقّى من بضائعه. لم أظنّ أنّه سيوافق! قال لنفسه، كلّ الاحتمالات واردة! لذلك، يستحقّ الأمر المحاولة دائماً! عندما رفع رأسه أخيراً، رأى الرجل على أهبة المغادرة، سلّته تحت إبطه والكاونتر خالٍ، لكنّه تقدّم منه وهو يحمل شيئاً ما في يده.

«ماذا؟»، سأل تشلدن وهو يفحص بعض المراسلات.

«أريد أن أترك لك بطاقتنا»، قال الرجل، ووضع على طاولة تشلدن بطاقة مربّعة حمراء ورماديّة غريبة المظهر. «إدفرانك لتفصيل المجوهرات حسب الطلب... عليها عنواننا ورقم هاتفنا، إن أردتَ التواصل معنا»، أضاف.

هزّ تشلدن رأسه، وابتسم بصمت، ثمّ انكبّ على المراسلات من جديد. عندما رفع رأسه بعد قليل وحدّق حوله، وجد المتجر خاوياً، لقد غادر المندوب أخيراً.

وضع خمسة بنسات في آلة بيع الشاي، وسكب لنفسه كوباً من الشاي الفوريّ الساخن، ارتشفه متأمّلاً. هل ستباع يا ترى؟! تساءل، لا أعتقد ذلك، على الرغم من أنّها مصنوعة بإتقان، وفريدة من نوعها. تفحّص أحد الدبابيس، تصميمه أنيق بالفعل، ومن صنعه محترفٌ بكلّ تأكيد. سأغيّر الأسعار، وأبيعها بمبلغ أكبر بكثير. سأركّز على أنّها مصنوعة يدويّاً، فريدة من نوعها، أصليّة، ومصمّمة حسب الطلب. سأقول للزبائن إنّها منحوتات صغيرة، بل أعمال فنيّة، ابتكارات مصمّمة لكم خصّيصاً، ترتدونها على معاصمكم أو بزّاتكم.

دارت في ذهنه فكرة أخرى، توضّحت شيئاً فشيئاً: مشكلة الأصليّ والمزيّف غير واردة مع هذه القطع، وهي المشكلة التي ستدمّر سوق الأنتيكات الأمريكيّ يوماً ما... ليس اليوم ولا غداً، لكن لاحقاً. من يعرف؟! الأفضل ألّا أضع كلّ تفّاحاتي في سلّة واحدة، زيارة المحتال اليهوديّ تلك كانت نذيراً... إن استثمرتُ سرّاً في مجال القطع الفنيّة غير التاريخيّة، القطع

العصريّة التي لا علاقة لها بالأصالة التاريخيّة سواء الحقيقيّة أو المُتخيَّلة، فقد أتفوّق على المنافسين... طالما أنّ الأمر لن يكلّفني سنتاً! اتكأ بظهره على الكرسي وسندها إلى الحائط، ثمّ تابع احتساء الشاي.

اللحظة تتغيّر، وعلى المرء أن يكون مستعدّاً للتغيّر معها، وإلّا سيخرج من السباق... على المرء أن يتأقلم! فكّر، قاعدة البقاء هي: أبقِ عينيكَ مفتوحتين على ما يحدث من حولك، اعرِف متطلّباتِ المرحلة، وحقّقها. كن هناك في الوقت المناسب، وقم بما يلزم. كن «ينّياً»، الشرقيّون يدركون هذا، ذوو العيون السوداء الذكيّة «الينّية» هؤلاء...

خطرت له فكرة أخرى، فاعتدل في جلسته على الفور. عصفوران بحجر واحد! آها! وقفز بحماس. سيلفّ أفضل الحليّ بعد أن يزيل بطاقات السعر عنها بالطبع، بروش، قلادة أو إسوارة، قطعة جميلة ما، أيّاً كانت... من ثمّ، بما أنّه يغلق المتجر عند الساعة الثانية ظهراً بأيّ حال، سينطلق مباشرة إلى العمارة التي يقطن فيها آل كاسورا. السيّد بول كاسورا سيكون في عمله، لكنّ السيّدة بتي كاسورا ستكون في شقّتها على الأرجح.

هدية ترويجيّة! سأهديها هذه القطع الفنيّة الأمريكيّة الأصيلة، كمجاملة شخصيّة منّي، وسأبهِرها... هكذا يتمّ تقديم خطّ البضاعة الجديد عادة: أليست جميلة؟ التشكيلة الكاملة متوافرة في المتجر، زورينا... إلخ إلخ، وهذه القطعة هديّة لكِ، يا بتي.! من ثمّ فكّر وهو يرتجف: أنا وهي وحدنا، في شقّتها عند منتصف النهار، وزوجها غائبٌ. هذه الفكرة تصبح أفضل فأفضل! بأيّ حال، ذريعتي مُحْكَمَة!

جلب روبرت تشلدن علبة صغيرة، مع ورق اللفّ وشريط ملوّن، وبدأ بتجهيز هديّة السيّدة كاسورا، تلك المرأة النحيلة الجذّابة ذات البشرة الداكنة، بردائها الشرقيّ الحريريّ، والكعب العالي... إلخ. لعلّها ترتدي اليوم بيجاما قطنيّة فضفاضة طويلة من القطن الأزرق، مهفهفة ومريحة وبيتيّة. آها! فكّر.

لعلّها جرأة مبالغ بها؟! سينزعج زوجها بول، ويستنتج ما يحصل، ثمّ تثور ثائرته. لعلّ الأفضل أن أخطو على مهل، وأن آخذ الهديّة إليه... هل أوصلها إلى مكتبه؟ سأسرد عليه القصّة ذاتها، ثمّ أترك له أن يسلّمها الهدية

دون أن يرتاب بشيء. بعد ذلك، فكّر، أتّصل ببتي هاتفيّاً غداً أو بعد غد، كي أعرف رأيها.

إنّها خطّة أفضل!

***

عندما رأى فرانك فرينك شريكه يسير على الرصيف، أدرك أنّ الأمور لم تسر على ما يرام.

«ماذا حصل؟» سأل وهو يأخذ السلّة من إد، ويضعها في الشاحنة. «يا يسوع المسيح! لقد غبتَ ساعة ونصف! هل استغرق كلّ ذلك الوقت كي يقول لا؟!».

«لم يقل لا» أجابه إد والتعب بادٍ عليه، ثمّ جلس في الشاحنة.

«ماذا قال إذن؟!» سأله فرانك وهو يفتح السلّة، فاكتشف أنّ العديد من القطع الجيّدة اختفت، بل العديد من أفضل ما صنعاه على الإطلاق!

«لقد أخذ الكثير، ما المشكلة؟!»، سأل فرانك.

«سيبيعها بالأمانة»

«ووافقتَ على ذلك؟!» لم يصدّق فرانك أذنيه، «سبق أن ناقشنا الأمر...».

«لا أعرف كيف حصل ذلك»

«يا للمسيح!»

«آسف! لقد تظاهر بأنّه سيشتري، وانتقى قطعاً كثيرة... ظننتُ أنّه سيشتريها!» قال إد، ثمّ جلسا معاً في الشاحنة، صامتَين، لوقت طويل.

***

-10-

أمضى السيّد باينس أسبوعين رهيبَين! لقد اتّصل يوميّاً عند الظهيرة، من غرفة فندقه بلجنة التجارة، كي يستفسر عن السيّد العجوز الياباني، ولم تتغيّر الإجابة مطلقاً: لم يصل! لكنّ صوت السيّد تاغومي أصبح جافّاً، ورسميّاً أكثر مع كلّ يوم.

عندما أوشك السيّد باينس على الاتّصال للمرّة السادسة عشرة، فكّر: عاجلاً أم آجلاً، سيقولون لي إنّ السيّد تاغومي غير موجود، أو أنّه لن يجيب على اتّصالي، وهذه هي النهاية.

ماذا جرى؟! أين السيّد ياتابي؟!

بتصوّر السيّد باينس، ما حصل هو التالي غالباً: موت مارتن بورمان سبّب بلبلة في طوكيو، ولا بدّ أنّ السيّد ياتابي قد انطلق إلى سان فرانسيسكو، لكنّه لم يبتعد أكثر من مسافة يوم واحد فقط عن السواحل اليابانيّة، حين وردته أوامر مختلفة: عُد إلى جزر الوطن بانتظار مشاورات جديدة.

إنّه حظٌّ عاثر، أدرك السيّد باينس، وقد يتسبّب بموتنا!

عليه أن يبقى حيث هو، في سان فرانسيسكو، وأن يحاول ترتيب أمور الاجتماع الذي جاء من أجله. لقد قطع الرحلة بصاروخ اللوفتهانزا من برلين إلى هنا خلال خمس وأربعين دقيقة لا غير، وها هي النتيجة! نحن نحيا في زمن غريب، فكّر، يمكننا أن نسافر حيثما نشاء، حتّى إلى الكواكب الأخرى، من أجل ماذا؟! كي نجلس يوماً بعد يوم، وتنحطّ معنويّاتنا وآمالنا، ونعاني من سأم لا ينتهي... أمّا الآخرون فمشغولون، ولا يجلسون مثلنا منتظرين فحسب.

فتح السيّد باينس نسخة الظهيرة من جريدة نيبون تايمز، وقرأ العناوين الرئيسيّة للمرّة الثانية:

«الدكتور غوبلز مستشاراً للرايخ، حلٌّ مفاجئ لمشكلة القيادة الشاغرة من قبل لجنة الحزب! الخطاب الذي بثّه الراديو بدا حاسماً، جماهير برلين تهلّل، من المتوقّع أن يُدلي المستشار الجديد بتصريح، وقد يسمّي غورنغ رئيساً للبوليس عوضاً عن هايدريش»

قرأ المقال بأكمله، من ثمّ طوى الصحيفة. تناول الهاتف، وطلب من عامل المقسم الاتّصال بلجنة التجارة.

«أنا السيّد باينس. هل لي بالتحدّث مع السيّد تاغومي؟»

«لحظة يا سيّدي»

لكنّها كانت لحظة طويلة!

«السيّد تاغومي يتكلّم»

أخذ السيّد باينس شهيقاً عميقاً، وقال: «اعذرني! هذا الوضع يسبّب الحزن لنا كلينا يا سيّدي»

«أجل يا سيّد باينس؟»

«لقد أبديتَ لي أقصى الترحاب يا سيّدي. يوماً ما، ستفهم الأسباب التي دفعتني إلى تأجيل اجتماعنا إلى أن يصل السيّد العجوز...»

«بكلّ أسف، لم يصل بعد»

أغمض السيّد باينس عينيه، ثمّ قال: «اعتقدتُ أنّه... ربّما، منذ البارحة...»

«أخشى أنّه لم يصل» قاطعه السيّد تاغومي بأقلّ درجة ممكنة من التهذيب، «والآن، اعذرني من فضلك سيّد باينس، لديّ أشغال ملحّة»

«طاب يومك سيّدي»

انقطع الخطّ! لقد أغلق السيّد تاغومي الهاتف دون أن يتمنّى له يوماً طيّباً! وضع السيّد باينس السمّاعة مكانها ببطء.

عليّ أن أتصرّف، لا يمكنني الانتظار أكثر!

لقد أمره رؤساؤه في برلين بشكل قاطع، بعدم التواصل مع الاستخبارات العسكريّة النازيّة تحت أيّ ظرف كان. ببساطة، عليه أن ينتظر إلى أن يتواصل

مع مندوب الجيش الياباني، ويجتمع به، من ثمّ يعود إلى برلين. لم يتوقّع أحد أن يموت بورمان في هذا التوقيت تحديداً، لذلك، لا بدّ له من تجاوز الأوامر السابقة، والاستعانة بحلّ عمليّ بناء على تقديره الشخصيّ للوضع في هذه الحالة، نظراً لعدم وجود من يستشيره.

ينشط عشرة عملاء على الأقلّ في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، يعملون لمصلحة الاستخبارات العسكريّة النازيّة، لكنّ بعضهم -أو جميعهم على الأغلب- معروفون من قبل شعبة الاستخبارات النازيّة المحليّة ورئيسها الكفء برونو ڤوم كروز مير، الذي التقاه السيّد باينس لقاء وجيزاً قبل سنوات، أثناء اجتماع للحزب. إنّه رجل مرموق ومشهور في دوائر الأجهزة البوليسيّة، لأنّه أحبط في عام 1943 مؤامرة بريطانيّة-تشيكوسلاڤيّة لاغتيال راينهارد هايدريش، أي أنّه أنقذ حياة الجلّاد كما يقال. بأيّ حال، برونو ڤوم كروز مير يتسلّق حاليّاً سلّم النفوذ والسلطة في جهاز الاستخبارات النازيّ، وهو ليس مجرّد بيروقراطيّ من رجال البوليس، بل رجل خطر بالأحرى.

على الرغم من الاحتياطات كلّها، سواء التي اتّخذتها الاستخبارات العسكريّة في برلين، أو التوكوكا[1] في طوكيو، من المحتمل أنّ شعبة الاستخبارات النازيّة المحليّة تملك معلومات عن اجتماع السيّد باينس المرتقب في سان فرانسيسكو، الذي سيُعقَد في مبنى لجنة التجارة السامية، لكنّ سان فرانسيسكو تابعة لليابانيّين، ولا تملك الاستخبارات النازيّة المحليّة صلاحيةَ للتدخّل هنا. أقصى ما يمكنها القيام به، هو اعتقال الطرف الألمانيّ -أي السيّد باينس شخصيّاً في هذه الحالة- ما إن تطأ قدمه مقاطعة تابعة للرايخ، ولا يسعها اتّخاذ أيّ إجراء بحقّ الطرف الياباني، ولا منع انعقاد الاجتماع... على الأقلّ، هذا ما يأمله السيّد باينس.

هل يعقل أنّ الاستخبارات النازيّة اعتقلت العجوز الياباني، في نقطة

1- Tokubetsu Kōtō Keisatsu، أو Tokkō: يعني حرفيّاً «الشرطة السريّة العليا»، وهو جهاز تأسّس عام 1911، كان مسؤولاً عن التحقيق بالجرائم، ومراقبة الجماعات السياسيّة والإيديولوجيّات التي تهدّد النظام الاجتماعيّ في إمبراطوريّة اليابان، ومكافحة التجسّس. يُعَدّ بمنزلة الجهاز المدنيّ المكافئ للاستخبارات العسكريّة «الكيمبتاي». المترجمة

ما من رحلته؟! الرحلة طويلة جدّاً من طوكيو إلى سان فرانسيسكو، خاصّة بالنسبة إلى رجل مسنّ ضعيف، غير قادر على تحمّل مشقّات السفر جوّاً.

ما ينبغي القيام به، قرّر السيّد باينس، هو أن أستعلم من رؤسائي ما إذا كان السيّد ياتابي قادماً أم لا. إنّهم يعرفون ذلك بكلّ تأكيد، كما سيتمّ إبلاغهم إن اعتقلته الاستخبارات النازيّة، أو إن أمرته الحكومة اليابانيّة بالعودة. لو وقع بيد الاستخبارات النازيّة فعلاً، أدرك، سيعتقلونني أنا لا محالة!

الوضع ليس ميئوساً منه بعد، على الرغم من كلّ ما سبق، فقد خطرت له فكرة جيّدة وهو ينتظر يوماً بعد يوم، وحيداً في غرفته في فندق أبيراتي: الأفضل أن أنقل معلوماتي للسيّد تاغومي، على أن أعود إلى برلين دون أن أقوم بأيّ شيء. على الأقلّ، قد تصل المعلومات في نهاية المطاف إلى الشخص المطلوب، ولو أنّه احتمال ضئيل! نقطة الضعف في فكرته هذه، هي أنّ السيّد تاغومي ليس صاحب القرار، ولا يسعه في أفضل الأحوال إلّا أن يسمع ما سيقوله السيّد باينس، ويحفظ المعلومات عن ظهر قلب، ثمّ ينطلق بأقرب وقت ممكن في رحلة عمل إلى جزر الوطن، حيث يتبوّأ السيّد ياتابي المسؤوليّة، وبوسعه أن يسمع وأن يفعل.

بكلّ الأحوال، هذه الخطّة البديلة أفضل من لا شيء. الوقت يفوته، ومن غير الوارد أن يعيد العمليّة برمّتها من الصفر، أي أن يرتّب لقاء جديداً دقيقاً بين طرف ألمانيّ وطرف ياباني، وأن يتكبّد مجدّداً مشقّات الإعداد له بحذر طيلة أشهر.

سيُصعَق السيّد تاغومي حتماً، فكّر السيّد باينس بمرارة، حين توضع بين يديه فجأة معلومات من هذا النوع، مختلفة اختلافاً جذريّاً عن تلك المتعلّقة بقوالب الصبّ. قد يصاب بانهيار عصبيّ، ويفشيها لمن حوله، أو ينسحب متظاهراً -حتّى لنفسه- بأنّه لم يسمعها أصلاً. ببساطة، سيرفض أن يصدّقني! سيقف، وينحني، من ثمّ يعتذر ويهرب من الغرفة ما إن أبدأ بالكلام. فعلٌ طائش! هكذا سينظر إلى المسألة، إذ لا يُفتَرض به أن يسمع تلك المعلومات... بوسعه أن ينسحب على الفور، أدرك السيّد باينس، الوضع سهل جدّاً بالنسبة له، ليته كذلك بالنسبة لي أنا أيضاً! لكن، إن فكّرنا بالمسألة، الانسحاب ليس

خياراً متاحاً أمام السيّد تاغومي، وضعه لا يختلف عن وضعي! بمقدوره أن يُصِمَّ أذنيه عن سماع ما سأخبره به، لأنّ المعلومات ما تزال مجرّد كلمات، أمّا حين تتبلور فيما بعد إلى واقع... ليتني قادر الآن على شرح هذا، سواء للسيّد تاغومي أو لغيره، أيّاً كان من سيسمعني في نهاية المطاف!

غادر السيّد باينس الغرفة، ونزل بالمصعد إلى بهو الفندق. عندما خرج إلى الرصيف، طلب من الحاجب أن يستدعي له درّاجة ثلاثيّة، وسرعان ما انطلق في طريقه إلى شارع ماركت، مع السائق الصينيّ الذي يدوّس بهمّة ونشاط.

«توقّف هنا» أمر السائقَ عندما لمح اللافتة المطلوبة، «توقّف بجانب الرصيف».

توقّفت الدرّاجة الثلاثيّة أمام مضخّة ماء تستخدمها سيّارات الإطفاء، فدفع السيّد باينس أجرة السائق الصينيّ وصرفه. تأكّد من عدم وجود مَن يقتفي أثره، ثمّ تابع طريقه مشياً، ودخل بعد لحظات إلى متجر فوغا الكبير في مركز المدينة. الضجّة مرعبة، والزبائن يملؤون المكان، واقفين هنا وهناك أمام الكاونترات المختلفة. معظم البائعات من العرق الأبيض، أمّا مديرو الأقسام -على قلّتهم- فهم يابانيّون. تاه السيّد باينس في البداية، من ثمّ اهتدى إلى قسم ملابس الرجال، فاتّجه إلى رفّ البناطيل أوّلاً وبدأ يفحصها. اقترب منه موظّف أبيض على الفور، وحيّاه.

«لقد عدتُ لشراء البنطال الصوفيّ الفضفاض، ذي اللون البنيّ الداكن الذي رأيتُه البارحة» قال السيّد باينس، ثمّ نظر إلى عيني الموظّف وأضاف: «أنتَ لستَ الرجل الذي تحدّثتُ معه أمس! إنّه أطول منك، وأميلُ للنحول، وله شارب أحمر. اسمه لاري، كما كُتِبَ على جاكيته».

«إنّه في استراحة الغداء حالياً» أجابه الموظّف، «لكنّه سيعود بعد قليل».

«سأجرّب هذا البنطال في غرفة القياس» قال السيّد باينس وهو يتناول بنطالاً عن العلّاقة.

«بكلّ تأكيد سيّدي»، وأشار الموظّف إلى غرفة قياس شاغرة، ثمّ توجّه صوب زبون آخر.

دخل السيّد باينس إلى غرفة القياس وأغلق بابها، ثمّ جلس على كرسيّ وانتظر. بعد بضع دقائق، قُرِع الباب، ودخل رجل ياباني قصير القامة في أواسط العمر. «هل جئتَ من خارج الولاية يا سيّدي؟» سأل السيّدَ باينس، «هل لي أن أتحقّق من أوراقك الثبوتيّة؟»، وأغلق البابَ خلفه.

أعطاه السيّد باينس محفظتَه، فجلس الياباني على كرسيّ ثانٍ، وبدأ بفحص محتوياتها، ثمّ توقّف عند صورة فتاة، وقال: «جميلة جدّاً».

«ابنتي مارثا»

«أنا أيضاً لديّ ابنة تدعى مارثا» قال الياباني، «إنّها في شيكاغو حاليّاً، حيث تدرس العزف على البيانو».

«ابنتي» قال السيّد باينس، «ستتزوّج قريباً».

أعاد الياباني المحفظةَ إليه، وانتظر بترقّب، فقال السيّد باينس: «أنا هنا منذ أسبوعين، لكنّ السيّد ياتابي لم يظهر بعد. أريد أن أعرف إن كان قادماً أم لا، وماذا ينبغي أن أفعل لو لم يأتِ؟».

«عد غداً بعد الظهر» قال الياباني، ثمّ وقفا كلاهما.

«نهارك سعيد» قال الياباني، فأجابه السيّد باينس: «طاب يومك»، ثمّ خرج من غرفة القياس، وأعاد البنطال إلى مكانه وغادر متجر فوغا.

لم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، فكّر وهو يمشي على الرصيف المزدحم بين بقيّة المشاة في مركز المدينة. هل سيحصل العميل الياباني على المعلومات حقّاً بحلول مساء الغد؟! هل سيتّصل ببرلين، وينقل سؤالي، وينجز كلّ الخطوات اللّازمة بما فيها تشفير المعلومات الصادرة، وفكّ تشفير ما سيرده؟!

أجل، على ما يبدو.

أتمنّى لو أنّني تواصلتُ معه على الفور، لكنتُ وفّرتُ على نفسي الكثير من القلق والتوتّر. الوضع آمن نسبيّاً، والأمور سارت بسلاسة دون أن تستغرق أكثر من خمس أو ستّ دقائق.

تمشّى السيّد باينس في مركز المدينة، تفرّج على واجهات المحلّات،

وشعر بأنّه أفضل حالاً. وجد نفسه يتأمّل إعلانات الكباريهات الرخيصة، التي تعرض صوراً كئيبة مُبقَّعة لنساء عاريات ناصعات البياض، تتدلّى أثداؤهنّ ككرات شبه فارغة من الهواء... أدهشه ما يراه، فتجمّد في مكانه وسط الناس الذين يشقّون طريقهم من حوله في شارع ماركت، متوجّهين إلى أعمالهم.

لقد قام بأمر ما على الأقلّ، أخيراً! يا للراحة!

***

متكئة باسترخاء على باب السيّارة، استغرقت جوليانا في القراءة. إلى جانبها، يتولّى جو القيادة، مرفقه يبرز من النافذة، يده الأخرى تمسك المقود بخفّة، والسيجارة ملتصقة بشفته السفلى. إنّه سائق جيّد بالفعل، فقد قطعا جزءاً كبيراً من الرحلة، منذ أن انطلقا من مدينة كانون سيتي.

راديو السيّارة يبثّ موسيقا فولكلوريّة عاطفيّة، من تلك التي تصدح في مقاهي الحانات التي تقدّم المشروبات في الهواء الطلق: فرقة أكروديون تعزف إمّا مقطوعة بولكا، أو مقطوعة شوتيش لا تنتهي. بأيّ حال، جوليانا عاجزة عن التمييز بينهما.

«موسيقا هابطة!» علّق جو عندما انتهت المقطوعة، «اسمعي، أنا أعرف الكثير عن الموسيقا، سأقول لك من هو أعظم مايسترو، أنتِ لا تتذكّرينه على الأرجح: أرتورو توسكانيني».

«كلّا، لا أتذكّر»، أجابت دون أن تتوقّف عن القراءة.

«كان إيطاليّاً، لكنّ النازيّين منعوه من قيادة الحفلات الموسيقيّة بعد الحرب، بسبب توجّهاته السياسيّة... لقد توفّي. أنا لا أحبّ ڤون كاراجان، مايسترو فرقة نيويورك السمفونيّة الأبديّ. كنّا نذهب لحضور حفلاته، أنا وفريق العمل... أنا أحبّ الحفلات الموسيقيّة السمفونيّة، لأنّني إيطاليّ، كما حزرتِ». رمقها بنظرة، ثمّ سألها: «هل أعجبكِ الكتاب؟».

«إنّه مشوّق»

«أنا أحبّ ڤيردي وبوتشيني، لكنّنا لا نسمع في نيويورك إلّا أعمال ڤاغنر أو أورف المدويّة... كلاهما ألمانيّان مغروران! لقد توجّب علينا الذهاب

كلّ أسبوع حاملين الأعلام والطبول والأبواق والمشاعل، لحضور إحدى المسرحيّات التراجيديّة المبتذلة التي يعدّها الحزب النازيّ في الولايات المتّحدة، وتُعرَض في حديقة ساحة ماديسون. تلك العروض تقدّم تاريخ القبائل القوطيّة أو تفاهة تعليميّة مشابهة، لكنّها تُغنّى عوضاً عن إلقائها إلقاءً عاديّاً، كي تندرج تحت مسمّى العمل الفنيّ. هل رأيتِ نيويورك قبل الحرب؟!»

«أجل»، أجابت جوليانا وهي تحاول أن تقرأ.

«ألم يكن مسرحها مزدهراً آنذاك؟! هذا ما يقولونه. المسرح الآن يشبه صناعة الأفلام، إذ يسيطر عليه الكارتل في برلين. خلال ثلاثة عشر عاماً قضيتها في نيويورك، لم تُعرَض ولو مسرحيّة غنائيّة واحدة جيّدة هناك، فقط تلك الـ...»

«دعني أقرأ»، نهرته جوليانا.

«وصناعة نشر الكتب أيضاً» تابع جو دون أن ينزعج، «يديرها الآن كارتل آخر من ميونخ، وكلّ ما يفعلونه في نيويورك هو طباعتها في تلك المطابع الضخمة. قبل الحرب، كانت نيويورك مركز صناعة نشر الكتب في العالم... كما يقال».

سدّت جوليانا أذنيها بأصابعها كي تحجب صوته، وصبّت تركيزها على الصفحة المفتوحة في حضنها. لقد وصلت إلى مقطع في رواية «الجندب يُستثْقَل» يصف التلفاز الرائع، وهو ما أثار حماسها، خاصّة الجزء المتعلّق بأجهزة التلفاز الرخيصة المخصّصة للشعوب المتخلّفة في آسيا وإفريقيا:

«وحده اليانكي من يعرف كيف يصنع، وكيف يدير نظام الإنتاج بالجملة في ديترويت، شيكاغو، كليفلاند... تلك الأسماء السحريّة! لقد نجح اليانكي، وأرسل -بشهامة تصل إلى حدّ السذاجة- إمدادات لا تنقطع من أجهزة التلفاز الرخيصة تلك، التي لا يتجاوز ثمن كلّ منها دولاراً واحداً (الدولار الصينيّ هو العملة المتداولة) إلى كلّ قرية، وكلّ بقعة في أقاصي الشرق النائيّة. عندما يتمّ تجميع قطع الجهاز في قرية ما، على يد شابّ هزيل متحمّس يتوق للحصول على فرصة -تلك الفرصة التي أتاحها له الأمريكيّون

الكرماء- فإنّ ذلك الجهاز الضئيل المزوّد بمنبع طاقة داخليّ لا يزيد حجمه عن الدحلة، سيبدأ فوراً باستقبال البثّ... وما الذي سيستقبله؟! مقرفصين أمام الشاشة، سيرى شبابُ القرية وكهولها أيضاً في معظم الأحيان، كلماتٍ وتعليمات تشرح لهم كيف يقرؤون أوّلاً، ومن ثمّ الباقي: كيف يحفرون بئراً أعمق، كيف يحرثون الأرض بطريقة أفضل، كيف يعقّمون مياه الشرب، وكيف يعالجون المرضى. فوق رؤوسهم، يدور القمر الصناعيّ الأمريكيّ في مداره، كي ينشر البثّ التلفزيونيّ في كلّ مكان، ويحمله إلى كلّ جماهير المشرق المتعطّشة».

«هل تقرئينه بالترتيب؟» سألها جو، «أم تقفزين من مقطع إلى آخر عشوائيّاً؟».

«إنّه رائع! نحن نرسل الطعام والثقافة إلى الآسيويّين... إلى الملايين منهم».

«عمل خيريّ على نطاق عالميّ!»، قال جو.

«أجل. الصفقة الجديدة[2] برعاية تاغوِل رفعتْ سويّة الجماهير... اسمع»، وقرأت بصوت عالٍ:

«ماذا كانت الصين؟! مجرّد كيان مختلط فقير، يتطلّع قدماً إلى الغرب. قائدها الديمقراطيّ العظيم شيانغ كاي-شيك، الذي قاد الشعب الصينيّ في سنوات الحرب، يقوده الآن خلال سنوات السلام إلى عهد إعادة الإعمار... بالنسبة للصين، إعادة الإعمار غير واردة، لأنّ تلك الأرض الشاسعة الخاوية إلى درجة لا تُعقَل، لم تُبنَ مطلقاً من قبل، بل استلقت هاجعة في حلمها العتيق. إنّها تنهض، أجل، يجب أن يصحو الكيان العملاق صحواً تامّاً، يجب أن يستيقظ ويدخل إلى العالَم المعاصر، بما فيه من طائرات نفّاثة وطاقة نوّويّة

2- سلسلة من البرامج تضمّنت مشروعات العمل الشعبيّ، وإصلاحات اقتصاديّة، وتشريعات وتحالفات سياسيّة أقرّها الرئيس فرانكلين روزفلت بين عامي 1933-1939، بعد فترة الكساد الاقتصاديّ العظيم بهدف «الإغاثة والإنعاش والإصلاح». ركسفورد تاغوِل (1891-1979) كان خبيراً اقتصاديّاً، يعدّ من أوائل الأكاديميّين الذين شكّلوا مجموعة «ثقة العقل» التي لعبت دور المستشار للرئيس روزفلت وساعدت على بلورة الصفقة الجديدة، لكنّه لم يصبح رئيساً في الواقع. المترجمة

وطرقات سريعة ومصانع وأدوية... أين سيقصف الرعد الذي يوقظ العملاق؟! الصين تعرف أين، فحتّى إبّان حقبة نضالها ضدّ اليابان، عرفت أنّ الرعد الذي سيوقظها سيأتي من الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وهكذا، بحلول عام 1950، بدأ الأمريكيّون -تقنيّين ومهندسين ومعلّمين وأطباء وعلماء زراعة- بالتدفّق على كلّ مقاطعة من مقاطعات الصين كأنّهم الحياة الجديدة...».

قاطعها جو قائلاً: «تدركين ماذا فعل الكاتب، أليس كذلك؟ لقد أخذ أفضل ما في النازيّة، أي الاشتراكيّة ومنظّمة تودت والتطوّرات الاقتصاديّة التي حقّقها سبير... لكن إلى من نسب الفضل؟! إلى الصفقة الجديدة تلك، كما أنّه تغاضى عن الجزء السيّئ، أي عن الشوتزشتافل والإبادة العرقيّة والفصل العنصريّ. إنّها يوتوبيا! تخيّلي لو أنّ الحلفاء انتصروا، هل سيقدرون على إنعاش الاقتصاد من خلال الصفقة الجديدة، وتحقيق ذلك التطوّر الاشتراكيّ على صعيد المصلحة العامّة كما يقول الكاتب؟! تبّاً! كلّا. إنّه يتحدّث عن نمط من دولة النقابات، الدولة-الشركة، كتلك التي طوّرها الدوتشي. يقول إنّنا سنحظى بالخير العميم، ولا شيء من...».

«دعني أقرأ!»، زجرته جوليانا بغضب، فهزّ كتفيه دون أن يتوقّف عن الثرثرة، لكنّها عادت إلى الكتاب، وقرأت بصمت:

«أولئك المستهلكون، ملايين البشر في الصين، أطلقوا العنان لعمل المصانع في ديترويت وشيكاغو. ذلك الشدق الصينيّ لن يشبع، أولئك الناس لن يكتفوا ولو خلال مئة عام من الشاحنات أو الطوب أو الفولاذ أو الملابس أو الآلات الكاتبة أو البازلّاء المعلّبة أو الساعات أو الراديوهات أو قطرات الأنف! بحلول عام 1960، تمتّع العامل الأمريكيّ بأعلى مستويات المعيشة في العالم، وهو ما نتج كليّاً عمّا يُشار إليه بلباقة بـ (شرط الدولةِ الأوْلَى بالرعاية[3])، المُدرَج في كلّ التعاملات التجاريّة مع الشرق. لقد

3- بند يتمّ إدراجه في الاتفاقات التجاريّة بين دولتين، بحيث تمنح إحداهما (الطرف المانح) الدولةَ الأخرى (الطرف المستفيد) حقّ الاستفادة أوتوماتيكيّاً من الامتيازات التجاريّة التي تمنحها للدول الأخرى، أي إذا عقدت الدولة (أ) اتفاقاً مع الدولة (ب) يتضمّن هذا الشرط، فإن أيّة ميزة تمنحها الدولة (أ) لدولة ثالثة (ج) ستستفيد منها الدولة (ب) تلقائياً، على اعتبارها أولى بالرعاية من الدولة (ج). المترجمة

انسحبت الولايات المتّحدة الأمريكيّة من اليابان، ولم تحتلّ الصين قط، لكن لا يمكننا إنكار الحقيقة التالية: كانتون وطوكيو وشنغهاي لم تشترِ من البريطانيّين، بل فضّلت المنتجات الأمريكيّة، ومع كلّ صفقة سينعم العامل في بالتيمور أو لوس أنجلوس أو أتلانتا بالمزيد من الرخاء.

يعتقد المخطّطون وأصحاب الرأي في البيت الأبيض أنّهم حقّقوا هدفهم، وأنّ المركبات الفضائيّة سرعان ما ستغادر بحذر لاستكشاف الكون الخالي، منطلقة من عالَم شهد أخيراً نهاية مآسيه الأزليّة: الجوع، الطاعون، الحروب، والجهل. في الإمبراطوريّة البريطانيّة، تمّ اتّخاذ الإجراءات ذاتها على صعيد التطوّر الاقتصاديّ والاجتماعيّ، ممّا حمل رخاء مشابهاً إلى الجماهير في الهند وبورما وإفريقيا والشرق الأوسط. المصانع في كلّ من وادي الرور[4]، مانشستر، سارلاند[5]–فضلاً عن تدفّق النفط من باكو[6]–كلّها تفاعلت بطريقة متداخلة متناغمة فعّالة، فتمتّعت شعوب أوروبا قاطبة بما بدا...»

«يجب أن يصبحوا القادة برأيي» قالت جوليانا ثمّ صمتت، وأضافت بعد لحظة: «لقد كانوا الأفضل دائماً، أولئك البريطانيّون». انتظرت أن يعلّق جو على كلامها، لكنّه لم ينطق، فعادت إلى القراءة:

«بما بدا أشبه برؤية نابليون وقد تحقّقت: التجانس العقلانيّ للسلالات العرقيّة المختلفة، التي تحاربت فيما بينها سابقاً واقتسمت أوروبا منذ انهيار روما، وهذا لا يختلف عن تصوّر شارلمان للأمّة المسيحيّة المتّحدة، التي تحيا في سلام مطلق مع ذاتها، وفي توازن مع العالم بآن واحد. على الرغم ممّا سبق، هناك مشكلة واحدة عصيّة: سنغافورة!

4- منطقة حول نهر الرور في ألمانيا، اشتهرت باستخراج الفحم وصناعة الحديد الصلب. المترجمة

5- مقاطعة صناعيّة غنيّة بمناجم الفحم، اقتُطِعت من ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالميّة الثانية، وخضعت إلى الإدارة الفرنسيّة، من ثمّ انضمّت إلى ألمانيا مجدّداً عام 1957. المترجمة

6- عاصمة أذربيجان. المترجمة

دول المالايو الموحَّدة[7] تضمّ إثنيّة صينيّة كبيرة، ينتمي معظم أفرادها إلى طبقة رجال الأعمال. لقد أدرك هؤلاء البرجوازيّون المجدّون الماهرون، أنّ الشعوب الأصليّة تحظى بمساواة أكبر في ظلّ الإدارة الأمريكيّة للصين، إذ إنّ الأعراق السمراء ممنوعة من دخول النوادي الريفيّة والفنادق والمطاعم الفاخرة في المناطق التي تحكمها بريطانيا، وما زال أبناؤها مُجبَرين كما في العصور الغابرة، على ركوب أقسام مخصّصة لهم في القطارات والباصات، وكذلك -وهو الأسوأ- على الإقامة في أحياء محدّدة من كلّ مدينة. أولئك السكّان الأصليّون حلّلوا وشرحوا في أحاديثهم وفي صحفهم، كيف انتهت مشكلة التمييز العنصريّ بناء على لون البشرة بحلول عام 1950 في أمريكا، وكيف يعيش البيض والزنوج ويعملون ويأكلون جنباً إلى جنب، حتّى في أقاصي الجنوب. الحرب العالميّة الثانية وضعت حدّاً للتمييز العنصريّ....»

«هل هناك مشكلة؟!»، سألت جوليانا، لكنّ جو همهم دون أن يجيبها، وأبقى عينيه على الطريق.

«أخبرني ماذا سيحصل في الرواية» قالت، «أعرف أنّني لن أتمكّن من إنهائها، فسرعان ما سنصل إلى دنفر. هل تستعر الحرب بين أمريكا وبريطانيا، وتصبح إحداهما قائدة للعالم؟!»، فأجابها جو على الفور: «الرواية ليست رديئة، لقد اشتغل الكاتب على التفاصيل كلّها، وفيها تسيطر الولايات المتّحدة على المحيط الباسيفيكيّ، وعلى ما يشبه مجال الازدهار المشترك لشرق آسيا الكبرى[8] في زمننا الحاليّ، كما تقوم بتقسيم روسيا. نجح ذلك طيلة عشر سنوات تقريباً، من ثمّ بدأت المشاكل بطبيعة الحال».

«لماذا بطبيعة الحال؟!»

«إنّها الطبيعة البشريّة» قال جو، «وطبيعة الدول. الشكّ، الخوف،

7- اتحّاد كونفدراليّ أنشأته بريطانيا في شبه الجزيرة الماليزيّة عام 1896، يتألّف من أربع دول: سِلانغور، بِراك، نيجيري سمبِلان، وباهانغ. استمرّ هذا الاتّحاد حتّى عام 1946 حين انضمّ إلى المقاطعات والجزر الأخرى لتشكيل اتّحاد المالايو، الذي تحوّل لاحقاً في عام 1963 إلى دولة ماليزيا الحاليّة. المترجمة

8- مبدأ إمبرياليّ أعلنت عنه الإمبراطوريّة اليابانيّة عام 1941، يهدف إلى إنشاء كتلة آسيويّة بقيادة اليابان، تحقّق الاكتفاء الذاتيّ، ولا تخضع للنفوذ الغربيّ. المترجمة

الطمع... لقد ظنّ تشرشل أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة تقوّض الحكم البريطانيّ في جنوبي آسيا، من خلال استرضاء الإثنيّات الصينيّة الكبيرة، التي تناصر كلّها الولاياتِ المتّحدة بطبيعة الحال، بتأثير من الرئيس الصينيّ شيانغ كاي-شيك. من ثمّ، بدأ البريطانيّون بإعداد...» كشّر جو، ثمّ تابع بعد لحظة: «لقد بدأوا بإنشاء ما سمّوه محميّات احتجاز، أي بعبارة أخرى، معسكرات اعتقال، احتجزوا فيها آلاف الصينيّين المشكوك بولائهم، واتّهموهم بالتجسّس ونشر بروباغاندا معادية. تشرشل هو...».

«تقصد أنّه يبقى في منصبه؟! ألن يكون في حوالي التسعين من عمره آنذاك؟!»

«هنا يكمن تفوّق النظام البريطانيّ على نظيره الأمريكيّ! الولايات المتّحدة الأمريكيّة تغيّر رئيسَها كلّ ثماني سنوات، بغضّ النظر عن كفاءته، أمّا تشرشل فيبقى في منصبه، ولن يقود أمريكا ندٌّ له بعد تاغوِل، بل سيحكمها قادة نكرات. كلّما تقدّم تشرشل في العمر، ازدادت أوتوقراطيّته وتعنّته، حتّى عام 1960. إنّه أشبه بقائد جيش عجوز من آسيا الوسطى، لا يجرؤ أحد على إغضابه، وسيبقى في منصبه عشرين عاماً».

«يا إلهي!» هتفت جوليانا، وهي تقلّب الصفحات باحثة عن دليل عمّا رواه لها جو، إلى أن وصلت إلى نهاية الرواية.

«أنا أوافق الكاتب على هذه النقطة» قال جو، «تشرشل كان القائد الجيّد الوحيد بين البريطانيّين أثناء الحرب، ولكانت حالهم أفضل لو بقي في منصبه. سأقول لكِ، الدولة ليست أفضل من قائدها، إنّه FuhrerprinzipK، أي مبدأ القيادة كما يقول النازيّون، وهم على حقٍّ في ذلك... حتّى أبندسن اضطرّ للاعتراف بصحّة هذا المبدأ. بكلّ تأكيد، توسّعت الولايات المتّحدة الأمريكيّة اقتصاديّاً بعد أن هزمت اليابان في الحرب، لأنّها انتزعت من اليابانيّين ذلك السوق الآسيويّ الضخم، لكنّ هذا لا يكفي، إذ لا روحانيّة فيه... هذا لا يعني أنّ البريطانيّين روحانيّون! البريطانيّون واليابانيّون بلوتوقراطيّون، يحكمهم الأثرياء، وكلّ ما ستفكّر به الطبقة العليا لو انتصرت بريطانيا، هو تكديس المزيد من الثروات. أبندسن على خطأ، لن يحصل

إصلاح اجتماعيّ، ولن تُنفَّذ برامج تعنى بالمصلحة العامّة، البلوتوقراطيّون الأنجلو-سكسونيّون لن يسمحوا بها أبداً».

إنّه يتكلّم كفاشستيّ مخلص! فكّرت جوليانا.

على ما يبدو، قرأ جو أفكارها، فاستدار صوبها وهو يخفّف سرعة السيّارة، عينٌ عليها وعين على الطريق، ثمّ قال: «اسمعيني، أنا لستُ مفكّراً، الفاشيّة لا يلزمها مفكّرون، بل تلزمها الأفعال فقط. النظريّة تُشتَقّ من الفعل، الدولة-الشركة تطالبنا بفهم القوى الاجتماعيّة للتاريخ، هل فهمتِ؟ سأشرح لك، أنا أعرف يا جوليانا!». نبرته حادّة، وكأنه يتضرّع. «تلك الإمبراطوريّات العتيقة العفنة التي يديرها المال، بريطانيا وفرنسا والولايات المتّحدة... على الرغم من أنّ هذه الأخيرة هي مجرّد تبرعم جانبيّ حقير، وليست إمبراطوريّة بالمعنى الحرفيّ، على الرغم من أنّ المال يحكمها أيضاً. تلك الإمبراطوريّات بلا روح، وبالتالي لا مستقبل أمامها ولا نموّ، أمّا النازيّون فهم مجموعة من بلطجيّة الشوارع. أنا أتّفق مع أبندسن، هل أنت موافقة؟ حسناً».

ابتسمت جوليانا رغماً عنها، طباعه الإيطاليّة أكسبته زخماً في محاولته أن يسوق وأن يلقي عليها هذا الخطاب في آن واحد.

«يكتب أبندسن وكأنّ انتصار الولايات المتّحدة أو بريطانيا هو الأهمّ في نهاية المطاف! هراء! كلامه لا خير فيه ولا دليل عليه، فلا فرق بين انتصار هذه أو انتصار تلك! هل قرأت يوماً ما كتبه الدوتشي؟ إنّه رجل جميل مُلهِم، وكتاباته جميلة أيضاً، تشرح الوقائع الحقيقيّة الكامنة خلف كلّ ما يحدث... الأمر الأهمّ خلال الحرب كان: القديم ضدّ الجديد. المال -ولذلك ارتكب النازيّون خطأً بإقحام المسألة اليهوديّة فيما يحصل- المال ضدّ الروح الجماعيّة المشتركة التي يسمّيها النازيون بـ Gemeinschaft، أي المجتمع، أو الكومونة كما يسمّيها السوفيات، أليس كذلك؟ الفرق الوحيد هو أنّ الشيوعيّين غلّفوا بها طموحاتِ بطرس الأكبر بإنشاء إمبراطوريّة توحّد السلافيّين جميعهم، ونفّذوا إصلاحات اجتماعيّة تتماشى مع طموحاتهم الإمبرياليّة تلك».

كما فعل موسوليني بالضبط! فكّرت جوليانا.

«البلطجة النازيّة هي مأساة!» غمغم جو وهو يتجاوز شاحنة تسير ببطء، «لكنّ التغيّرات تكون أقسى على الخاسر، كما هو معروف. فكّري بالثورات السابقة، كالثورة الفرنسيّة مثلاً أو ثورة كروميل ضدّ الإيرلنديّين: الطبع الألمانيّ مشبع بفائض من الفلسفة، وبفائض من المسرح أيضاً... كلّ تلك المسيرات! لن تجدي فاشيّاً حقيقيّاً واحداً يثرثر، الفاشيّون أرباب فعلٍ لا قول... مثلي أنا، ألا تظنّين ذلك؟».

«يا إلهي!» أجابت جوليانا ضاحكة، «أنت تتكلّم بسرعة ميل في الدقيقة!»، فصرخ جو بحماس: «أنا أشرح لكِ نظريّةَ الفعلِ الفاشيّة!».

ضحكت جوليانا إلى حدّ أنّها لم تستطع أن تنطق، لكنّ هذا الرجل الذي يجلس بجوارها لا يعتقد أنّ الأمر طريف! حدّق إليها غاضباً، احمّر وجهه، ونفرت العروق على جبهته، ثمّ بدأ يرتجف وهو يمرّر أصابعه على فروة رأسه، للأمام وللخلف، دون أن يتكلّم... بل حدّق إليها فقط!

«لا تكن لئيماً!» قالت، وظنّت لوهلة أنّه سيضربها، فقد أرجع ذراعه للخلف... لكنّه أطلق زفرة، من ثمّ مدّ يده إلى الراديو ورفع الصوت.

تابعا الطريق، الراديو يبثّ موسيقا وشواشاً أحياناً، وحاولت جوليانا أن تركّز على الكتاب من جديد.

«أنت محقّة!»، قال جو بعد انقضاء فترة طويلة.

«بخصوص ماذا؟!»

«إمبراطوريّة هامشيّة، قائدها مهرّج... لا عجب أنّنا لم نربح شيئاً من الحرب!»

ربّتت جوليانا على ذراعه.

«جوليانا! الظلام يحيط بنا» هتف جو، «ولا شيء حقيقيّ أو مضمون. أليس كذلك؟».

«ربّما» أجابته شاردة الذهن، وحاولت أن تركّز في الكتاب.

«ينتصر البريطانيّون هنا» قال جو وهو يشير إلى الرواية، «سأوفّر عليك عناء القراءة: الولايات المتّحدة تتداعى، تستمرّ بريطانيا بشنّ الحروب وتتوسّع، ولا تخمد دوافعها... لذلك، ضعي هذا الكتاب من يدك».

«أتمنّى أن نحظى بالمرح في دنڤر» قالت وهي تغلق الكتاب، «أنت بحاجة إلى الاسترخاء، وأنا أريدك أن تسترخي». إن لم تسترخِ، فكّرت، ستتفجّر إلى مليون قطعة، ستتفجّر كينبوع، وماذا سيحلّ بي آنذاك؟! كيف أرجع؟ هل أتركك فحسب؟! أرغب بقضاء وقت طيّب كما وعدتني، ولا أريد أن أتعرّض للخداع هذه المرّة، كما خدعني الكثيرون من قبل!

«أجل بلا شكّ» أجاب جو، «اسمعيني!» وتأمّلها بنظرة فاحصة غريبة، «لقد أعجبتكِ رواية الجندب يستثقل كثيراً. أتساءل هل... هل تعتقدين أنّ رجلاً يؤلّف رواية تحقّق أفضل المبيعات، كاتب كأبندسن ذاك... هل تعتقدين أنّ القرّاء يراسلونه؟! أراهن بأنّ العديد منهم يمدحون روايته في رسائلهم، بل وربّما يزورونه أيضاً».

فهمت جوليانا ما يقصده على الفور، فقالت: «جو! لا يبعد مسكنه سوى مئة ميل إضافيّة»، فبرقت عيناه وابتسم لها. غمرته السعادة مجدّداً، وتلاشى غضبه وقلقه.

«بوسعنا أن نزوره» قالت، «أنت سائق ماهر، ولن نعاني صعوبة بالوصول إلى هناك، أليس كذلك؟».

«حسناً، أشكّ بأنّ رجلاً مشهوراً مثله يسمح للناس بزيارته... الكثيرون يمرّون به على ما أعتقد»، أجابها جو على مهل.

«لِمَ لا نحاول؟! جو...». أمسكته من كتفه، ثمّ قرصته بحماس، «أسوأ ما قد يقوم به هو أن يطردنا. هيّا، أرجوك!»، فردّ جو بحكمة: «بعد أن ننتهي من التسوّق وشراء ثياب جديدة، سنتأنّق... هذا مهمّ، كي نعطيه انطباعاً جيّداً عنّا، وقد نستأجر سيّارة جديدة هناك في شايان. يمكنكِ استئجار واحدة، أليس كذلك؟».

«أجل» قالت، «ينبغي أن تقص شعرك أيضاً، واترك لي مهمّة انتقاء ثيابك من فضلك يا جو، لقد اعتدتُ على شراء ملابس فرانك، الرجال لا يعرفون أبداً كيف يتأنّقون!».

«ذوقك جيّد بالنسبة للملابس» قال جو وهو يركّز على الطريق أمامه من جديد، ويحدّق إليه بأسى. «وبالنسبة للأمور الأخرى أيضاً! من الأفضل أن تتصلي به وتتواصلي معه».

«سأصفّف شعري»، قالت.

«حسناً»

«أنا لستُ خائفة من الذهاب إلى بيته، وقرع بابه!» قالت جوليانا، «أقصد، يعيش المرء مرّة واحدة فقط. لماذا نرْهَبه؟! إنّه مجرّد إنسان مثلنا، وقد يسعد عندما يعرف أنّ شخصاً ما قطع كلّ هذه المسافة، فقط كي يخبره كم أعجبته الرواية! ربّما يوقّعها لنا، على الصفحة الداخليّة المخصّصة للإهداء. أليس هذا ما يفعله الكتّاب؟! الأفضل أن نشتري نسخة جديدة، هذه مبقّعة ولا تصلح لذلك».

«أيّاً كان ما ترغبين به» قال جو، «سأترك لكِ أن تقرّري التفاصيل. أعرف أنّك قادرة على القيام بذلك، لأنّ الفتيات الجميلات ينتصرن دائماً... سيفتح لك الباب على مصراعيه لأنّك حسناء، لكن اسمعي، لا ألاعيب! مفهوم؟».

«ماذا تقصد؟»

«ستقولين له إنّنا متزوّجان، ولا أريدك أن تخالطيه... تفهمين ما أقصد! سيكون ذلك أمراً رهيباً يدمّرنا كلّنا. لعلّه يحسب العلاقة أصلاً بمنزلة مكافأة له، على سماحه للزوّار بالدخول، كأنّه يسخر منهم... لذلك، انتبهي جوليانا!».

«يمكنك أن تتناقش معه حول الجزء الذي تخسر فيه إيطاليا لأنّها تخون المحور، أخبِرْه برأيك»، قالت جوليانا.

هزّ جو رأسه موافقاً، وقال: «أجل، بوسعنا أن نناقش المسألة بأكملها»، وتابعا طريقهما مسرعين.

***

في السابعة صباحاً بتوقيت الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، قام السيّد نابوسكي تاغومي من سريره، واتّجه إلى الحمّام، لكنّه غيّر رأيه ومضى مباشرة لاستخارة كتاب التنبّؤات. جلس متصالب الساقين على الأرض في غرفة الجلوس، وبدأ بترتيب عيدان الياروِ التسعة والأربعين، يدفعه إحساس عميق بأنّ أسئلته ملحّة. عمل بسرعة، إلى أن ظهرت أمامه خطوط الهكساغرام الستّة أخيراً.

يا للصدمة!

الهكساغرام الحادي والخمسون:

يظهر الله في علامة الاستنارة، برق ورعد، أصوات -سدّ السيّد تاغومي أذنيه بأصابعه لا شعوريّاً- ها ها! هُوْ هُوْ! انفجار ضخم يجعله يرمش ويزمّ عينيه، السحالي تصأصئ والنمور تزمجر، وها هو الله بحدّ ذاته يظهر.

ماذا يعني هذا؟! تساءل السيّد تاغومي في غرفة جلوسه، من سيصل؟! وقفز واقفاً، ثمّ وقف وهو يلهث، وانتظر.

لا أحد!

تسارع نبضه، وغمره العرق، وانطلقت العمليّات الانعكاسيّة المختلفة في جسده، خاصّة تلك التي يتحكّم بها الدماغ البينيّ، والتي تمثّل استجابة للشدّة: إفراز الأدرينالين، تسرّع القلب، إفرازات الغدد، شلل الحنجرة، حملقة العينين، تسارع حركة الأمعاء... إلخ، فضلاً عن الشعور بالغثيان وتثبيط الرغبة الجنسيّة.

مع ذلك، لا شيء تراه العين، ولا فعل يقوم به الجسد! هل يركض؟! لقد تأهّب جسده كي يركض مرتعباً، لكن إلى أين؟! ولماذا؟! سأل السيّد تاغومي نفسه. لا دليل أمامه، لذلك يستحيل أن يقوم بأيّ فعل. إنّها محنة الرجل المتحضّر: الجسد على أهبة الاستعداد، لكنّ الخطر مجهول!

ذهب إلى الحمّام، وبدأ بفرك رغوة الصابون على وجهه كي يحلق ذقنه، وعندها رنّ الهاتف.

يا للصدمة! قال بصوت عال وهو يرمي الشفرة من يده، تأهّبْ! خرج من الحمّام بسرعة إلى غرفة الجلوس. أنا جاهز! قال بصوت عال، ورفع السمّاعة.

«تاغومي يتكلّم»، تقطّع صوته، فتنحنح كي ينظّف حنجرته.

ساد صمت مؤقت، ثمّ قال صوت جافّ خافت أشبه بالحفيف، كأنّه صوت أوراق الشجر القديمة في البعيد: «سيّدي، أنا شنجيرو ياتابي، لقد وصلتُ إلى سان فرانسيسكو».

«لجنة التجارة السامية ترحّب بك» قال السيّد تاغومي، «يسعدني وصولك للغاية، آمل أنّك مرتاح وبصحّة جيّدة؟».

«أجل سيّد تاغومي، متى سألتقي بك؟»

«فوراً، خلال نصف ساعة» أجاب السيّد تاغومي وهو يحاول استراق النظر إلى ساعة غرفة النوم، «ينبغي أن أخبر طرفاً ثالثاً بقدومك، هو السيّد باينس. قد نتأخّر، ولكن...».

«إذن، هل نلتقي في غضون ساعتين يا سيّدي؟»، سأل السيّد ياتابي.

«أجل»، أجابه السيّد تاغومي وهو ينحني.

«في مكتبك في نيبون تايمز»

انحنى السيّد تاغومي مرّة أخرى، قبل أن يغلق السيّد ياتابي الخطّ.

سيُسَرّ السيّد باينس، فكّر السيّد تاغومي، سيسعد كقطّة اعتادت أن يلقوا إليها بقطع من سمك السلمون، لكنّها ظفرت بفأر سمين لذيذ هذه المرّة! ثمّ اتصل بفندق أديراتي على عجل.

«انتهت المشكلة!»، هتف ما إن سمع صوت السيّد باينس الناعس.

«هل وصل؟!» هتف السيّد باينس، وبدا أنّه استيقظ تماماً.

«اللقاء في مكتبي» قال السيّد تاغومي، «في العاشرة وعشرين دقيقة. إلى اللقاء» ثمّ وضع السمّاعة مكانها، وهرول إلى الحمّام كي يكمل الحلاقة. لا وقت لتناول الفطور، فكّر، سأطلب من السيّد رامسي أن يهتمّ بذلك بعد أن يصل الضيفان إلى المكتب، وسنتناول ثلاثتنا فطوراً شهيّاً!

تخيّل المأدبة العامرة في ذهنه، وهو يحلق ذقنه.

فرك السيّد باينس -الذي يقف بالبيجاما إلى جانب الهاتف- جبينه وفكّر: يا للعار! لقد انهرتُ وتواصلتُ مع ذلك العميل، ليتني انتظرتُ يوماً واحداً فقط!

لم يقع ضرر على الأغلب، لكن يفترض به أن يعود إلى متجر فوغا عصراً. وإن لم أذهب؟! تساءل، سيثير غيابي سلسلة من ردود الأفعال، سيعتقدون أنّني قُتِلتُ، أو شيئاً ما من هذا القبيل، وسيحاولون اقتفاء أثري... لا يهمّ! المهمّ أنّه هنا أخيراً، وأنّ الانتظار انتهى.

أسرع إلى الحمّام كي يحلق ذقنه.

أعتقد أنّ السيّد تاغومي سيتعرّف إليه فوراً ما إن يلتقي به، فكّر، بوسعنا أن نتخلّى عن حِيلة «السيّد ياتابي» الآن. في الواقع، بوسعنا جميعنا أن نكشف عن هويّاتنا الحقيقيّة!

قفز إلى الدوش ما إن انتهى من الحلاقة، فانهمر الماء عليه وهو يغنّي بأعلى صوته:

Wer reitet so spät durch Nacht und Wind?

Es ist der Vater mit seinem Kind[9]

لقد فات الأوان حالياً بالنسبة للاستخبارات النازيّة على القيام بأيّ شيء، فكّر، حتّى ولو اكتشفت ما يحصل. لذلك، لِم لا أكفّ عن القلق؟! لم لا أكفّ على الأقلّ عن القلق لأتفه الأسباب: القلق الشخصيّ المحدود على حياتي؟!

أمّا بالنسبة لبقيّة الأسباب التي يجب أن أقلق بشأنها، فقد بدأنا للتوّ!

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

9- «من يركب حصانه في هذا الوقت المتأخر، في الليل والرياح؟ / إنّه الأب، وطفله» مفتتح قصيدة عنوانها Erlkönig للشاعر الألمانيّ غوته، تدور عن مقتل طفل على يد كائن خرافيّ، هو ملك العفاريت. المترجمة

-11-

المهمّة الأولى التي بدأ بها هوغو ريس -قنصل الرايخ في سان فرانسيسكو- يومه، كانت مفاجأة مزعجة! ما إن وصل إلى مكتبه حتّى وجد ضيفاً بانتظاره: رجل ضخم في أواسط العمر، ذو فكٍّ بارز وجلد تغطّيه الندبات، يقطّب بامتعاض ممّا يجعل حاجبيه الأسودين الأشعثين يتلاقيان معاً. وقف الضيف ورفع ذراعه بتحيّة الحزب، مغمغماً في الوقت ذاته: «يحيا هتلر».

«يحيا» قال ريس، وشعر بالانقباض، لكنّه حافظ على ابتسامة رجل الأعمال الرسميّة على وجهه. «هر كروز ڤوم مير! لقد فاجأتني! هل لك بالدخول؟»، وفتح باب المكتب الداخليّ متسائلاً أين يختفي نائبه، ومن الذي سمح لرئيس شعبة الاستخبارات النازيّة المحليّة بالدخول. بأيّ حال، الرجل هنا، ولا يسعه القيام بشيء حيال ذلك.

تبعه كروز ڤوم مير وهو يدسّ يديه في جيبي معطفه الصوفيّ الداكن، وقال: «اسمع فرايهر، لقد عثرنا على رجل الاستخبارات البحريّة العسكريّة ذاك، رودولف ڤيغنر. لقد ظهر في مركز قديم للاستخبارات العسكريّة يخضع لمراقبتنا». قهقه كاشفاً عن أسنان ذهبيّة ضخمة، ثمّ أضاف: «لقد تعقّبناه إلى الفندق الذي يقيم فيه!».

«جيّد!» قال ريس، ولاحظ أنّ البريد موضوع على طاولة مكتبه. إذن، بفردهوف موجود هنا في مكان ما، ولا ريب أنّه أبقى المكتب مقفلاً كي لا يفتّشه رئيس شعبة الاستخبارات النازيّة خلسة.

«إنّها مسألة هامّة!» قال كروز ڤوم مير، «لقد أبلغتُ كالتنبرنر[1] بها، لأنّها تحظى بالأولويّة المطلقة. ستتلقّى على الأرجح أوامر من برلين خلال وقت قصير، إلّا إن أفسد أولئك الحثالة هناك كلّ شيء!». جلس فوق طاولة القنصل، وأخرج من جيب معطفه ورقة مطويّة، فردها بحماس، وقال: «اسمه الحركيّ هو باينس، يدّعي أنّه صناعيّ سويديّ، أو مندوب مبيعات، أو صاحب مهنة ما لها علاقة بالصناعة. تلقّى اتّصالاً هاتفيّاً من موظّف ياباني في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة صباح اليوم، بخصوص موعد في الساعة العاشرة وعشرين دقيقة في مكتب اليابانيّ. نحن نعمل على تعقّب المكالمة، وقد ننجح باكتشاف مصدرها خلال نصف ساعة... سيبلغني رجالي بذلك».

«فهمتُ»، قال ريس.

«والآن، بوسعنا أن نعتقل هذا الرجل» تابع كروز ڤوم مير، «ومن ثمّ نرسله فوراً إلى الرايخ على متن أوّل صاروخ لوفتهانزا مغادر. بأيّ حال، قد يحتجّ اليابانيّون أو حكومة ساكرامنتو على ذلك، ويحاولون إيقافنا. سيبلّغونك أنت باحتجاجهم، وقد يضغطون عليك بشدّة، كما أنّهم سيرسلون شاحنات مليئة ببلطجيّة التوكوكا إلى المطار».

«ألا يمكنك أن تعتقله سرّاً؟»

«فات الأوان. لا بدّ أنّ الرجل في طريقه إلى الموعد الآن، وقد نضطرّ لاعتقاله هناك عندما يصل... نقتحم المكان، نقبض عليه، وننسحب».

«لا يعجبني هذا» قال ريس، «لنفترض أنّه سيقابل ضابطاً يابانيّاً رفيع المستوى؟ سمعتُ إشاعة منذ أيّام، عن أنّ ممثّل الإمبراطور موجود شخصيّاً في سان فرانسيسكو...».

قاطعه كروز ڤوم مير: «لا يهمّ، إنّه مواطن ألمانيّ، ويخضع لقانون الرايخ». ونحن نعرف ما هو قانون الرايخ! فكّر ريس.

«فرقة الكوماندوس جاهزة» تابع كروز ڤوم مير، «خمسة رجال جيّدين».

1- إرنست كالتنبرنر (1903-1945) ضابط نازيّ نمساويّ الأصل، شغل مناصب عليا في الرايخ، وكان رئيس مكتب الأمن النازيّ الذي تتبع له أجهزة أخرى كالغستابو والاستخبارات النازيّة. المترجمة

قهقه ثمّ أضاف: «يشبهون عازفي الكمان، وجوههم نحيلة، جميلة، وشجيّة... لعلّهم أشبه بالطلّاب الذين يدرسون الروحانيّات. سيدخلون المبنى، وسيعتقد اليابانيّون أنّهم رباعيّ وتريّ...»

«خماسيّ!»، صحّح له ريس.

«أجل، سيدخلون مباشرة دون أن يلفتوا النظر، لأنّهم يلبسون ثياباً ملائمة»، وتفحّص القنصلَ بنظراته وقال: «لقد تأنّقوا مثلك».

شكراً لك، فكّر ريس.

«سيتوجّهون مباشرة في وضح النهار، وعلى مرأى من الجميع، إلى ڤيغنر ذاك. سيطوّقونه كأنّهم يبلّغونه برسالة هامّة...» ثرثر كروز ڤوم مير، بينما بدأ القنصل بفحص بريده الوارد. «لا عنف! فقط: هر ڤيغنر، تعال معنا من فضلك، أنت تفهمنا. من ثمّ، يتلقّى طعنة صغيرة بين فقراته، وهووب... تُشلّ العقد العصبيّة العليا[2]».

اكتفى ريس بهزّ رأسه.

«هل أنت مصغٍ؟!»

«بكلّ تأكيد»

«من ثمّ يخرجون إلى السيّارة، وبعدها إلى مكتبي. ستثور ثائرة اليابانيّين، لكنّهم سيبقون مهذّبين حتّى النهاية». قفز كروز ڤوم مير عن طاولة السفير كي يقلّد كيف ينحني اليابانيّون، قائلاً: «قيامكم بخداعنا يا هر كروز ڤوم مير، هو أمر سوقيّ! بأيّ حال، باي باي هر ڤيغنر..».

«باينس» قاطعه ريس، «ألا يستعمل اسمه الحركيّ؟».

«باينس! آسفون لرؤيتك تغادر هر باينس، ربّما نتجاذب أطراف الحديث عندما نلتقي في المرّة القادمة...»

رنّ الهاتف الموجود على طاولة القنصل، فتوقّف كروز ڤوم مير عن

2- عقد عصبيّة موجودة بجوار الفقرات، تشكّل جزءاً من الجهاز العصبيّ الودّي اللّاإراديّ. العقد التي تتوضّع في أعلى العمود الفقريّ تساهم بالتحكّم بالأعضاء المهمّة، كالقلب والشريان الأبهريّ والرئتين. المترجمة

الثرثرة وقال: «لعلّ المكالمة لي!». حاول أن يجيب، لكنّ ريس تمكّن من التقاط السمّاعة قبل أن تطالها يده.

«ريس يتكلّم»

قال صوت غير مألوف: «أيّها القنصل، معك مقسم المكالمات الدوليّة في نوڤا سكوتيا. هناك مكالمة عاجلة لك من برلين عبر الأطلسيّ».

«حسناً»، أجاب ريس.

«لحظة من فضلك أيّها القنصل». سمع ريس شواشاً خافتاً وطقطقة أسلاك، ثمّ قال صوت آخر، صوت عاملة مقسم هذه المرّة: «هنا المستشاريّة».

«نعم، هذا هو مقسم المكالمات الدوليّة في نوڤا سكوتيا، اتّصال هاتفيّ لقنصل الرايخ هوغو ريس في سان فرانسيسكو، القنصل معي على الخطّ».

«ابقَ على الخطّ» قال صوت عاملة المقسم، ثمّ ساد صمت طويل تابع خلاله هوغو ريس تفحّص بريده الوارد بيده التي لا تحمل السمّاعة، تحت نظرات كروز ڤوم مير الذي يراقبه بتثاقل.

«سيّدي القنصل، آسف لأنّني أقاطعك» قال صوت رجل أخيراً، فتجمّد الدم في عروق ريس على الفور. الصوت جهير، انسيابيّ، ينمّ عن الرقيّ، ويعرفه ريس جيّداً...

«الدكتور غوبلز يتكلّم»

«أجل أيّها المستشار»، قال ريس، بينما ارتسمت الابتسامة شيئاً فشيئاً على وجه كروز ڤوم مير، الذي أطبق فمه الفاغر أخيراً.

«طلب منّي الجنرال هايدريش للتوّ أن أتّصل بك. هناك عميل من الاستخبارات البحريّة العسكريّة موجود حاليّاً في سان فرانسيسكو، اسمه رودولف ڤيغنر. نطلب منك أن تتعاون تعاوناً مطلقاً مع البوليس فيما يتعلّق به، لا وقت كي أشرح لك التفاصيل. ببساطة: ضع مكتبك تحت تصرّفهم، ولك جزيل الشكر».

«فهمت، يا سيادة المستشار»، قال ريس.

«طاب يومك أيّها القنصل»، وأغلق مستشار الرايخ الخطّ.

رمقه كروز ڤوم مير بترقّب وهو يضع السمّاعة مكانها، وسأله: «هل كنتُ على حقّ؟».

«لا خلاف بيننا»، قال ريس وهو يهزّ كتفيه.

«اكتب لنا تفويضاً يخوّلنا ترحيل ڤيغنر هذا إلى ألمانيا بالقوّة»

التقط ريس قلمه، كتب التفويض ووقّعه، ثمّ سلّمه إلى رئيس شعبة الاستخبارات النازيّة.

«شكراً لك» قال كروز ڤوم مير، «والآن، عندما تتّصل بك السلطات اليابانيّة لتقديم شكوى...».

«إن اتّصلتْ»

«سيتّصل اليابانيّون، وسيحضرون إلى مكتبك في غضون ربع ساعة بعد أن نقبض على ڤيغنر»، قال كروز ڤوم مير، وقد اختفى أسلوبه الضاحك التهريجيّ كليّاً.

«لا يوجد خماسيّ وتريّ للكمان»، قال ريس.

لم يعلّق كروز ڤوم مير على هذه النقطة، بل أضاف: «سنقبض عليه في وقت ما خلال هذا الصباح، لذلك كن مستعدّاً. قُلْ لليابانيّين إنّه مثليٌّ، أو محتال، أو أيّ شيء من هذا القبيل، وأنّه مطلوب بتهمة ارتكاب جريمة شنيعة في الوطن. لا تقل لهم إنّه مطلوب لارتكابه جرائم سياسيّة، تعرف أنّهم لا يفهمون 90% من القانون الاشتراكيّ القوميّ».

«أعرف ذلك» أجاب ريس، «وأعرف ما ينبغي عليّ فعله». انزعج، وشعر بأنّهم استغلّوه مرّة أخرى. لقد تجاوزني كالعادة! فكّر، واتّصل بالمستشاريّة مباشرة... أوغاد!

يداه ترتجفان، هل اتّصال الدكتور غوبلز هو السبب؟! هل أرعبني الدكتور العظيم؟! أم لعلّه الامتعاض، وشعوري بأنّني محاصَر... تباً لرجال البوليس هؤلاء! فكّر، قوّتهم تتزايد يوماً بعد يوم، وغوبلز يعمل لمصلحتهم أصلاً... إنّهم يحكمون الرايخ! لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟! ماذا بوسع أيّ شخص أن يفعل؟! من ثمّ قال لنفسه مستسلماً: الأفضل أن أتعاون معهم!

سأقف في صفّ هذا الرجل، لأنّه قادر على تحقيق كلّ ما يريده هناك في ألمانيا على ما يبدو، بما في ذلك طرد كلّ أعدائه.

أخيراً، قال بصوت عالٍ: «أرى أنّك لم تبالغ بأهميّة هذه المسألة، يا سيادة قائد البوليس. من الواضح أنّ أمن ألمانيا بحدّ ذاته، يعتمد على سرعتك باكتشاف هذا الجاسوس أو الخائن أو أيّاً كان». بينه وبين نفسه، شعر بالقرف لسماع الكلمات التي خرجت من فمه.

بأيّ حال، بدا كروز ڤوم مير سعيداً، وقال: «شكراً لك أيّها القنصل».

«لعلّك أنقذتنا جميعنا»

أجابه كروز ڤوم مير بيأس: «حسناً، لم نقبض عليه بعد. دعنا لا نستبق الأمور، أتمنّى أن يتّصلوا بي ويخبروني أنّهم نجحوا بتعقّب المكالمة».

«سأتولّى مشكلة اليابانيّين» قال ريس، «خبرتي واسعة في هذا السياق كما تعرف، شكاياتهم...».

«كفَّ عن الثرثرة!» قاطعه كروز ڤوم مير، «يجب أن أفكّر». من الواضح أنّ اتّصال المستشار قد سبّب له الاضطراب أيضاً، وأنّه يرزح تحت ضغط هائل الآن.

لعلّ الرجل سينجو بنفسه، وعندها ستخسر منصبكَ! فكّر ريس. وظيفتي، وظيفتك... قد نجد أنفسنا في الشارع أنا وأنت في أيّة لحظة، أنت لا تحظى بالأمان أكثر منّي! في الواقع، لربّما يستحقّ الأمر أن نرى كيف يمكن لبعض العقبات الصغيرة هنا وهناك أن تعرقل نشاطاتك، يا سيادة رئيس البوليس، عقبات من المستحيل تعقّبها. على سبيل المثال، عندما يأتي اليابانيّون إلى هنا كي يقدّموا شكوى، قد ألمّح مثلاً إلى رحلة اللوفتهانزا التي سيرحّلون ذلك الرجل على متنها... عدا ذلك، قد أزعجهم أكثر، سألمّح تلميحاً وقحاً إلى أنّ الرايخ يتسلّى بهم على سبيل المثال، وأنّه لا يأخذ الرجال الصفر على محمل الجدّ. إنّهم يُستَفَزّون بسهولة، وقد يستشيطون غضباً ويشتكون إلى غوبلز مباشرة. الاحتمالات كثيرة! لا يمكن للاستخبارات النازيّة أن ترحّل ذلك الرجل من الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، من دون تعاوني البنّاء معها، آه لو أنّني أهتدي إلى حيلة ملائمة! أنا أكره الأشخاص الذين يتجاوزونني،

هذا يجعلني غير مرتاح على الإطلاق، ومتوتّراً إلى حدّ أنّني أعجز عن النوم، وعندما أعجز عن النوم لا أستطيع أداء عملي كما يجب. إذن، أنا أدين لألمانيا بحلّ هذه المشكلة. سأرتاح أكثر بكثير، ليلاً ونهاراً، إن عاد هذا البلطجيّ الباڤاريّ الوضيع إلى الوطن، كي يكتب التقارير في مركز شرطة مغمور! لكنّ الوقت ضيّق، وبينما أحاول أن أقرّر كيف...

عندها رنّ الهاتف، فمدّ كروز ڤوم مير يده على الفور كي يرفع السمّاعة، ولم يحاول ريس أن يمنعه هذه المرّة. «آلو؟» قال، وأنصت للحظات.

بهذه السرعة؟! فكّر الفرايهر، لكنّ رئيس شعبة الاستخبارات ناوله السمّاعة قائلاً: «الاتّصال لك».

شعر ريس بالراحة في أعماقه، وأخذ السمّاعة.

«إنّه مدرّسٌ ما» قال كروز ڤوم مير، «يريد إن يعرف إن كان بإمكانك تزويدهم بصور للمناظر الطبيعيّة في النمسا، كي يعرضوها على التلامذة».

***

في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، أغلق روبرت تشلدن متجره، وانطلق مشياً إلى مكتب السيّد بول كاسورا.

لحسن حظّه، لم يكن بول مشغولاً، بل استقبله وقدّم له الشاي.

«لن أعطّلك»، قال تشلدن وهما يحتسيان الشاي. مكتب بول عصريّ، ومفروش ببساطة على الرغم من صغر مساحته، وفيه لوحة واحدة معلّقة على أحد الجدران: نمرٌ بريشة الرسّام موكي، وهي تحفة فنيّة رائعة تعود إلى أواخر القرن الثالث عشر.

«أنا أسعد برؤيتك دائماً يا روبرت»، قال بول بنبرة يشوبها التحفّظ. لعلّني أتوهّم ذلك! قال تشلدن لنفسه، ورمق بول بحذر وهو يحتسي الشاي. الرجل يبدو ودوداً بكلّ تأكيد، لكنّ تشلدن أحسّ بأنّه تغيّر نوعاً ما.

«زوجتك» قال تشلدن، «لا بدّ أنّ أملها قد خاب عندما رأت هديّتي، ولعلّها شعرت بالإهانة أيضاً، لكن... كما أوضحتُ لك، من الصعب تقييمُ أيّ قطعة جديدة لم نختبرها من قبل، تقييماً نهائيّاً صائباً. على الأقلّ، ليس

من قبل شخص يتاجر بها لا غير. أنت وبتي مخوّلان بالحكم عليها أفضل منّي بلا شكّ».

«لم يخب أملها يا روبرت» قال بول، «لم أعطها الحلية». مدّ يده إلى درج مكتبه، وأخرج العلبة البيضاء الصغيرة ثمّ أضاف: «لم تغادر القطعة مكتبي».

إنّه يعرف! فكّر تشلدن، إنّه رجل ذكيٌّ حقّاً، لم يخبرها أصلاً. إذن، هذا كلّ شيء! آمل أنّه لن يصبّ غضبه عليّ، ويتّهمني بأنّني أحاول إغواء زوجته! قد يدمّرني! تابع ارتشاف الشاي بحذر، بوجه خالٍ من التعابير، ثمّ قال بلطف: «آها! هذا مثير للاهتمام».

فتح بول العلبة، وأخرج الدبوس منها ثم تفحّصه. قرّبه إلى الضوء، وقلّبه في جميع الاتّجاهات، ثمّ قال: «سمحتُ لنفسي أن أعرضه على عدد من معارفي في العمل، أشخاص يشاطرونني ذوقي بالأنتيكات الأمريكيّة، أو بالقطع ذات القيمة الجماليّة أو الفنيّة عموماً». رمقَ تشلدن، ثمّ تابع: «لم يرَ أحد منهم دبوّساً مثله سابقاً، فكما شرحتَ لي، إنّه عمل معاصر يُقدَّم للمرّة الأولى. أعتقد أنّك الوحيد الذي يبيعه، كما قلتَ؟».

«أجل بالضبط»، أجاب تشلدن.

«هل تريد أن تعرف كيف كان ردّ فعلهم؟»

أومأ تشلدن بالإيجاب.

«أولئك الأشخاص» قال بول، «ضحكوا».

صمت تشلدن.

«وأنا أيضاً، ضحكتُ بدوري خفية» قال بول، «في ذلك اليوم عندما جئتَ وقدّمت لي هذا الشيء. بطبيعة الحال، أخفيتُ دهشتي حرصاً على كرامتك، وظلّت تعابير وجهي حياديّة كما تتذكّر بلا ريب».

هزّ تشلدن رأسه

تابع بول، وهو يتفحّص الدبّوس: «من السهل أن نفهم ردّ فعلهم. إنّها قطعة معدنيّة صُهِرَت إلى أن أصبحت عديمة الشكل، لا تمثّل تصميماً معيّناً، ولا ترمز إلى شيء. إنّها مجرّد كتلة عديمة الملامح، بل أشبه بمحتوى مجرّد من الهيئة».

هزّ تشلدن رأسه مجدّداً.

«على الرغم من ذلك» تابع بول، «أنا أتأمّلها منذ عدّة أيّام، وبدأت أحسّ بولع عاطفيّ غير منطقيّ تجاهها. لماذا؟ أنا أسأل نفسي. أنا لا أعكس روحي على هذه الحلية كما في الاختبارات السيكولوجيّة الألمانيّة، ولا أرى فيها شكلاً ولا هيئة، لكنّها تشارك بالتاو بطريقة ما أو بأخرى. هل ترى ذلك؟!»، وأشار لتشلدن أن ينظر. «إنّها متوازنة... القوى بداخلها بلغت مرحلة الاستقرار. هذه القطعة تصالحت مع الكون في مرحلة الراحة كما يقال، لقد انفصلت عنه، ولذلك تمكّنت من الوصول إلى حالة التوازن والاستقرار هذه».

هزّ تشلدن رأسه موافقاً وهو يدرس القطعة، لكنّ كلمات بول حيّرته.

«الوابي غير موجود فيها» قال بول، «ولا يمكن أن يوجَد أبداً، ولكن...» وتلمّس الدبّوس بظفره، «روبرت، هذه القطعة مليئة بالوو[3]».

«أعتقد أنّك على صواب» قال تشلدن، محاولاً أن يتذكّر ما هو الوو: الوو ليست مفردة يابانيّة، بل صينيّة، قد تعني الحكمة، فكّر، أو التفهّم... بأيّ حال، معناها جيّد جدّاً.

«يدا الحرفيّ» أضاف بول، «مليئتان بالوو، وسمحتا لذلك الوو بالتدفّق إلى داخل هذه القطعة... ربّما لا يعرف أكثر من أنّ هذه القطعة وحدها سترضيه! إنّها كاملة يا روبرت، وبتأمّلها سنحصل نحن على المزيد من الوو، ونشعر بالسكينة... لا بالسكينة التي ترافق الفنّ، بل بتلك التي تصاحب المقدّس. أتذكّر ضريحاً في هيروشيما، حيث يمكن للزوّار أن يتفحّصوا عظمة ساق قدّيس من العصور الوسطى. بأيّ حال، هذا الدبّوس هو قطعة منحوتة باليد، أمّا العظمة فمجرّد تذكار، الدبّوس حيٌّ في الحاضر، والعظمة مجرّد بقايا. من خلال هذا التأمّل الذي انشغلتُ به مطوّلاً منذ أن زرتني في المرّة السابقة، أدركتُ أنّ قيمة القطعة تنبع من أنّها بعيدة عن الأصالة التاريخيّة. لقد أثّرتْ بي كثيراً كما ترى».

3- wu wei: مبدأ من مبادئ التاو، يقوم على العيش بتناغم مع الطبيعة الحقيقيّة للكون، من دون التدّخل فيه، مع ترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعيّ، كي يحيا المرء حياة ملؤها التوازن والهارموني. المترجمة

«أجل»، ردّ تشلدن.

«لا تحمل أصالة تاريخيّة ولا قيمة فنّية أو جماليّة، بل قيمة أثيريّة... وهذه معجزة! إنّها مجرّد كتلة صغيرة بائسة عديمة القيمة، وهذا هو يا روبرت جزءٌ من السبب الذي يجعلها مفعمة بالوو. الوو موجود عادة في أحقر الأشياء، كتلك الأحجار التي يستبعدها البنّاء كما يقول المثل الصينيّ... سنجده في القمامة، في عصا عتيقة، أو في علبة بيرة صدئة مرميّة بجانب الطريق. في تلك الحالات، الوو موجود بداخل الرائي، وإدراكه هو تجربة دينيّة. أمّا هنا، فقد أدخله الحرفيُّ إلى داخل القطعة، عوضاً عن أن يتفرّج على الوو المتأصّل فيها فحسب». رفع رأسه، وسأل: «هل كلامي واضح؟».

«أجل»، أجاب تشلدن

«بعبارة أخرى، هذا الدبّوس يفتح عالَماً جديداً على مصراعيه، لكن لا يسعنا أن نسمّيه فنّاً لأنّه عديم الهيئة، ولا يمكن أن نسمّيه دِيناً. ما هو إذن؟! لقد فكّرت بهذا الدبّوس بلا انقطاع، ومع ذلك لم أفهمه. من الواضح أنّنا نفتقر لاسم مناسب لشيء مثله. لذلك، كنتَ على حقّ يا روبرت: إنّه -وبأصالة- شيء جديد على وجه الأرض»

أصيل، فكّر روبرت تشلدن، أجل بكلّ تأكيد، إنّه أصيل. فهمتُ هذا، أمّا الباقي...

«بعد أن بلغت تأمّلاتي هذا المستوى» تابع بول الكلام، «دعوتُ إلى مكتبي زملاء العمل ذاتهم الذين رأوه أوّل مرّة، وأخذتُ على عاتقي كما فعلتُ أمامك الآن، أن أناقشهم نقاشاً خالياً من اللباقة، لأنّ هذا الموضوع يفرض سطوته على المرء، ويجبره على التخلّي عن الآداب الاجتماعيّة، بسبب الحاجة الماسّة إلى إيصال الوعي به بحدّ ذاته إلى الجميع. طلبتُ من أولئك الأشخاص أن يصغوا إليّ...».

يدرك تشلدن أنّ قيام بول بفرض آرائه على الآخرين، هو أمر لا يُعقَل بالنسبة إلى يابانيّ مثله.

«والنتيجة» قال بول، «النتيجة مذهلة! لقد فهموا وجهة نظري بالإكراه، وأدركوا ما حاولتُ إيصاله لهم. لم يضع تصرّفي سدى! بعد ذلك ارتحتُ، لا

شيء آخر. روبرت، أنا مرهَق!». أعاد الدبّوس إلى العلبة مضيفاً: «مسؤوليّتي انتهت»، ودفع العلبة إلى تشلدن.

«سيّدي! إنّه لك!»، هتف تشلدن بخوف. لم يمرّ بوضع كهذا على الإطلاق سابقاً! يابانيّ من صفوة المجتمع، يمدح هديّة قُدِّمَت له مديحاً لا يجارى، من ثمّ يعيدها! شعر بركبتيه ترتخيان، ولم يملك أدنى فكرة عمّا يجب عمله. وقف، وأخذ ينتف كمّ قميصه، واحمرّ وجهه.

بهدوء، بل بفظاظة، قال بول: «روبـرت! عليك أن تواجه الواقع بشجاعة أكبر».

شحب وجه تشلدن، وتأتأ قائلاً: «لقد تشوّشتُ...».

وقف بول أمامه، وقال: «انطلِق! الأمر يقع على عاتقك الآن، أنت التاجر الوحيد الذي يبيع هذا الدبّوس وأشباهه، كما أنّك محترف. اختلِ بنفسك لفترة من الزمن، تأمّل، استشِر الآي-تشنغ أيضاً، من ثمّ ادرسْ ما تعرضه في واجهة متجرك، وإعلاناتك، وطريقة التسويق التي ستتبعها».

حدّق تشلدن إليه فاغر الفم.

«ستكتشف بنفسك ماذا يجب أن تفعل»، قال بول، «كيف ينبغي أن تعرض هذه القطع بأسلوب يليق بها».

صُعِقَ تشلدن!

هذا الرجل يقول لي، إنّني مجبَر على تحمّل مسؤوليّة أخلاقيّة تجاه مجوهرات إدفرانك! يا لها من وجهة نظر يابانيّ عصابيّ غريب الأطوار! بول كاسورا لن يرضى بأقلّ من علاقة عمل روحانيّة مع المجوهرات، وهو ما يحتلّ الأولويّة المطلقة برأيه. الأسوأ هو أنّه يتحدّث من موقع قوّة، استمدّها بلا شكّ من الثقافة والتقاليد اليابانيّة المندثرة. الواجب! فكّر بمرارة، قد يلتصق به طيلة حياته بمجرّد أن يقبل به، وسيرافقه إلى القبر. تحرّر بول من هذا العبء وارتاح، أمّا هو، روبرت تشلدن، آخ! يبدو أنّ المسألة لن تنتهي بالنسبة إليه مع الأسف.

أولئك اليابانيّون مجانين! قال لنفسه، لا ينقذون رجلاً جريحاً من أسوأ حال، نظراً للالتزامات التي قد تترتّب عليهم جرّاء ذلك! ماذا تسمّون هذا؟!

برأيي، إنّه تصرّف نمطيّ يجسّد الطبع الياباني، وهو ما تتوقّعونه من عِرق نسخَ البقع الموجودة على مرجل سفينة حربيّة إنجليزيّة، عندما طُلب منه أن يبني واحدة مثلها!

تفرّس فيه بول، لكن لحسن الحظّ، تشلدن معتاد منذ زمن طويل على كبح مشاعره الحقيقيّة أوتوماتيكيّاً. رسم على وجهه تعبيراً جامداً كئيباً، ولبس قناعاً يتوافق مع طبيعة الموقف، وشعر بثقل ذلك القناع على وجهه!

هذا مرعب! أدرك، بل كارثيّ! الأفضل لو ظنّ بول أنّني أحاول إغواء زوجته. بتي! من المستحيل أن ترى تلك الحلية الآن كما خطّط في البداية، الوو لا يتماشى مع الشهوة الجنسيّة، لأنّه كما قال بول رزين ومقدّس، كتذكار دينيّ.

«لقد أعطيتُ بطاقتك إلى هؤلاء الأشخاص»، قال بول.

«عفواً؟!»، سأل تشلدن شارد الذهن.

«بطاقاتك الشخصيّة... كي يزوروا متجرك، ويتفرّجوا على بقيّة القطع».

«فهمتُ»، قال تشلدن.

«هناك أمر آخر» أضاف بول، «برغب أحدهم بمناقشة المسألة برمّتها معك في مكتبه. لقد كتبتُ لك اسمه وعنوانه»، ثمّ أعطاه ورقة مطويّة. «يرغب بأن يسمع زملاؤه في العمل ما ستقوله... إنّه مُستَوْرِد، يستورد ويصدّر بالجملة، خاصّة إلى أمريكا الجنوبيّة. راديوهات، كاميرات، مناظير، مسجّلات.... وما إلى هنالك».

حدّق تشلدن إلى الورقة.

«إنّه يتعامل مع كميّات هائلة من البضائع» قال بول، «مع عشرات آلاف القطع من كلّ نموذج. شركته تتحكّم بمعامل عديدة تصنع له ما يحتاجه بسعر مخفّض، وكلّها موجود في الشرق، حيث اليد العاملة أرخص».

«ولماذا يريد...»، بدأ تشلدن.

«قطعة كهذه...» قال بول، وحمل الدبّوس مرّة أخرى لوهلة، ثمّ أعاده إلى علبته وأغلقها، وناولها إلى تشلدن. «يمكن تصنيع قطعة كهذه بالجملة، إمّا من المعدن أو من البلاستيك اعتماداً على قوالب الصبّ، وبالكمّيّة المطلوبة».

«ولكن ماذا عن الوو؟!» سأل تشلدن بعد لحظات، «ماذا سيبقى منه بداخل القطع في هذه الحالة؟!».

لم يجبه بول.

«هل تنصحني برؤيته؟»، سأل تشلدن.

«أجل»

«لماذا؟»

«تمائم»

رمقه تشلدن بنظراته.

«تمائم تجلب الحظّ السعيد، سيشتريها أناس فقراء نسبيّاً، وستُسوَّق في أرجاء المشرق وأمريكا اللّاتينيّة. غالبيّة الجماهير هناك ما تزال تؤمن بالسحر، تعرف كيف، التعاويذ، الجرعات السحريّة... إلخ. إنّه مشروع ضخم، كما قيل لي»، تخشّب وجه بول، وأصبح صوته جافّاً.

«يبدو لي» قال تشلدن ببطء، «أنّ هذه الصفقة ستدرّ الكثير من المال».

أومأ بول بالإيجاب.

«هل هي فكرتك؟»

«كلّا» أجاب بول، من ثمّ التزم الصمت.

رئيسكَ في العمل! فكّر تشلدن، لقد عرضتَ الدبّوس على رئيسك في العمل، الذي يعرف ذلك المستورِد... إمّا أن يكون رئيسك المباشر، أو أحد الأشخاص المتنفّذين الأعلى منك مرتبة. لا بدّ أنّه شخص تخضع أنت لسلطته، شخص غنيٌّ وقويّ، وهو من تواصل مع ذلك المستورِد، ولذلك تعيد الدبّوس لي! أنت تريد أن تنأى بنفسك تماماً عن الموضوع، لكنّك تعلم كما أعلم أنا تماماً، أنّني سأذهب إلى هذا العنوان وأقابل الرجل. يتوجّب عليّ ذلك، لا خيار أمامي! سأتنازل عن حقوق مِلْكيّة التصميم، أو سأبيعها له مقابل نسبة من الأرباح، وسنعقد صفقة ما. من الواضح أنّ القرار لا يعود لك على الإطلاق يا بول، وإن حاولتَ أن تمنعني أو أن تجادلني، سيُعدّ ذلك قلّة ذوق منك.

«أمامك فرصة هنا» قال بول، «كي تصبح فاحش الثراء»، وتابع التحديق برزانة أمامه.

«تبدو لي الفكرة غريبة!» قال تشلدن، «أن نحوّل قطعاً فنيّة إلى تمائم للحظ! لا أتخيّل ذلك!».

«لأنّ هذا ليس نطاق عملك المعتاد. أنت تكرّس نفسك لذائقة نخبويّة، وأنا شخصياً مثلك، وكذلك زملائي الذين سيزورون متجرك بعد فترة قصيرة»

«ماذا ستفعل لو كنتَ مكاني؟!»، سأل تشلدن.

«لا تبخس الفرصة التي يعرضها عليكَ هذا المستورد المرموق، لأنّه شخص حكيم. أنا أو أنت لا نملك فكرة عن عدد الجهلة الضخم، الذين ستجلب لهم التمائم المصنوعة في المعامل اعتماداً على قوالب الصبّ، بهجةً محرّمة علينا. مع ذلك، يجب أن نفترض أنّنا نملك قطعة فنيّة فريدة من نوعها، واحدة وحيدة، أو على الأقلّ، قطعة نادرة لا يملكها إلّا قلّة من الناس، أصيلة حقّاً وليست مجرّد نسخة أو نموذج». تابع التحديق إلى ما وراء تشلدن، ثمّ أضاف: «وليست قطعة فنيّة يُصنَّع منها عشرات الآلاف...».

هل اكتشف الحقيقة يا ترى؟! تساءل تشلدن، هل اكتشف أنّ بعض القطع التاريخيّة في المتاجر كمتجري أنا، ناهيك عن العديد من الأنتيكات في مجموعته الخاصّة، مُزيّفة؟! إنّه يلمح من خلال حديثه إلى نقطة محدّدة، وكأنّ نبرته المبطّنة الساخرة تنقل رسالة مختلفة تماماً عن ظاهر كلماته. الغموض، كما عندما يحتار المرء بنبوءات الآي-تشنغ، هو جوهر العقليّة الشرقيّة كما يقولون! ما يقوله بول في الحقيقة هو التالي: من أنت يا روبرت؟ هل أنت من يدعوه الآي-تشنغ بـ «الرجل الوضيع»، أم إنّك ذاك الذي تعنيه النصيحة الجيّدة؟ عليك أن تقرّر الآن، وهنا. يجب أن تقرّر أيّاً من الخيارين تريد، لا يسعك أن تكون كليهما معاً في آن واحد، لقد دقّت ساعة الاختيار.

أيٌّ طريق سيختار الرجل السامي؟ سأل روبرت تشلدن نفسه. على الأقلّ، الخيار الذي بين أيدينا الآن وفقاً لوجهة نظر بول كاسورا، ليس حكمة عتيقة مقدّسة تراكمت عبر آلاف السنين، بل مجرّد رأي رجل فانٍ وحيد، رجل أعمال ياباني شابّ. الوو هو جوهر هذه المسألة، كما سيقول بول، والوو هنا هو كالتالي: أيّاً كان ما نفضّله شخصياً، سيرجح الواقع حتماً -لسوء حظّنا- إلى كفّة المستورِد، ونحن مضطَرّون للتأقلم معه كما يقول الآي-تشنغ،

بغضّ النظر عن نوايانا الأصليّة. في جميع الأحوال، يمكنني أن أبيع القطع الأصليّة في متجري، إلى قلّة مختارة، كأصدقاء بول مثلاً.

«أنت تتصارع مع نفسك» لاحظ بول، «ولا شكّ بأنّك تفضّل الاختلاء بنفسك في موقف كهذا»، ومضى صوب باب مكتبه.

«لقد اتّخذتُ قراري!»

برقت عينا بول.

انحنى روبرت تشلدن وقال: «سأتبع نصيحتك، وسأغادر الآن كي أزور المستورِد». تناول الورقة المطويّة التي تحمل العنوان، لكنّ بول -ويا للغرابة!- لم يبدُ مسروراً، بل عبس وعاد إلى طاولة مكتبه.

اليابانيّون يتحكّمون بمشاعرهم إلى أقصى درجة! فكّر تشلدن، ثمّ قال وهو يتأهّب للمغادرة: «أشكرك جزيل الشكر على مساعدتك لي، وسأردّ لك جميلك يوماً ما لو قيّض لي ذلك، لن أنساه»، لكنّ اليابانيّ الشابّ لم يبدِ أيّ ردّ فعل! انطباعنا عنهم صحيح تماماً، فكّر تشلدن، اليابانيّون عصيّون على الفهم!

رافقه بول إلى الباب مستغرقاً بأفكاره، ثمّ قال فجأة: «لقد صُنعتْ هذه القطعة بأيدي حرفيّين أمريكيّين، أليس كذلك؟ اعتماداً على مجهودهم البدنيّ؟».

«أجل، بدءاً من التصميم الأوليّ، وانتهاء بالتلميع»

«يا سيّدي، هل سيقبل أولئك الحرفيّون بالخطّة؟ أعتقد أنّهم يتصوّرون مستقبلاً مختلفاً لحرفتهم»

«أظنّ أنّنا سنتمكّن من إقناعهم» قال تشلدن. إنّها مشكلة ثانويّة برأيه.

«أجل» قال بول، «أفترض ذلك».

هناك شيء ما في نبرة بول لفت نظر تشلدن فجأة، نوع من التأكيد الغامض المبهم، الذي ما لبث أن اجتاحه، فانقشعت الغشاوة عن عينيه فوراً: بالطبع! المسألة برمّتها هي محض اجتثاث خبيث للجهد الأمريكيّ، يحدث أمامه مباشرة. مكر! خبث! وهو، تشلدن، ابتلع الطعم كاملاً! لقد جعلني أوافق، خطوة بخطوة، واستدرجني كي أصدّق استنتاجاته: نتاج اليد الأمريكيّة لا

يصلح لشيء، إلّا أن يتحوّل إلى قوالب لصناعة تمائم خردة! هذا هو أسلوب اليابانيّين في الحكم، لا يستعملون القوّة الغاشمة، بل الدهاء الخفيّ الأبديّ!

يا للمسيح! نحن برابرة بالمقارنة معهم! أدرك تشلدن، نحن مجرّد خراء قياساً إلى منطقهم الذي لا يرحم. لم يقل بول إطلاقاً إنّ فنّنا عديم القيمة، بل استدرجني كي أقول أنا ذلك. وفي مفارقة أخيرة، أسِفَ لما قلتُه، وأبدى أسىً متحضّراً باهتاً لأنّه سمع الحقيقة من فمي.

لقد هزمني! أوشك تشلدن أن يقول هذه العبارة بصوت عالٍ، لكنّه تمكّن مرّة أخرى من إبقاء فمه مغلقاً لحسن حظّه، واحتفظ بتلك الفكرة في عالمه الداخليّ، سريّة ومعزولة، تخصّه وحده فقط. لقد أذلّني، وأذلّ عِرقي، فكّر، وأنا عاجز عن القيام بأيّ شيء. لن ننتقم نحن المهزومين، هزائمنا كلّها تتشابه، هشّة ورقيقة للغاية، بحيث لا ندركها إلّا بالكاد! في الواقع، ينبغي علينا أن نصعد درجة أخرى على سلّم التطوّر، كي نصبح قادرين على إدراكها. هل يلزمنا برهان إضافيّ على أنّ اليابانيّين مؤهّلون لحكمنا؟! شعر برغبة بالضحك، لربّما بإعجاب. أجل، قال لنفسه، الضحك، كأنّ ما حدث نكتة تتعلّق بانتقاء خيار. سأتذكّر ما حصل، وأتأمّله لاحقاً، وربّما أقصّه فيما بعد على شخص ما... ولكن على من تحديداً؟! المشكلة هنا أنّ ما حدث هو شأن شخصيّ بحت، لا يصحّ أن أرويه لأحد.

لمح سلّة مهملات، في زاوية من زوايا مكتب بول. سأرمي العلبة فيها! قال لنفسه، سأرمي هذه الكتلة، قطعة المجوهرات هذه المفعمة بالوو... هل أنا قادر على ذلك؟! هل أستطيع أن أرميها؟! وأن أنهي المسألة هنا أمام عينيّ بول؟!

لا يمكنني حتّى أن أرميها في القمامة! استنتج وهو يشدّ قبضته على العلبة، يستحيل ذلك إن كنتُ أتوقّع أن أرى صديقي الياباني هذا من جديد. اللعنة! لا يمكنني أن أتحرّر من نفوذهم، ولا أن أستسلم لنزوتي... كلّ العفويّة تحطّمت!

رمقه بول دون أن يضطرّ لقول شيء، حضوره كافٍ بحدّ ذاته.

لقد أوقع ضميري في فخّه، فكّر تشلدن، ومرّر خيطاً غير مرئيّ من هذه

الحلية في يدي، إلى ذراعي، من ثمّ إلى روحي. أعتقد أنّني عشتُ طويلاً جدّاً بين اليابانيّين، وفات الأوان على الهرب الآن، كي أعود إلى الحياة بين البِيض وبأساليب البِيض!

قال أخيراً: «بول!». لاحظ أنّ صوته تكسّر هارباً منه بمرارة، دون ضوابط ودون تعديل.

«نعم يا روبرت؟»

«أنا... أنا أشعر بالإهانة!»، ودارت الغرفة به.

«لماذا يا روبرت؟»، بدت نبرة بول قلقة، لكنّها نائية في الوقت ذاته، كأنّه لا يرغب بتوريط نفسه بما يحصل.

«بول! لحظة من فضلك»، ولمس الدبّوس الذي غطّاه العَرق. «أنا فخور بهذا العمل، ولن أرضى بتحويله إلى تمائم حظّ سوقيّة. أنا أرفض ذلك».

مجدّداً، عجز عن فهم ردّ الياباني الشابّ، الذي اكتفى بالإصغاء بانتباه إلى ما يسمعه.

«شكراً لك بأيّ حال»، قال روبرت تشلدن.

انحنى بول، فانحنى تشلدن بدوره.

«الرجال الذين صنعوا هذا الدبّوس» أضاف تشلدن، «هم فنّانون أمريكيّون فخورون بأنفسهم، وأنا كذلك. اقتراحك هذا بتحويل الدبّوس إلى تمائم خردة هو إهانة لنا، وأنا أطالب باعتذار».

ساد صمت طويل للغاية.

تفحّصه بول، أحد حاجبيه مرفوع قليلاً، وشفته ترتعشان. هل يبتسم يا ترى؟!

«أنا أطالب...» قال تشلدن، وعجز عن قول المزيد، فاكتفى بالانتظار.

لم يحدث شيء.

من فضلك! ناشده تشلدن في سرّه، فكّرْ، ساعدني!

«اعذرني على تطفّلي بغرور» قال بول أخيراً، ومدّ يده.

«لا بأس» أجاب تشلدن، وتصافحا.

غمرت السكينة قلب تشلدن، لقد تجاوزتُ التجربة، ونجوتُ، أدرك،

لقد انتهى كلّ شيء! رحمة الله غمرتني في اللحظة المناسبة، وإلّا لاختلف الحال! هل أجرّب حظّي مرّة أخرى؟! لا أظنّ ذلك.

غمرته الكآبة للحظة عابرة، كأنّني طفوتُ إلى السطح وتحرّرتُ من أعبائي، فكّر. الحياة قصيرة، الفنّ أو شيء ما آخر -أيّ شيء ما عدا الحياة- طويلٌ، يمتدّ بلا نهاية كدودة أسمنتيّة، مسطّح، أبيض، لم تصقله أرجل تقطعه أو تمشي فوقه، وها أنا ذا أقف عليه بدوري... لكنّه انتهى!

تناول العلبة الصغيرة، ودسّ حلية إدفرانك في جيب معطفه.

***

-12-

«يا سيّد تاغومي» قال السيّد رامسي، «السيّد ياتابي هنا» وابتعد إلى الزاوية، فدخل رجل كهل نحيل إلى المكتب.

مدّ السيّد تاغومي يده قائلاً: «يسعدني لقاؤك شخصيّاً يا سيّدي». انزلقت يد الرجل الخفيفة الهشّة داخل قبضته، فصافحه بسرعة دون أن يشدّ عليها. آمل أنّني لم أكسرها! فكّر، وتفحّص ملامح الرجل العجوز شاعراً بالرضا. يا لروحه الحازمة المتماسكة! يا لفطنته التي لا تعكّرها غشاوة! لا بدّ أنّ التقاليد العتيقة الثابتة، بل أفضل ما فيها، قد انتقلت إليه بسلاسة.

من ثمّ، اكتشف أنّه يقف وجهاً لوجه أمام الجنرال تديكي، القائد السابق في الجيش الإمبراطوريّ، فانحنى إلى الأرض قائلاً: «سيّدي الجنرال!».

«أين الطرف الثالث؟»، سأل الجنرال تديكي.

«سيأتي على الفور» أجاب السيّد تاغومي، «لقد اتّصلتُ به شخصيّاً في غرفته في الفندق». تشوّش ذهنه تماماً، فتراجع للوراء عدّة خطوات وهو ما يزال منحنياً، وبالكاد استطاع أن ينتصب مجدّداً.

السيّد رامسي، الذي لم يحزر هويّة الضيف بعد بلا شكّ، ساعد الجنرال على الجلوس، لكنّه لم يبدِ اهتماماً خاصّاً به، بينما جلس السيّد تاغومي متردّداً على الكرسيّ المواجه للضيف.

« بكلّ أسف، نحن نضيّع الوقت» قال الجنرال، «لكنّ الأمر ليس بيدنا».

«صحيح»، قال السيّد تاغومي.

انقضت عشر دقائق أخرى، لم ينطق فيها أيّ من الرجال الثلاثة.

«اعذرني يا سيّدي»، قال السيّد رامسي أخيراً وهو يتململ، «سأكون في الخارج إن احتجت إلي».

أومأ له السيّد تاغومي موافقاً، فخرج.

«هل تشرب الشاي أيّها الجنرال؟»، سأل السيّد تاغومي.

«كلّا يا سيّدي»

«سيّدي، أعترف بأنّني خائف، أشعر بأنّ شيئاً ما رهيباً سيحدث خلال هذا اللقاء».

أحنى الجنرال رأسه.

«السيّد باينس، الذي سبق لي لقاؤه واستضافته في منزلي» تابع السيّد تاغومي، «يقول إنّه سويديّ، لكنّ استقراء الوضع يدلّ على أنّه ضابط ألمانيّ برتبة عالية. أقول هذا لأنّ...».

«أكمِل من فضلك»

«شكراً لك أيّها الجنرال. قلقه بشأن هذا الاجتماع، دفعني للاعتقاد بوجود رابط بينه وبين الاضطرابات السياسيّة في الرايخ»، لم يذكر السيّد تاغومي سبباً آخر، وهو تأخّر الجنرال عن موعده المتوقّع.

«سيّدي، أنت تحاول أن تتصيّد المعلومات، لا أن تبلغني بها» قال الجنرال، وبرقت عيناه الرماديّتان بأسلوب أبويّ، دون خبث.

تقبّل السيّد تاغومي ملاحظة الجنرال، وقال: «سيّدي، هل وجودي في هذا الاجتماع هو مجرّد شكليّات، لخداع المخبرين النازيّين؟».

«بطبيعة الحال» أجاب الجنرال، «يهمّنا أن نحافظ على سيناريو محدّد هنا. السيّد باينس هو مندوب شركة تور-آم الصناعيّة في ستوكهولم. إنّه مجرّد رجل أعمال، وأنا شينجيرو ياتابي».

وأنا تاغومي! فكّر السيّد تاغومي، هذا هو دوري!

«لا بدّ أنّ النازيّين يراقبون السيّدَ باينس» قال الجنرال وهو يضع يديه على ركبتيه ويعتدل في جلسته، كأنّه يشمّ رائحة «شاي لحم البقر»[1] من بعيد، فكّر السيّد تاغومي. «لا يمكنهم أن يفنّدوا قصّتنا دون اتّباع القانون، وهذا هو هدفنا الحقيقيّ، أي ألّا نلجأ للخداع بل أن نطالبهم باتّباع الرسميّات إن

1- عبارة عن مرق لحم البقر المطبوخ المكثّف، كان مشروباً ساخناً شعبيّاً في القرن التاسع عشر يحتسيه الناس -خاصّة المرضى- كالشاي، لأنّه سهل الهضم ويقوّي الجسم باعتقادهم. المترجمة

كُشف أمرنا. إن أرادوا اعتقال السيّد باينس على سبيل المثال، ينبغي عليهم أن يتكبّدوا عناء القيام بأمر يتعدّى إطلاق النار عليه ببساطة... علماً أنّهم قادرون على ذلك، إن تحرّك دون الغطاء الذي توفّره له قصّتنا».

«فهمتُ» قال السيّد تاغومي، وفكّر: يبدو أنّها لعبة ما، لكنّها ستنفعنا على ما يبدو، لأنّهم يفهمون عقليّة النازيّين.

رنّ الإنتركوم على طاولته، وقال صوت السيّد رامسي: «سيّدي، لقد وصل السيّد باينس، هل أدخله؟».

«أجل!»، صاح السيّد تاغومي.

فُتِح الباب، فدخل السيّد باينس المتأنّق، ملابسه الفاخرة مكوية بعناية، وملامحه متماسكة.

وقف الجنرال تديكي، وكذلك السيّد تاغومي، وانحنى الرجال ثلاثتهم.

«سيّدي» قال السيّد باينس مخاطباً الجنرال، «أنا الكابتن رودولف ڤيغنر من شعبة مكافحة التجسّس في بحريّة الرايخ. كما تعرفون، أنا أمثّل نفسي فقط، بالإضافة إلى بضعة أفراد معدودين لن أذكر أسماءهم، ولا أمثّل أيّ أقسام أو مكاتب تابعة لحكومة الرايخ، أيّاً كانت».

قال الجنرال: «هِر ڤيغنر، أفهم أنّك لا تمثّل رسميّاً حكومة الرايخ، بأي شكل من الأشكال. أنا موجود هنا بصفتي طرفاً مستقلّاً غير رسميّ، قادراً على الوصول إلى أوساط معيّنة في طوكيو، بفضل منصبي السابق في الجيش الإمبراطوريّ، وتلك الأوساط مهتمّة بسماع ما عندك».

نقاش غريب! فكّر السيّد تاغومي، لكن لا بأس به، لأنّه موسيقيّ نوعاً ما، ويبعث على راحة منعشة.

«من دون مقدّمات» قال السيّد باينس، «أودّ إعلامك أنتَ وتلك الأوساط التي تتواصل معها، بأنّ الرايخ يعدّ خطّة اسمها Lowenzahn، أي الأقحوانة، التي بلغتْ مرحلة متقدّمة حاليّاً».

«أجل» قال الجنرال وهو يهزّ رأسه كأنّه سمع بالأقحوانة من قبل، لكنّ السيّد تاغومي لاحظ أنّه متلهّف في الحقيقة لسماع ما سيقوله السيّد باينس.

«عمليّة الأقحوانة» تابع السيّد باينس، «ستبدأ بمناوشة على الحدود، بين ولاية جبال روكي والولايات المتّحدة».

هزّ الجنرال رأسه مجدّداً، مبتسماً ابتسامة صغيرة.

«سيُشَنّ هجوم على قوّات الولايات المتّحدة، التي ستنتقم بعبور الحدود والاشتباكِ مع قوّات جبال روكي المتمركزة بالقرب منه، علماً أنّ جيش الولايات المتّحدة يملك خريطة مفصّلة لأماكن تمركز جيش الغرب الأوسط... وهذه هي المرحلة الأولى. في المرحلة الثانية، ستصرّح ألمانيا عن موقفها تجاه النزاع، من ثمّ سترسل فرقة متطوّعين من مظليّي الجيش لمساندة جيش الولايات المتّحدة. بأيّ حال، كلّ هذا مجرّد تمويه».

«أجل»، قال الجنرال.

«الهدف الأساسيّ من عمليّة الأقحوانة» قال السيّد باينس، «هو شنّ هجوم نوَويّ ساحق على جزر الوطن، من دون سابق إنذار على الإطلاق»، ثمّ صمت.

«بهدف إبادة العائلة الإمبراطوريّة، وجيش الدفاع، ومعظم البحريّة الإمبراطوريّة، والجماهير المدنيّة، والصناعة، والموارد» علّق الجنرال تديكي، «كي يستولي الرايخ على الأملاك اليابانيّة ما وراء البحار».

لم يعلّق السيّد باينس، فسأله الجنرال: «وماذا أيضاً؟».

لاحت الحيرة على وجه السيّد باينس.

«متى سُتنفَّذ العمليّة يا سيّدي؟»، أضاف الجنرال.

«أعتقد أنّ الموعد تغيّر» أجاب السيّد باينس، «بسبب موت مارتن بورمان... هذا ما أعتقده، أنا لا أتواصل مع الاستخبارات العسكريّة الآن».

«تابع من فضلك هر ڤيغنر»، قال الجنرال على الفور.

«نصيحتنا هي أن تتدخّل الحكومة اليابانيّة بشؤون الرايخ المحليّة، أو على الأقلّ... هذه هي النصيحة التي جئتُ كي أنقلها لكم. هناك أطراف في الرايخ تؤيّد عمليّة الأقحوانة، وأطراف أخرى تعارضها. كنّا نأمل أن يتبوّأ أولئك الذين يعارضونها السلطةَ، بعد موت المستشار بورمان».

«لكن أثناء وجودك هنا» قال الجنرال، «توفّي هر بورمان، وانحلّ الوضع السياسيّ من تلقاء ذاته. الدكتور غوبلز هو مستشار الرايخ الحاليّ، والاضطرابات انتهت». صمت الجنرال قليلاً، ثمّ أضاف: «ما موقفه من عمليّة الأقحوانة؟».

«الدكتور غوبلز هو أحد مناصري الأقحوانة»، أجاب السيّد باينس.

أغمض السيّد تاغومي عينيه، دون أن يلحظاه.

«ومن يعارضها؟»، سأل الجنرال تديكي.

سمع السيّدُ تاغومي السيّدَ باينس يقول: «قائد الشوتزشتافل، الجنرال هايدريش».

«يفاجئني ذلك!» قال الجنرال تديكي، «وأنا أشكّ بما سمعتُه منك! هل هي معلومات رسميّة، أم وجهة نظرك أنت وزملائك؟!».

«إدارة المشرق -أي المنطقة التي تحكمها اليابان حاليّاً- ستوضع بيد وزارة الخارجيّة، أي تحت تصرّف جماعة روزنبرغ التي تعمل مباشرة مع المستشاريّة، وهي نقطة كانت محطّ خلاف حادّ في العديد من الاجتماعات بين المسؤولين في العام الماضي... معي نسخ من محاضر الاجتماعات التي دُوِّنت آنذاك. طالب البوليس بأن يتولّوا مسؤوليّتها، لكنّ طلبهم رُفِض، وهم يتولّون حاليّاً إدارة المستعمرات الفضائيّة في القمر والمرّيخ والزُهرة. لذلك، بعد أن تمّ تقسيم المسؤوليّات على هذا النحو، يركّز البوليس جهودهم حاليّاً على دعم البرنامج الفضائيّ، وضدّ عمليّة الأقحوانة».

«منافسة!» قال الجنرال تديكي، «جماعة ضدّ جماعة أخرى! إنّها لعبة القائد، كي لا يعارضه أحد».

«بالضبط» قال السيّدَ باينس، «لذلك أرسلوني إلى هنا، كي أحتّكم على التدخّل. من الممكن أن تتدخّلوا الآن، لأنّ القرار لم يُحسَم بعد، وسيتطلّب البتُّ فيه أشهراً ريثما يرسّخ الدكتور غوبلز سلطته. ينبغي عليه أن يكسر شوكة البوليس أوّلاً، وقد يضطرّ لإعدام هايدريش وسواه من كبار المسؤولين في القوّات الخاصّة وفي الاستخبارات النازيّة، وما إن يحصل هذا...».

«هل تريدنا أن نقدّم الدعم إلى القوّات النازيّة الخاصّة؟!» قاطعه الجنرال تديكي، «إلى أخبث قطاع في المجتمع الألمانيّ؟!».

«تماماً» أجابه السيّدَ باينس.

«لن يقبل الإمبراطور بهذه الخطّة» قال الجنرال تديكي، «لأنّه يعدّ قوّات النخبة النازيّة -ذوي القمصان السود هؤلاء- بمنزلة رأس الموت، حيثما تواجدت. نظام القلعة بأكمله، هو شرٌّ محض من وجهة نظره».

الشرّ! فكّر السيّد تاغومي، أجل، إنّه شرٌّ محض! هل نساند الشرّ كي يسود، بغية إنقاذ حياتنا؟! هل هي مفارقة وضعنا الدنيويّ؟! لا أستطيع أن أواجه هذه المعضلة، أمّا ذلك الرجل فمضطرّ لاتّخاذ قراره وسط نوع من الغموض الأخلاقيّ. لا حلّ أمامنا، الوضع برمّته غائم، شواش من النور والظلمة، من الظلال والمادّة.

«الجيش» قال السيّد باينس، «الجيش هو الوحيد الذي يمتلك قنبلة هيدروجينيّة في الرايخ كلّه، ولم يستعملها ذوو القمصان السود في أيّ مكان إلّا تحت إشرافه. المستشاريّة بقيادة بورمان، لم تسمح قط بتسليم سلاح نوويّ إلى البوليس، وعمليّة الأقحوانة ستُنفَّذ تحت إشراف قيادة الجيش العليا».

«أعرف ذلك»

«ذوو القمصان السود يتفوّقون على الجيش بشراستهم، لكنّ نفوذهم أضعف. علينا أن نركّز على الواقع فقط، على القوّة الفعليّة لا على النوايا الأخلاقيّة».

«أجل، ينبغي علينا أن نكون واقعيّين» قال السيّد تاغومي بصوت عال، فرمقه كلٌّ من السيّد باينس والجنرال تديكي بنظراتهما.

«ما هو اقتراحك بالتحديد؟» وجّه الجنرال تديكي سؤاله للسيّد باينس، «هل نتواصل مع شعبة الاستخبارات النازيّة في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة؟ ونتفاوض مباشرة مع... لا أعرف من هو رئيسها الحاليّ، لكنّني سأفترض بأنّه شخصيّة بغيضة».

«شعبة الاستخبارات النازيّة المحليّة لا تملك معلومات عن الموضوع» أجاب السيّد باينس، «رئيسها برونو ڤوم مير، هو عضو تافه محافظ من أعضاء الحزب، عضو قديم لكنّه إمّعة، ولن يفكّر أيّ شخص في برلين بإبلاغه عن عمليّة من هذا النوع. إنّه يضطلع بمهمّات روتينيّة، فقط لا غير».

«مع من نتواصل إذن؟!» قال الجنرال بغضب، «مع القنصل هنا، أم مع سفير الرايخ في طوكيو؟!».

ستفشل هذه المحادثات، فكّر السيّد تاغومي، على الرغم ممّا هو على المحكّ. لا يجوز أن نقع في فخّ الخطط السريّة النازيّة المدمِّرة، إنّه مستنقع وحشيّ فصاميّ يستحيل على أدمغتنا أن تتكيّف معه.

«ينبغي أن تقاربوا هذه المسألة بمنتهى الحرص» قال السيّد باينس، «عبر سلسلة من الوسطاء، كشخص ما مقرّب من هايدريش يقيم في بلد محايد خارج الرايخ، أو شخص يسافر جيئة وذهاباً بين طوكيو وبرلين».

«هل لديك اقتراحات؟»

«وزير الخارجيّة الإيطاليّ، الكونت شيانو. إنّه رجل ذكيّ فائق الشجاعة، يكرّس نفسه كليّاً للتفاهم الدوليّ، ويمكن الاعتماد عليه. بأيّ حال، لا صلات له حاليّاً مع الاستخبارات النازيّة، لكنّه قد ينجح بالتواصل معها من خلال طرف ثالث مقيم في ألمانيا: وسيط ذي مصالح اقتصاديّة مثل كُرَب، أو الجنرال سبيدل، أو حتّى مع رجال فافن-إس. إس[2]، لأنّهم أقلّ تطرّفاً، ويعملون وفق التوجّه العامّ للمجتمع الألمانيّ».

«ومؤسّستك، الاستخبارات البحريّة العسكريّة... أقصد، هل التواصل من خلالكم مع هايدريش هو محاولة عقيمة؟!».

«ذوو القمصان السود يكرهوننا، وهم يحاولون منذ عشرين عاماً أن يحصلوا على موافقة الحزب لتصفيتنا نهائيّاً».

«ألستَ شخصيّاً في خطر داهم الآن بسببهم؟!» سأل الجنرال تديكي، «إنّهم ينشطون هنا في الساحل الباسيفيكيّ كما فهمتُ».

«ناشطون، لكنّهم إمّعات» قال السيّد باينس هازّاً كتفيه، «أمّا رجلُ وزارة الخارجيّة، هوغو ريس، فهو موظّف كفء، لكنّه يعارضهم».

«أودّ الحصول على تلك النسخ التي ذكرتها، كي أسلّمها إلى حكومتي، بالإضافة إلى أيّة موادّ أخرى بحوزتك تتعلّق بتلك النقاشات في ألمانيا و...» قال الجنرال، ثمّ أضاف بعد قليل من التفكير: «وأدلّة عن طبيعتها الموضوعيّة».

2- الجناح العسكريّ للاستخبارات النازيّة. المترجمة

«بكلّ تأكيد» قال السيّد باينس. أخرج من جيب معطفه علبة سجائر فضيّة مسطّحة، أعطاها للجنرال قائلاً: «هناك أنبوب مجوّف بداخل كلّ سيجارة، فيه مايكروفيلم». «ماذا عن العلبة بحدّ ذاتها؟!» سأل الجنرال وهو يفحصها، «تبدو ثمينة جدّاً ولا يجدر بك أن تتخلّى عنها»، ثمّ بدأ بتفريغها من السجائر.

ابتسم السيّد باينس، وأضاف: «العلبة لك أيضاً».

«شكراً لك». ابتسم الجنرال بدوره، ثمّ وضع العلبة في جيب معطفه العلويّ.

رنّ الإنتركوم، فكبس السيّد تاغومي زرّ الردّ، وسمعوا صوت السيّد رامسي يقول: «سيّدي، هناك فرقة من الاستخبارات النازيّة في البهو! إنّهم يحاولون احتلال المبنى، وحرّاس الصحيفة يشتبكون معهم الآن»، ودوّى صوت صافرات إنذار بعيدة في الشارع تحت نافذة السيّد تاغومي. «وحدات البوليس العسكريّ التابعة للجيش في طريقها إلى هنا، وكذلك جهاز الكمبيتاي في سان فرانسيسكو»، أضاف السيّد رامسي. «شكراً لك سيّد رامسي» قال السيّد تاغومي، «إبلاغنا بهذه السرعة كان فعلاً نبيلاً».

تجمّد كلٌّ من السيّد باينس والجنرال تديكي، وهما يسمعان كلمات السيّد رامسي.

«أيّها السيّدان» قال السيّد تاغومي، «لا ريب أنّنا سنقتل بلطجيّة الاستخبارات النازيّة، قبل أن يصلوا إلى هنا»، ثمّ قال للسيّد رامسي عبر الإنتركوم: «افصلِ التيّار الكهربائيّ عن المصاعد».

«حاضر يا سيّد تاغومي» قال السيّد رامسي، وأغلق الإنتركوم.

«سننتظر» قال السيّد تاغومي، ثمّ فتح درج طاولته وتناول علبة من خشب الساج، أخرج منها مسّدس كولت 44 بحالة ممتازة يعود إلى عام 1860 -أي إلى حقبة الحرب الأهليّة الأمريكيّة- وهو سلاح يعمل بطريقة «الكرة والغطاء»[3]، يقدّسه هواة جمع الأنتيكات. أخرج السيّد تاغومي من العلبة

3- النموذج الموصوف من مسدّس الكولت، له أسطوانة دوّارة فيها 6 طلقات، إمّا أن تكون على شكل كرة رصاصية أو على شكل طلقة مخروطيّة مدبّبة، تحشى بمقدار معيّن من مسحوق البارود. عند الضغط على الزناد، يصطدم الغطاء النحاسيّ الذي

أيضاً ذخيرة ومسحوق البارود، ثمّ بدأ بحشو المسدّس، بينما راقبه السيّد باينس والجنرال تديكي بدهشة.

«قطعة من مجموعتي الخاصّة» قال السيّد تاغومي، «أعترف بأنّني طائش، ألهو في ساعات فراغي بالتمرّن على إشهار الأسلحة وإطلاق النار منها بسرعة، ومستواي يضاهي مستوى المتحمّسين الآخرين لهذه الهواية، لكنّنا لن نستعمل المسدّس على سبيل الهواية الآن!».

أشهر المسدّس بطريقة صحيحة، وصوّبه على باب المكتب، وانتظر.

***

في ورشتهما في القبو، جلس فرانك فرينك على المقعد أمام إحدى الآلات، وبيده قرط فضيّ لم ينته منه بعد، يحمله فوق قرص الصقل القطنيّ الدوّار الصاخب. بقع الطلاء تلطّخ نظّارته، وتبقّع يديه وأظافره باللون الأسود. القرط الذي يشبه قوقعة حلزون أصبح ساخناً بسبب الاحتكاك، لكنّ فرينك تابع صقله بأسى.

«لا تلمّعه كثيراً» قال إد مكارثي، «لمّعِ الأجزاءَ العلويّة فقط! بوسعك أن تتغاضى نهائيّاً عن الأجزاء السفليّة».

تذمّر فرانك فرينك.

«الفضّة الكابية تحظى بشعبيّة أكبر» قال إد، «يُفترَض بالقطع الفضيّة أن تبدو عتيقة».

السوق! فكّر فرينك، لم يبيعا شيئاً بعد، ولم يأخذ أحد منهما قطعة ما عدا تلك الحليّ التي تركها إد أمانة في شركة المصنوعات اليدويّة الأمريكيّة الفنيّة، فضلاً عن أنّهما لم يزورا إلّا خمسة متاجر تجزئة فقط.

نحن لا نكسب مالاً! قال فرينك لنفسه، نحن نصنع المزيد والمزيد من المجوهرات التي تتكدّس حولنا فحسب.

علق مسمار القرط في دولاب الآلة، فطارت القطعة من يده، واصطدمت بواقي العينين من ثمّ سقطت على الأرض. أطفأ فرينك المحرّك.

يحوي شحنة من الزئبق (مادة تتفجّر عند تعرضها لصدمة) بالبارود وبسبب اشتعاله، فتخرج الرصاصة من المسدّس بفعل الطاقة المتولدّة عن ذلك. المترجمة

«لا تفلت تلك القطعة من يدك!» قال مكارثي، الذي يحمل مشعل اللِحام بيده.

«يا للمسيح! إنّها بحجم حبّة بازلّاء، من المستحيل إمساكها بإحكام!»

«حسناً، التقطها عن الأرض بأيّ حال»

اللعنة على الأمر برمّته! فكّر فرينك.

«ما المشكلة؟» سأله مكارثي، عندما لاحظ أنّه لم يتحرّك لالتقاط القرط.

«نحن نهدر مالنا هباءً!»، قال فرينك.

«كيف سنبيع ما لم نصنع؟!» سأل مكارثي.

«لا يمكننا أن نبيع شيئاً» أجاب فرينك، «سواء صنعناه أم لا».

«خمسة متاجر فقط! إنّها مجرّد نقطة في بحر!»

«لكن الذائقة العامّة...»، قال فرينك، «خمسة متاجر تكفي كي نعرفها»

«لا تخدع نفسك!»

«أنا لا أخدع نفسي»

«ماذا تقصد؟!»

«أقصد أنّ الوقت قد حان كي نبحث عن سوق للخردة»

«حسناً!» قال إد مكارثي، «انسحبْ إذن»

«سأنسحب»

«سأتابع بمفردي» قال مكارثي، وشغّل مشعل اللحام من جديد.

«كيف سنتقاسم الأغراض؟»

«لا أعرف، سنتوصّل إلى حلّ»

«اشترِ حصّتي»، قال فرينك.

«تباً! لا!»

«ادفعْ لي ستمئة دولار»، أصرّ فرينك.

«كلّا. خذ نصف الأغراض»

«نصف المحرّك؟!»

صمت كلاهما.

«سنزور ثلاثة متاجر أخرى» قال مكارثي، «وبعدها نناقش الموضوع». أسدل القناع الواقي على وجهه، من ثمّ بدأ بتلحيم قطعة من النحاس الأصفر على سوار.

قام فرانك من مقعده، التقط القرط الحلزونيّ، ووضعه في علبة يخصّصانها للقطع التي لم تكتمل بعد. «سأخرج كي أدخّن سيجارة» قال، وقطع القبو باتّجاه الدرج.

بعد لحظات، وقف على الرصيف، وسيجارة «الموسيقا السماويّة» بين شفتيه. قُضيَ الأمر! قال لنفسه، لا تلزمني استشارة كتاب التنبّؤات كي أعرف ما هي اللحظة، رائحتها تفوح في الجوّ: الهزيمة! في الحقيقة، من الصعب أن نعرف السبب. لعلّنا قادرون نظريّاً على الاستمرار، سنذهب من متجر إلى متجر، أو سنزور مدناً أخرى، لكن هناك خطأ ما، لن تصحّحه جهودنا ولا براعتنا. أريد أن أعرف لماذا، فكّر، لكنّني لن أعرف أبداً. ماذا كان ينبغي أن نفعل؟! ما الذي كان علينا القيام به عوضاً عن هذا المشروع؟! لقد خالفْنا اللحظةَ، وخالفنا التاو، وصعدنا إلى الأعلى في الاتّجاه الخاطئ، والآن... لا شيء، ما عدا الانحلال والتداعي. لقد غلَبَنا الين، خدعَنا الضوءُ واختفى في مكان آخر، ليس بمقدورنا إلّا أن نستسلم!

ظلّ واقفاً أمام المبنى على هذه الحال، يفكّر ويأخذ أنفاساً متلاحقة من سيجارة الماريجوانا، متأمّلاً حركة السيّارات بملل. من ثمّ، اقترب منه رجل أبيض في أواسط العمر، لا يلفت النظر.

«السيّد فرانك؟ فرانك فرينك؟»

«هذا أنا»، أجاب فرينك.

أخرج الرجل من جيبه ورقة مطويّة وبطاقة هويّة، وقال: «أنا من قسم شرطة سان فرانسيسكو، لديّ مذكّرة لاعتقالك»، وأمسك فرينك من ذراعه. لقد قبض عليه حقّاً!

«بتهمة ماذا؟»، طالب فرينك بمعرفة السبب.

«الاحتيال، السيّد تشلدن، شركة المصنوعات اليدويّة الأمريكيّة الفنيّة»، قال الشرطيّ وهو يجرّه بالقوّة على الرصيف، ثمّ انضمّ إليه شرطيّ ثانٍ

بملابس مدنيّة، حشرا فرينك بينهما، ودفعاه إلى سيّارة تويوبِت مركونة لا تحمل علامات مميّزة، وأغلقا بابها.

هذا ما يتطلّبه الزمن منّا! فكّر فرينك المحشور بين الشرطيّين على المقعد الخلفيّ، بينما انطلقت السيّارة بسرعة، يسوقها شرطيّ ثالث يرتدي زيّه الرسميّ.

هؤلاء هم أبناء العاهرة الذين ينبغي علينا أن نستسلم لهم! قال لنفسه.

«هل لديك محام؟»، سأله أحد الرجال الثلاثة.

«لا»، أجاب فرينك.

«سيعطونك قائمة بأسماء المحامين في المركز»

«شكراً»، قال فرينك.

«ماذا فعلت بالمال؟» سأله أحدهم لاحقاً، وهم يركنون السيّارة في مرأب مركز الشرطة، الموجود في شارع كيرني.

«لقد أنفقتُه»

«كلّه؟!»

لم يجب فرينك، فهزّ أحد رجال الشرطة رأسه مقهقهاً.

عندما نزلوا من السيّارة، سأله أحدهم: «هل اسمك الحقيقيّ هو فينك؟!»، فارتعب!

«يا فينك» كرّر الشرطيّ، «أنت يهوديّ». عرض عليه ملفّاً كبيراً رماديّ اللون، ثم أضاف: «أنت لاجئ من أوروبا».

«لقد وُلِدتُ في نيويورك»، قال فرانك فرينك.

«أنت فارٌّ من النازيّة» قال الشرطيّ، «هل تعرف ماذا يعني ذلك؟».

فرّ فرينك هارباً عبر المرأب، فبدأ الشرطيّون الثلاثة بالصراخ، وسرعان ما اعترضته سيّارة شرطة عند المدخل، فيها رجال مسلّحون بالزيّ الرسميّ. ابتسموا له، ونزل أحدهم من السيّارة شاهراً سلاحه وكبّل يديه بالقيود، ثمّ جرّه من معصمه، فحزّ القيد المعدنيّ جرحاً عميقاً في لحمه، لكنّ الشرطيّ استمرّ بجرّه صوب زملائه الثلاثة.

«سنعيدك إلى ألمانيا»، قال شرطيّ آخر وهو يتأمّله.

«أنا أمريكيّ»، قال فرانك فرينك.

«بل يهوديّ»، قال الشرطيّ.

عندما ساقوه إلى الطابق العلويّ للمبنى، سأل أحدهم: «هل سنستجوبه هنا؟».

«كلّا» أجابه شرطيّ آخر، «سنأخذه إلى القنصل الألمانيّ... يريدون أن يحاكموه وفقاً للقانون الألمانيّ».

لم يعطه أحدٌ قائمة بأسماء المحامين!

***

ظلّ السيّد تاغومي جالساً دون حراك وراء طاولة مكتبه طيلة عشرين دقيقة، ومسدّسه مصوّب على الباب، بينما ذرع السيّد باينس الغرفة جيئة وذهاباً. فكّر الجنرال العجوز قليلاً، ثمّ رفع سمّاعة الهاتف واتّصل بالسفارة اليابانيّة في سان فرانسيكو، لكنّ السفير الياباني، البارون كايلِماكيولي، كان خارج المدينة. لذلك، باشر الجنرال اتّصالاته عبر المحيط الباسيفيكيّ مع طوكيو.

«سأستشير المجلسَ الحربيّ» شرح للسيّد باينس، «سوف يتّصلون بالقوّات العسكريّة الإمبراطوريّة المتمركزة بالقرب منّا»، ولم يبدُ عليه الاضطراب إطلاقاً.

إذن، ستنتهي محنتنا خلال بضع ساعات، قال السيّد تاغومي لنفسه، لربّما بجهود بحّارة يابانيّين متواجدين على متن ناقلة، مسلّحين بالرشّاشات والقنابل. العمل من خلال القنوات الرسميّة فعّال للغاية ويحقّق النتائج المرجوّة، لكنّه يستغرق زمناً لا يستهان به، وذوو القمصان السود موجودون هناك في الأسفل الآن، وهم يذبحون الموظّفين والسكرتيرات.

بأيّ حال، لا يسعه هو شخصياً القيام بالكثير.

«هل نجرّب الاتّصال بالقنصل الألمانيّ؟!»، سأل السيّدُ باينس.

تخيّل السيّد تاغومي أنّه يستدعي الآنسة إفريكيان مع آلة التسجيل، كي يملي عليها رسالة احتجاج عاجلة للسيّد هوغو ريس، ثمّ قال: «سأتّصل بالهر ريس، من الخطّ الثاني».

«قم بذلك رجاءً»، قال السيّد باينس.

ضغط السيّد تاغومي زرّاً على مكتبه، ومسدّس الكولت ما يزال في يده، فظهر أمامه خطّ هاتفيّ سرّيّ مخصّص للاتّصالات الغامضة، ثمّ طلب رقم القنصليّة الألمانيّة.

«طاب يومكم. من المتّصل؟» أجابه صوت ذكوريّ أوتوماتيكيّاً، بلكنة ثقيلة. لا بدّ أنّه موظّف ضئيل الشأن في القنصليّة.

«لطفاً، أريد التكلّم مع معالي الهر ريس، الأمر عاجل. السيّد تاغومي يتكلّم، رئيسُ لجنة التجارة الإمبراطوريّة السامية»، قال السيّد تاغومي بصوت قاسٍ، جديّ للغاية.

«حاضر سيّدي. لحظة من فضلك»

لكنّها لحظة طالت كثيراً! لم يُسمَع صوت من الطرف الآخر للخطّ، ولا حتّى طقطقة جهاز الهاتف. لا بدّ أنّ الموظّف يقف هناك فحسب حاملاً السمّاعة، استنتج السيّد تاغومي... حيلة إسكندنافيّة تقليديّة!

«سيتجنّبونني بطبيعة الحال!» قال بصوت عال، موجّهاً كلامه للسيّد باينس والجنرال تديكي.

أخيراً، قال صوت موظّف القنصليّة: «آسف لأنّني جعلتك تنتظر يا سيّد تاغومي».

«لا بأس»

«القنصل مشغول باجتماع. بأيّ حال...»

أغلق السيّد تاغومي الخطّ، وقال: «مضيعة للجهد! هذا أقلّ ما يمكنني قوله!». انتابه الضيق. بمن أتّصل؟! لقد تمّ إبلاغ التوكوكا، ووحداتِ الشرطة العسكريّة اليابانيّة المتمركزة عند كاسر الأمواج، ولا جدوى من معاودة الاتصّال بهم. هل أتّصل مباشرة ببرلين؟ بالدكتور غوبلز مستشار الرايخ؟ أم أتّصل بالقاعدة الجويّة العسكريّة الإمبراطوريّة في نابا، وأطلب دعماً جويّاً؟

«سأتّصل برئيس شعبة الاستخبارات النازيّة المحليّة، الهر كروز ڤوم مير» أعلن بصوت عالٍ، «سأقدّم شكوى شديدة اللهجة، على الرغم من أنّ

الصراخ والكلام لا يفيدان بأيّ حال». طلب الرقم المُدْرَج في دليل هاتف سان فرانسيسكو تحت اسم مُلطَّف هو: «مطار اللوفتهانزا، استعلامات قسم حراسة الشحنات الثمينة». عندما سمع الخطّ يرنّ في الطرف الآخر، قال: «سأشتمهم بهستريائيّة وبحدّة».

«ابذل ما في وسعك!»، قال الجنرال تديكي مبتسماً.

سمع السيّد تاغومي صوتَ ألمانيٍّ يجيبه: «من المتّصل؟»، فخطر له فوراً: صوته أشدّ صرامة من صوتي! لكنّه قرّر الاستمرار بخطّته.

«بسرعة!» أمره صوت الألمانيّ، فصرخ السيّد تاغومي: «سآمر باعتقال ومحاكمة عصابتك، عصابة المجرمين والحثالة الذين يعيثون فساداً كأنّهم وحوش شقراء هائجة، العصابة التي لا يمكن وصفها بالكلمات! هل عرفتني يا رجل؟! أنا تاغومي، قنصل الحكومة الإمبراطوريّة. أمامك خمس ثوان فقط، وإلّا سأتخلّى عن الرسميّات وأرسل فرقة القوّات الخاصّة البحريّة كي تبيدكم بقنابل الفوسفور المتوهّجة، أنتم عارٌ على الحضارة!».

غمغم موظّف الاستخبارات النازيّة المتوتّر بشيء ما على الطرف الآخر من الخطّ، فغمز السيّدُ تاغومي السيدَ باينس.

«نحن لا نعرف شيئاً عن الموضوع»، قال الموظّف.

«كاذب!» صرخ السيّد تاغومي، «لم تتركوا لنا خياراً»، وخبط السمّاعة مكانها. «إنّه مجرّد تخويف» قال موجّهاً كلامه للسيّد باينس وللجنرال تديكي، «لكنّه لن يضرّنا بأيّ حال، فقد يتوتّر بعضهم -ولو أنّه احتمال ضئيل- حتّى بين صفوف الاستخبارات النازيّة».

أراد الجنرال تديكي أن يقول شيئاً، لكنّه صمت عندما تعالت ضجّة هائلة خارج المكتب في تلك اللحظة، وانفتح الباب فجأة.

اندفع رجلان ناصعا البياض إلى الغرفة، يتسلّح كلٌّ منهما بمسدّس مزوّد بكاتم للصوت، وبحثا عن السيّد باينس.

«Da ist er!»[4]، صاح أحدهما، وتوجّها إليه.

4- «ها هو هناك!». المترجمة

من خلف طاولة مكتبه، صوّب السيّد تاغومي مسدّس كولت التذكاريّ العتيق، وضغط على الزناد، فهوى أحد الرجلين على الأرض، بينما صوّب الثاني مسدّسه الكاتم للصوت على السيّد تاغومي، وأطلق النار.

لم يسمع السيّد تاغومي صوتاً، بل رأى خيطاً رفيعاً من الدخان ينبعث من فوهة السلاح، وسمع أزيز الرصاصة تشقّ الهواء بالقرب منه. بسرعة خاطفة لا تجارى، أطلق النار المرّة تلو المرّة من مسدّس الكولت، رصاصة فرصاصة.

تفجّر فكّ رجل الاستخبارات النازيّة، وتطايرت في الهواء قطع من عظامه وأسنانه، ومزق من لحمه. لقد أصبته في فمه! أدرك السيّد تاغومي، الفمّ هدف مرعب، خاصّة عندما تتجه كرة المسدّس للأعلى!

هناك بقيّة من الحياة في عيني الرجل الذي تحطّم فكّه... ما يزال قادراً على رؤيتي! فكّر السيّد تاغومي، لكن سرعان ما فقدت هاتان العينان بريقهما، وتهاوى الرجل على الأرض مصدراً حشرجات غير بشريّة، وسقط مسدّسه من يده.

«مثير للاشمئزاز!»، قال السيّد تاغومي.

لم يظهر بلطجيّة آخرون، فقال الجنرال تديكي بعد قليل: «لعلّ الأمر انتهى»، أمّا السيّد تاغومي الذي انشغل بإعادة حشو مسدّسه -وهي مهمّة صعبة تستغرق ثلاث دقائق- فتوقّف كي يضغط زرّ الإنتركوم. «اطلبوا الإسعاف. هناك بلطجيّ مصاب إصابة شنيعة هنا» قال، لكنّه لم يسمع ردّاً، بل مجرّد طنين.

انحنى السيّد باينس، والتقط سلاحي الرجلين. أعطى واحداً للجنرال، واحتفظ بالثاني لنفسه.

«سنقضي عليهم قضاء مبرماً» قال السيّد تاغومي، «لقد حقّقنا انتصاراً مذهلاً في هذا المكتب»، ثمّ عاد للجلوس خلف طاولة مكتبه، ومسدّس الكولت 44 في يده كما في السابق.

في تلك اللحظة، صرخ صوت من الردهة: «أيّها البلطجيّان الألمانيّان! استسْلِما».

«لقد قضينا عليهما» صاح السيّد تاغومي، «أحدهما ميت، والثاني

يحتضر. تعالوا وتأكّدوا بأنفسكم!»، فدخلت مجموعة من موظّفي نيبون تايمز بحماس إلى المكتب، يتسلّح العديد منهم بعدّة مكافحة الشغب الموجودة في المبنى، كالفؤوس والبنادق وقنابل الغاز المسيّل للدموع.

«قضيّة إشكاليّة!» قال السيّد تاغومي، «لا بدّ أن حكومة الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة في ساكرامنتو، ستعلن الحرب على الرايخ دون تردّد»، ثمّ فكّ مسدّسه وأضاف: «بأيّ حال، لقد انتهينا».

«سينكر الرايخ تورّطه بما حصل» قال السيّد باينس، «إنّه التكنيك الروتينيّ، لقد اتّبعوه عدداً لا يحصى من المرّات». وضع المسدّس الكاتم للصوت على طاولة السيّد تاغومي، قائلاً: «صناعة يابانيّة».

فحصه السيّد تاغومي، واكتشف أنّ السيّد باينس لا يمزح: إنّه مسدّس قنّاص مصنوع في اليابان، فاخر النوعيّة.

«ولا يحملان الجنسيّة الألمانيّة»، أضاف السيّد باينس بعد أن فحص محفظة الرجل الميت. «إنّه مواطن من مواطني الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، يعيش في سان خوزيه، ولا شيء يربطه مع الاستخبارات النازيّة. اسمه جاك ساندرز»، ثمّ رمى المحفظة أرضاً.

«سيقولون إنّها محاولة للسرقة تحت تهديد السلاح» قال السيّد تاغومي، «تستهدف خزنتنا المغلقة، ولا توجد دوافع سياسيّة»، ووقف مترنّحاً.

بأيّ حال، محاولة اختطاف السيّد باينس من قبل الاستخبارات النازيّة باءت بالفشل، هذه المرّة على الأقلّ. من الواضح أنّهم يعرفون هويّته الحقيقيّة، وسبب قدومه إلى هنا.

«الاحتمالات ضبابيّة» قال السيّد تاغومي، وتساءل إن كان كتاب التنبؤات سينفعه الآن. لعلّه سيحمينا، فكّر، أو يحذّرنا، أو يخبّئنا، بمّا يقدّمه من نصائح.

مرتجفاً، بدأ بترتيب عيدان الياروالتسعة والأربعين. الوضع برمّته شاذّ ومحيّر، فكّر، يستعصي على ذكاء الإنسان العاديّ، والوحيد القادر على فهمه هو العقل المشترك الذي عمره خمسة آلاف عام. المجتمع الشموليّ الألمانيّ هو نمط شاذّ من أنماط الحياة، أسوأ من النمط الطبيعيّ، سيّئٌ بكلّ ما فيه من خلائط وأمزجة عبثيّة.

الاستخبارات النازيّة هنا، فكّر، تتصرّف كأداة لتنفيذ سياسة تتناقض جذريّاً مع سياسة برلين. أين المنطق في هذا المزيج؟! من هي ألمانيا الحقيقيّة؟! ومن كانت؟! هذا أشبه بتفكيك مجموعة مرعبة من المشاكل الروتينيّة اليوميّة. الآي-تشنغ سيحلّ المسألة، لأنّه يفهم كلّ شيء، حتّى الأنماط الغريبة كألمانيا النازيّة.

لاحظ السيّد باينس كيف يقوم السيّد تاغومي شارد الذهن، بترتيب حفنة من عيدان النباتات، فأدرك أنّه متوتّر للغاية. بالنسبة له، هذه الحادثة، واضطراره لقتل وتشويه رجلين، ليست مجرّد حادث رهيب، بل أمر لا يتصوّره عقل. ماذا أقول له كي أواسيه؟ فكّر، لقد أطلق الرصاص من أجلي، والمسؤوليّة الأخلاقيّة لموت هذين الرجلين تقع على عاتقي، وأنا أقبل بها كما هي.

وقف الجنرال تديكي بجوار السيّد باينس، وقال له بلطف: «أنت شاهد على يأس الإنسان. لقد ترعرع السيّد تاغومي كبوذيّ بلا ريب، وما زال تأثير البوذيّة موجوداً في أعماقه حتّى ولو بشكل غير رسميّ. إنّها ثقافة تحرّم القتل، وتقدّس كلّ أشكال الحياة».

هزّ السيّد باينس رأسه.

«سيستعيد توازنه مع مرور الزمن» تابع الجنرال، «أمّا الآن، فلا توجد أمامه نقطة ثابتة يستند إليها، كي يفكّر من خلالها بما أقدم عليه، بغية فهمه. ذلك الكتاب سيساعده، لأنّه يقدّم إطاراً مرجعيّاً خارجيّاً للأحداث».

«فهمتُ» قال السيّد باينس، وفكّر: الإطار المرجعيّ الآخر الذي قد يساعده، هو عقيدة الخطيئة الأصليّة. أتساءل إن سمع بها! كلّنا محكومون بارتكاب أفعال شرّيرة أو عنيفة أو ظالمة! إنّه قدرنا، المتولّد عن عوامل قديمة... إنّها الكارما. كي ينقذ حياة شخص واحد، اضطرّ السيّد تاغومي لقتل اثنين، ولا يمكن للعقل المنطقيّ المتوازن أن يستوعب ذلك. قد يصاب رجل طيّب مثله بالجنون، بسبب تبعات هذه الحقيقة.

على الرغم من ذلك، استنتج السيّد باينس، لا تكمن النقطة الحاسمة في الحاضر، ولا في موتي، ولا في موت رجلين من رجال الاستخبارات

النازيّة، بل هي نظريّاً في المستقبل، فما سيحدث لاحقاً قد يُبرِّر ما حصل هنا –وربّما لن يبرّره!– هل سننجح بإنقاذ حياة ملايين اليابانيّين؟!

الرجل الذي يرتّب عيدان الياروالآن، عاجز عن إدراك ما سبق. بالنسبة له، الحاضر والواقع ملموسان، إنّهما الألمانيّ الميت وذاك الذي يحتضر على أرض مكتبه. الجنرال تديكي على حقّ، سيتكفّل الزمن بتقديم شرح للسيّد تاغومي، وإلّا فقد ينكفئ إلى عتمة المرض النفسيّ، وستمنعه الحيرة من فتح عينيه مجدداً.

نحن لا نختلف عنه، فكّر السيّد باينس، بل تعترضنا الحيرة ذاتها. بالتالي، لا يمكننا مدّ يد العون له. نحن عاجزون عن القيام بأيّ شيء، ليس أمامنا إلّا أن ننتظر، ونتمنّى له أن يشفى، وألّا ينهار في نهاية المطاف!

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

–13–

دنقر مليئة بالمتاجر الراقية العصريّة، لكنّ الملابس برأي جوليانا باهظة الثمن، أمّا جو فلم يكترث لذلك، ولعلّه لم ينتبه أصلاً، بل دفع ثمن ما اختارته وهما يتنقّلان من متجر إلى آخر.

بعد أن جرّبت العديد من الفساتين، وقارنت بينها واستبعدتها كلّها، ظفرت بجائزتها الكبرى في آخر النهار: فستان إيطاليّ الصنع كلّف جو مئتي دولار تقريباً، بكمّين قصيرين منفوخين وقبّة تكشف عن معظم الصدر، لونه أزرق فاتح، وهو أرقى موديل لهذا العام، فقد سبق لها رؤية عارضة أزياء ترتديه في مجلّة أوروبيّة. اشترت أيضاً ثلاثة أزواج من الأحذية التي تتناسب معه، والكثير من جوارب النايلون، وبضع قبّعات، وحقيبة جلديّة سوداء مصنوعة يدويّاً، من ثمّ اكتشفت أنّ قبّة الفستان الإيطاليّ تتطلّب ارتداء سوتيان من تلك السوتيانات الحديثة، التي لا تغطّي سوى أسفل النهدين فقط. تأمّلت نفسها في مرآة المتجر الطويلة، وشعرت بأنّها عارية أكثر ممّا يجب. أقلقها التفكير بأنّها قد تضطرّ للانحناء مثلاً، لكنّ البائعة أكّدت لها أنّ السوتيان الجديد سيبقى في مكانه، على الرغم من عدم وجود شرائط تثبّته على الكتفين. إنّه يغطّي نهديها إلى مستوى الحلمتين فقط، لا أكثر! فكّرت جوليانا وهي تحدّق بصورتها في مرآة غرفة القياس، فضلاً عن أنّه سيكلّفها ثروة، لأنّه مستورد كما شرحت لها البائعة، ومصنوع يدويّاً.

بعد ذلك، عرضت عليها البائعة ألبسة رياضيّة، وشورتات، ومايوهات، وروباً للبحر، لكنّ جو أخذ يتململ، فتابعا طريقهما. سألته جوليانا، وهو يضع الأكياس والعلب في صندوق السيّارة: «ألا تظنّ أنّني سأبدو رائعة؟!».

«أجل» أجابها وذهنه مشغول بأمر ما، «خاصّة بالفستان الأزرق. البسيه عندما نذهب إلى هناك، لزيارة أبندسن، مفهوم؟». نطق الكلمة الأخيرة بحدّة، كأنّه يوجّه لها أمراً، ففاجأتها نبرته!

«قياسي هو 12 أو 14»، قالت وهما يدخلان إلى متجر آخر، فابتسمت البائعة ابتسامة عريضة، وواكبتهما إلى صفوف الفساتين. ماذا يلزمني أيضاً؟! تساءلت جوليانا، الأفضل أن آخذ كلّ ما يمكنني الحصول عليه! ألقت نظرة على البضائع كلّها مباشرة: بلوزات، تنانير، كنزات، بناطيل، معاطف... أجل، معطف! «جو» قالت بصوت عال، «يلزمني معطف طويل، لكنّني لا أريد واحداً قماشيّاً».

أخيراً، اشترى لها جو معطفاً من النسيج الصنعيّ، مصنوعاً في ألمانيا، يدوم أكثر من الفرو الطبيعيّ، كما أنّه أرخص ثمناً. أصيبت جوليانا بخيبة الأمل، فتأمّلت المجوهرات كي ترفع معنويّاتها، لكنّها كانت مجرّد قطع تقليديّة بشعة، لا ابتكار فيها ولا تفرّد.

«لا بدّ لي من شراء المجوهرات، أقراط على الأقلّ، أو بروش... كي أزيّن الفستان الأزرق»، قالت لجو وهي تجرّه إلى متجر للمجوهرات. «وملابسك!»، تذكّرت وشعرت بالذنب، «علينا أن نشتري لوازمك أنت أيضاً!».

دخل جو إلى صالون للحلاقة كي يقصّ شعره ريثما استعرضت المجوهرات، وعندما عاد بعد نصف ساعة، ذُهِلَت جوليانا! لم يكتفِ بأن يقصّ شعره قصيراً جدّاً فقط، بل صبغه أيضاً، وبالكاد تعرّفت إليه: إنّه أشقر! يا إله السماوات! فكّرت وهي تتأمّله، لماذا؟!

هزّ جو كتفيه قائلاً: «لقد سئمتُ كوني إيطاليّاً»، ولم يقل المزيد، بل رفض أن يناقش ذلك معها.

دخلا إلى متجر يبيع الملابس الرجاليّة، واشتريا لجو بزة أنيقة من قماش الداكرون، وهو قماش صنعيّ جديد من إنتاج دو-بونت، وجوارب جديدة، وملابس داخليّة، وزوجاً من الأحذية الأنيقة المدبّبة. ماذا أيضاً؟ فكّرت جوليانا، أجل، قمصان وربطات عنق! انتقت بمساعدة البائع قميصين

أبيضين بكفّات أكمام فرنسيّة الطراز، وعدّة ربطات عنق فرنسيّة أيضاً، وزوجاً من الأزرار الفضيّة التي تُثبَّت على أكمام البزّات. استغرق شراء حاجيّاته كلّها أربعين دقيقة لا غير، فأذهلها كم كان ذلك سهلاً بالمقارنة مع تسوّق ما يلزمها.

يجب أن يعدّل قياس البزة قليلاً، فكّرت، لكن صبر جو نفد، ودفع الفاتورة بعملة الرايخسبانك. وجدتُها! فكّرت جوليانا، تلزمه محفظة نقود جديدة! واختارت له بمساعدة البائع محفظة سوداء من جلد التمساح، وهذا كلّ شيء! غادرا المتجر، وعادا إلى السيّارة. إنّها الرابعة والنصف عصراً، والتسوّق -برأي جو على الأقلّ- انتهى.

«ألا تريد أن تضيّق خصر البزة قليلاً؟!» سألته، وهو يسوق السيّارة متّجهاً إلى مركز المدينة.

«لا»، وأفزعها صوته الجافّ الفظّ.

«ما المشكلة؟ هل اشتريتُ الكثير؟!». هذا هو السبب، قالت لنفسها، لقد جعلتُه ينفق الكثير من المال. «بوسعي أن أعيد بعض التنانير»، أضافت.

«دعينا نتناول العشاء»، قال جو.

«يا إلهي!» قالت، «لقد نسيتُ أن أشتري بيجاما!»، فحدّق إليها غاضباً.

«ألا تريدني أن أشتري بيجاما جديدة جميلة؟ كي أشعر بالانتعاش و...»

«لا!» قال وهو يهزّ رأسه، «انسي الأمر. دعينا نبحث عن مكان نأكل فيه».

«سنذهب إلى الفندق أوّلاً، كي نغيّر ثيابنا، من ثمّ نأكل»، أجابته بحزم. من الأفضل أن يكون فندقاً فخماً، فكّرت، أو ستنتهي رحلتنا عند هذا الحدّ، حتّى ولو تأخّر الوقت! سنستعلم في الفندق عن أفضل المطاعم في دنفر، وعن نادٍ ليليّ جيّد يقدّم استعراضاً لا مثيل له... لا أريد رؤية مواهب محليّة، بل أسماء لامعة من أوروبّا، كإليانور بيريز أو وليام بِيك. أعرف أنّ العديد من نجوم شركة الأفلام الألمانيّة الكبار يزورون دنفر، لأنّني رأيتهم في الإعلانات... ولن أرضى بما دون ذلك!

استرقت جوليانا النظر إلى الرجل الذي يجلس بجانبها، وهما يبحثان

عن فندق جيّد. بشعره القصير، وملابسه الجديدة، بدا جو شخصاً مختلفاً تماماً. هل يعجبني أكثر هكذا؟! سألت نفسها، من الصعب أن أجد الجواب، كما أنّني بعد أن أصفّف شعري... حسناً، سنبدو كلانا شخصين مختلفين، يُخلَقان من اللّا شيء، أو بالأحرى: من النقود. عليّ أن أصفّف شعري أوّلاً!

عثرا على فندق ضخم فاخر في مركز المدينة، يقف على بابه حاجب يرتدي زيّاً خاصّاً، رتّب مسألة تركين السيّارة نيابة عنهما، تماماً كما أرادت جوليانا. بعد ذلك، جاء حمّال -رجل راشد في الواقع وليس صبيّاً صغيراً كما جرت العادة، يرتدي زيّاً بنيّ اللون- وحمل كلّ الأكياس والعلب بسرعة، فلم يبق أمام جو وجوليانا إلّا صعود الدرج العريض المفروش بالسجّاد، والعبور تحت المظلّة التي تظلّل المدخل، من ثمّ الدخول من الباب المصنوع من خشب الماهوغاني والزجاج إلى بهو الفندق.

تصطفّ على جانبي البهو دكاكين صغيرة: زهور، حلويّات، هدايا، ومكتب تلغراف وآخر لحجز تذاكر الطيران. نزلاء الفندق العديدون يقفون أمام مكتب الاستقبال وعند المصاعد، وهناك نباتات زينة في أصص ضخمة، وسجّاد سميك ناعم يغطّي الأرض. شمّت جوليانا رائحة الفندق، والناس، والنشاطات، وتأمّلت اللّافتات الضوئيّة التي تشير إلى المطعم وقاعة الكوكتيل والبار، وبالكاد استطاعت أن تستوعب كلّ ما يحيط بها وهي تقطع البهو مع جو، إلى أن وصلا مكتب الاستقبال.

هناك متجر للكتب أيضاً!

تولّى جو مهمّة تسجيل اسميهما وحجز غرفة، بينما هرولت جوليانا إلى متجر الكتب بحثاً عن رواية الجندب يُستثقَل. أجل، إنّهم يبيعونها هنا، وها هي الرواية... كدسة كاملة من النسخ اللّامعة، إلى جانب ملاحظة تشرح للزبائن أنّ الرواية فائقة الأهميّة وتحظى بشعبيّة بالغة، فضلاً عن أنّها محظورة في المناطق التي يديرها الألمان. البائعة كانت سيّدة في أواسط العمر، مبتسمة، وأشبه بجدَّة، باعتها الكتاب بأربعة دولارات، وهو سعر باهظ برأي جوليانا، لكنّها سدّدت الثمن بعملة الرايخسبانك التي أخرجتها من حقيبتها الجديدة، وأسرعت عائدة كي تنضمّ إلى جو.

سار الحمّال أمامهما مع الأمتعة، وقادهما إلى المصعد، من ثمّ إلى الطابق الثاني، وعبر الردهة الصامتة الدافئة المفروشة بالسجّاد، وصولاً إلى غرفتهما الفاخرة الساحرة. فتح لهما الباب، وضع كلّ ما يحمله في الداخل، ثمّ رتّب الستائر والأضواء، وغادر بعد أن منحه جو بخشيشاً، وأقفل الباب خلفه.

سار كلّ شيء كما تخيّلته جوليانا بالضبط!

«كم سنبقى في دنفر، قبل أن ننطلق إلى شايان؟»، سألت جو المشغول بفتح العلب الموضوعة على السرير، لكنّه لم يجبها، لأنّه كان مستغرقاً كلياً بتفحّص محتويات حقيبته.

«يوم؟ يومان؟» سألت وهي تخلع معطفها الجديد، «هل تعتقد أنّ بإمكاننا البقاء ثلاثة أيّام؟».

رفع جو رأسه، وأجابها: «سنذهب الليلة».

لم تفهم ما سمعته في البداية، ولم تصدّقه عندما استوعبته أخيراً! حدّقت إلى جو، فحدّق إليها بتكشيرة ساخرة. وجهه المتشنّج ينمّ عن توتّر هائل، لم تشهد مثيلاً له في وجه أيّ إنسان طيلة حياتها. لم يتحرّك، بل بدا كالمشلول، يداه تحملان الثياب التي كانت في حقيبته، وجسده منحنٍ.

«بعد أن نأكل»، قال أخيراً.

لم تجد ما تقوله.

«لذلك البسي فستانك الأزرق باهظ الثمن ذاك» قال، «الفستان الذي أعجبكِ، الفستان الأنيق للغاية... فهمتِ؟»، ثمّ أضاف وهو يفكّ أزرار قميصه: «سأحلق ذقني، وآخذ دوشاً ساخناً». صوته ميكانيكيّ، كأنّه يتكلّم عبر آلة ما على بعد أميال.

استدار أخيراً، وسار إلى الحمّام بخطوات قصيرة متشنّجة.

«لقد تأخّر الوقت كثيراً الآن»، هو كلّ ما استطاعت جوليانا قوله، وبصعوبة.

«كلّا، سننتهي من العشاء بحدود الساعة الخامسة والنصف، أو السادسة والنصف على أبعد تقدير. سنصل إلى شايان خلال ساعتين أو ساعتين ونصف، أي في حوالي الثامنة والنصف أو التاسعة. بوسعنا أن نتّصل

بأبندسن من هنا، كي نبلغه بقدومنا، ونشرح له الوضع. الاتّصال من منطقة بعيدة سيبهره، سنقول له إنّنا فارّان من الساحل الغربيّ، وأنّنا سنبقى في دنڤر ليوم واحد فقط، لكنّنا معجبان أشدّ الإعجاب بروايته، وسنقود السيّارة إلى شايان ونعود إلى دنڤر في اليوم ذاته، فقط كي نحظى بفرصة لـ...».

«لماذا؟!»، قاطعته جوليانا.

اغرورقت عيناها بالدموع، ووجدت نفسها تكوّر قبضتيها -أصابعها حول الإبهام- كما كانت تفعل وهي طفلة صغيرة، وارتجف فكّاها. بالكاد استطاعت أن تنطق بصوت لا يكاد يُسمَع: «لا أريد أن أذهب لرؤيته اليوم. لن أذهب! لا أريد أن أذهب أبداً، ولا حتّى غداً. أريد فقط أن أتفرّج على المدينة هنا، كما وعدتني!». داهمها الخوف مجدّداً وجثم على صدرها، وذلك الرعب الأعمى الغريب الذي لم يفارقها مطلقاً، حتّى في أبهى اللحظات التي أمضياها معاً، تعالى مرّة أخرى، واستولى عليها. شعرت به يرتجف في وجهها، ويُشعّ، إلى حدّ أن جو قد ينتبه له.

«سنزوره زيارة خاطفة» قال جو، «من ثمّ نعود إلى هنا، وآخذكِ كي نتفرّج على المدينة كما وعدتكِ». كلامه منطقيّ، لكنّه جامد، كأنّه يتلوه من ورقة.

«كلّا!»، قالت.

«البسي ذلك الفستان الأزرق!». نبش الأكياس إلى أن عثر عليه في أكبر علبة، ففكّ رباطها بحرص، وأخرج الفستان وفرده على السرير على مهل.

«موافقة؟ ستخطفين الأبصار! اسمعي، سنشتري زجاجة ويسكي غالية نأخذها معنا، زجاجة ڤات 69».

فرانك! فكّرت جوليانا، ساعدني، أنا عالقة في وضع لا أفهمه!

«المكان أبعد ممّا تتصوّر» قالت بصوت عال، لقد بحثتُ عنه في الخريطة. إن ذهبنا اليوم، سنصل متأخّرين جدّاً، في الحادية عشرة أو بعد منتصف الليل».

«البسي هذا الفستان أو سأقتلكِ!»

أغمضت جوليانا عينيها، وقهقهت. تدريباتي، فكّرت، حقيقيّة! سنرى

الآن إن كان بوسعه قتلي حقّاً، أم أنّني سأصيب عصباً في ظهره، وأشلّه مدى الحياة! لكنّه قاتل أولئك الكوماندوس البريطانيّين، وسبق له خوض تجربة مماثلة قبل سنوات عديدة.

«أعرف أنّك قادرة على طرحي أرضاً» قال جو، «لكن... ربّما تستطيعين ذلك، وربّما لا».

«لن ألقيك أرضاً» قالت جوليانا، «بل سأشوّهك مدى الحياة. أستطيع ذلك، لقد عشتُ في الساحل الغربيّ، وتتلمذتُ على يد اليابانيّين في سياتل. اذهب بمفردك إلى شايان إن أردتَ، واتركني هنا. لا تجبرني على الذهاب معك، أنا خائفة منك وسأحاول أن...»، تكسّر صوتها وهي تضيف: «سأحاول أن أؤذيك حقّاً إن اقتربتَ منّي!».

«أوه! هيّا، البسي الفستان اللعين! ما كلّ هذا؟! لا بدّ أنّكِ مجنونة. كلّ هذه الثرثرة عن القتل والتشويه، فقط لأنّني أريدك أن تقفزي معي إلى السيّارة بعد العشاء، وأن نقطع الأوتوستراد معاً، كي نزور ذلك الرجل الذي أعجبكِ كتابه؟!».

قُرِع الباب في تلك اللحظة، ففتحه جو. إنّه صبيّ يلبس زيّ عمّال الفندق، قال له: «خدمة تنظيف الثياب! لقد طلبتَها في مكتب الاستقبال يا سيّدي».

«آه أجل» قال جو، وعاد إلى السرير حيث التقط القميصين الأبيضين الجديدين، وناولهما لصبيّ الفندق. «هل بوسعك الانتهاء منهما خلال نصف ساعة؟»، سأله.

«لا يلزمهما إلّا كيّ الثنيات فقط» أجاب الصبيّ متفحّصاً القميصين، «لا يحتاجان إلى غسيل. أجل، أنا واثق أنّ بإمكاننا الانتهاء منهما خلال نصف ساعة يا سيّدي».

سألته جوليانا ما إن أغلق الباب: «كيف تعرف أنّه لا بدّ من كيّ القميص الجديد قبل ارتدائه؟!».

لم يجبها، بل اكتفى بهزّ كتفيه.

«لقد نسيتُ أنا ذلك» تابعت، «والمرأة هي من يعرف هذه الأمور! المرأة هي من تعرف أنّ القميص يكون مكرمشاً، عندما يُنزَع عنه ورق التغليف».

«اعتدتُ على التأنّق والخروج كثيراً، عندما كنتُ شابّاً»

«كيف تعرف بوجود خدمة تنظيف الملابس في الفندق؟! لم أعرف ذلك. هل قصصت شعرك حقّاً وصبغتَه؟ أعتقد أنّك أشقر أصلاً، وأنّك كنت تضع باروكة».

هزّ جو كتفيه مرّة أخرى.

«لا بدّ أنّك أحد رجال الاستخبارات النازيّة» قالت، «أنت تدّعي بأنّك سائق شاحنة إيطاليّ. لم تحارب في شمالي إفريقيا، أليس كذلك؟ مهمّتك هي أن تأتي إلى هنا كي تقتل أبندسن، أليس كذلك؟! أعرف أنّها الحقيقة! أنا غبيّة جدّاً!». شعرتْ بأنّها مرهقة للغاية.

بعد فاصل قصير من الصمت، قال جو: «لقد قاتلتُ حقّاً في شمالي إفريقيا، ليس مع مدفعيّة باردي، بل مع فرقة براندبيرغ، أي مع كوماندوس الجيش النازيّ، وأنا لا أرى فرقاً بينهما. لقد تمكّنا من اختراق قيادة الجيش البريطانيّ، وشهدنا الكثير من المعارك، كما أنّني كنتُ برتبة عريف... ذهبتُ إلى القاهرة وربحتُ الميداليّة وتقديراً في المعركة».

«هل قلم الحبر ذاك هو سلاح؟»

لم يجبها.

«قنبلة!»، هتفت بصوت عال، «إنّه قنبلة! فخّ لعين مبرمج بحيث ينفجر ما إن يلمسه شخص ما».

«كلّا» أجابها، «ما رأيتِه هو جهاز بثّ واستقبال باستطاعة 2 واط، كي أتواصل مع رؤسائي عبر الراديو في حال طرأ تغيير على الخطط، وكي أبقى مطّلعاً على الوضع السياسيّ اليوميّ في برلين».

«وكي تبلغهم قبل أن تنفّذ المهمّة مباشرة!»

أومأ جو بالإيجاب

«أنت لست إيطاليّاً، بل ألمانيّ»

«أنا سويسريّ»

«زوجي يهوديّ!»

«لا يهمّني زوجك، كلّ ما أريده منك هو أن ترتدي الفستان، وأن ترتّبي

نفسك كي نذهب لتناول العشاء. سرّحي شعرك قليلاً، أتمنّى لو أنّك ذهبتِ إلى صالون التجميل! لعلّ صالون الفندق مفتوح، اذهبي وصفّفي شعرك هناك، ريثما أستحمّ وأستعيد القميصين».

«كيف ستقتله؟»

«البسي الفستان الجديد من فضلك جوليانا!» قال جو، «سأتّصل بمكتب الاستقبال، وأسألهم عن صالون التجميل»، وتوجّه صوب جهاز الهاتف الموجود في الغرفة.

«لماذا تحتاجني إلى جانبك؟»، سألته.

«وفقاً لملفّ أبندسن، نقطة ضعفه هي الفتيات المثيرات داكنات البشرة، خاصّة اللواتي ينحدرن من حوض البحر المتوسّط، أو من الشرق الأوسط»، أجابها جو وهو يطلب رقم مكتب الاستقبال.

استقلت جوليانا على السرير ريثما أجرى جو استعلاماته. أغمضت عينيها، ثمّ غطّت وجهها بذراعيها.

«لديهم مزيّنة شعر» قال جو وهو يغلق الخطّ، «وستستقبلك على الفور. اذهبي إلى الصالون، إنّه في الطابق الأوسط[1]». ناولها شيئاً ما، اكتشفت أنّه عملة الرايخسبانك عندما فتحت عينيها. «كي تدفعي أجورها»، أضاف.

«ارتكني مستلقية أرجوك»، قالت جوليانا.

تأمّلهما بمزيج من الفضول والاهتمام.

«لو لم يدمّر ذلك الحريق الهائل سان فرانسيسكو» قالت جوليانا، «لكانت أشبه بسياتل. سياتل هي ميناء، وتضاريسها وعرة تماماً كنظيرتها. معظم المباني فيها خشبيّة عتيقة، وبعضها آجريّ. اليابانيّون موجودون في سياتل منذ زمن طويل، منذ ما قبل الحرب. أنشأوا فيها حيّاً خاصّاً بهم يضمّ أعمالهم ومنازلهم ومتاجرهم... إلخ، وهو حيّ قديم جدّاً. ذهبتُ إليها برفقة رجل يعمل بالتجارة البحريّة، يابانيّ عجوز اسمه مينورو إيشوياسو، درّبني على الجودو أثناء وجودي هناك. كان مدوّراً مثل لعبة اليويو، ويرتدي دائماً

1- طابق قليل الارتفاع، يُبنى عادة بين الطابق الأرضيّ والطابق الأوّل. المترجمة

سترة وربطة عنق. أعطى دروسه في الطابق العلويّ من عمارة تضمّ مكاتب لليابانيّين، حيث علّق على بابه لوحة اسميّة مذهّبة عتيقة الطراز... لديه غرفة انتظار تشبه عيادة طبيب أسنان! لقد عمل مع ناشيونال جيوغرافيك أيضاً».

انحنى جو فوقها، وأمسكها من ذراعها، ثمّ سندها كي تجلس، وقال: «ما مشكلتك؟ أنت تتصرّفين كأنّك مريضة». تفرّس في وجهها، متفحّصاً ملامحها.

«أنا أحتضر»، قالت.

«إنّها مجرّد نوبة هلع. ألا تصابين بها دائماً؟ بوسعي أن أجلب لك مهدّئاً من صيدليّة الفندق، ما رأيك بالفينوباربيتال؟ كما أنّنا لم نتناول طعاماً منذ العاشرة صباحاً... ستكونين بخير. لا يتوجّب عليك القيام بأيّ شيء عندما نصل إلى منزل أبندسن، فقط قفي بجانبي وأنا سأتولّى الحديث. ابتسمي فقط، وكوني ودودة معي ومعه. اجلسي معه واشغليه بالأحاديث، كي يبقى معنا ولا يغادرنا إلى مكان ما. أنا متأكّد من أنّه سيسمح لنا بالدخول ما إن يراك، خاصّة بفستانك الإيطاليّ ذاك، وقبّته المفتوحة... سأُدخلكِ فوراً لو كنتُ مكانه!».

«دعني أدخل إلى الحمّام» قالت، «أشعر بالغثيان. أرجوك!»، وحاولت أن تتحرّر من قبضته. «أشعر بالغثيان، اتركني».

أفلتها جو، فدخلت إلى الحمّام، وأغلقت الباب وراءها. يمكنني القيام بذلك! فكّرت، وأضاءت المصباح. أبهرها نوره القويّ، فزمّت عينيها. سأجدها هنا، قالت لنفسها، في خزانة الأدوية، هدية ترحيبيّة من الفندق: شفرات حلاقة، معجون أسنان، صابون...

فتحت علبة الشفرات الجديدة الصغيرة، شفرات ذات حافّة حادّة واحدة. أجل! نزعت الغلاف عن الشفرة الجديدة اللمّاعة، بلونها الأزرق المسوّد.

تدفّق ماء الدوش، فوقفت تحته. يا إلهي! نسيت أن تخلع ثيابها، وها هي قد تَلِفَتِ الآن، ثوبها يلتصق بجسدها والماء يتقاطر من شعرها. ارتعبت، وكادت تقع وهي تخطو بعيداً عن الدوش، وأخذت تبكي عندما سال الماء من جوربيها.

وجدها جو واقفة بالقرب من الحوض. لقد خلعت ثيابها المبلّلة التالفة، ووقفت عارية، تسند نفسها بذراع واحدة. «يا يسوع المسيح!» قالت عندما أدركت أنّه واقف بجانبها، «لا أعرف ماذا أفعل. تلف ثوبي، إنّه من الصوف!» وأشارت إليه، فاستدار ورأى كومة الثياب المبلّلة.

بهدوء شديد، على الرغم من وجهه العابس، قال لها: «حسناً، لن تلبسيه أصلاً»، ثمّ جفّفها بمنشفة بيضاء منفوشة من مناشف الفندق، وأخرجها من الحمّام إلى الغرفة الرئيسيّة الدافئة المفروشة بالسجّاد قائلاً: «البسي ثيابك الداخليّة، ضعي أيّ شيء عليك. سأتّصل بمزيّنة الشعر، وأطلب منها القدوم إلى هنا، يجب عليها ذلك. هذا كلّ شيء»، من ثمّ أمسك الهاتف مجدّداً، وطلب رقم مكتب الاستقبال.

«ما هو الدواء الذي جلبته لي؟»، سألته جوليانا مأ إن انتهى من المكالمة.

«نسيتُ! سأتّصل بالصيدليّة... كلّا، انتظري! معي دواء، نمبوتال أو عقّار ما لعين آخر». أسرع إلى حقيبته، وبدأ ينبشها.

ناولها أخيراً كبسولتين لونهما أصفر، فأخذتهما بحركة خرقاء، وسألته: «هل سيقضي عليّ هذا العقّار؟».

«ماذا؟!»، سألها ووجهه يختلج.

هل سيتعفّن أسفل جسدي؟ فكّرت، وهل سيجفّ مغبني؟! ثم قالت بحذر: «هل سيسبّب لي ضعفاً في التركيز؟».

«كلّا، إنّه عقّار تصنعه شركة إيه. جي. شيمي الألمانيّة، وأنا أستعمله عندما أعجز عن النوم. سأجلب لك كأساً من الماء»، وركض.

الشفرة! فكّرت، لقد ابتلعتُها، وستمزّق أحشائي إلى الأبد! إنّه عقاب لي، لأنّني تزوّجتُ يهوديّاً، ونمتُ مع مجرم من الغستابو... ترقرقت الدموع في عينيها، إنّه عقاب لي على كلّ ما اقترفتُه، لقد قُضيَ عليّ!

«دعنا نذهب» قالت وهي تقف على قدميها، «إلى مزيّنة الشعر».

«ما زلت عارية!»، قال جو، وأمسكها ثمّ أجبرها على الجلوس، وحاول أن يُلبِسها سروالها الداخليّ، لكن عبثاً. «يجب أن تصفّفي شعرك» قال بنبرة يائسة، «أين تلك الـ hur... تلك المرأة؟!».

قالت جوليانا ببطء، وبصعوبة: «الشَعر يخلق دبّاً، والدبّ يزيل البقع عن العري. الاختباء، لا جلد يتعلّق بشصّ، شصّ من الربّ. Hear, hair, hur[2]».

لقد ابتلعتِ الكبسولتين، اللتين تحتويان على الأرجح مادّة حمض التربنتين. لقد اجتمعوا كلّهم، وقرّروا أنّ المذيب الحامضيّ الخطير، يجب أن يأكلني حيّة إلى الأبد! قالت لنفسها. حدّق إليها جو، وقد شحب وجهه. لا بدّ أنّه قرأ أفكاري، فكّرت، قرأ ذهني بآلته تلك، التي لم أعثر عليها.

«هذا الدواء...» قالت بصوت عال، «يحيّر ويشوّش».

«لكنّك لم تأخذي الكبسولتين بعد!» قال جو، وأشار إلى قبضتها المطبقة، فاكتشفت أنّ الكبسولتين ما تزالان في راحة يدها.

«أنت مريضة عقليّاً» أضاف جو الذي تحوّل إلى كتلة بطيئة خاملة، «أنت مريضة للغاية، ولا يمكننا الذهاب».

«لا أريد طبيباً» قالت، «سأكون بخير». حاولت أن تبتسم، وهي تتفحّص وجهه بحثاً عن أيّ انعكاس لأفكاره، هل كشف هذياناتي على حقيقتها؟!

«لا يمكنني أن آخذك إلى أبندسن» قال، «ليس الآن بأيّ حال. غداً، ربّما تصبحين أفضل حالاً، وسنجرّب مرّة أخرى. لا بدّ من ذلك».

«هل لي أن أدخل الحمّام مرّة أخرى؟»

أومأ لها موافقاً، ووجهه يختلج. بالكاد سمع ما قالته.

دخلت جوليانا إلى الحمّام، وأغلقت الباب خلفها كما في السابق. هناك شفرة أخرى في الخزانة، أمسكتها بيدها اليمنى، وعادت إلى الغرفة.

«باي باي»، قالت.

صرخ جو عندما فتحت باب الغرفة الخارجيّ، وأمسكها بعنف.

ضربة سريعة!

«هذا شنيع!»، قالت، «الرجال يعْتَدُون دائماً، كان عليّ أن أعرف!». أنا متأهبّة دائماً لأيّ شخص يحاول خطف حقيبتي، وللتصّدي للمتسكّعين

2- Hur الألمانيّة تعني من أو ماذا، وأوحت لجوليانا التي تهذي بمفردات تتشابه نوعاً ما من حيث اللفظ بالإنجليزيّة: hear يسمع، Hair شَعر». المترجمة

الليليّين على اختلافهم. بمقدوري أن أصدّهم بكلّ تأكيد، قالت لنفسها، وأين انتهى الحال بهذا الرجل؟ إنّه يمسك رقبته ويرقص.

«اتركني أذهب» قالت له، «لا تحاول أن تعترض طريقي وإلّا لقّنتُك درساً. بأيّ حال، النساء فقط...». رفعت الشفرة عالياً، ثمّ فتحت الباب.

جلس جو أرضاً، يداه تضغطان على رقبته من الجهتين، كأنّه مصاب بحرق شمس. «وداعاً» قالت له، وأغلقت الباب خلفها، ثمّ سارت في الردهة الدافئة المفروشة بالسجّاد. ظهرت امرأة ترتدي رداء أبيض، تدندن أو تغنّي، منحنية فوق عربة تدفعها أمامها. رمقت الأرقام على الأبواب، ثمّ وقفت أمام جوليانا ورفعت رأسها، فجحظت عيناها وفغرت فمها.

«آه يا حلوتي!» قالت، «أنت بحالة سيئة حقّاً، ويلزمك أكثر من مجرّد تسريح شعرك! ادخلي فوراً إلى غرفتك، والبسي ثيابك قبل أن يلقوا بك خارج الفندق. آه أيّها الربّ الرحيم!». فتحت الباب خلف جوليانا، وتابعت: «هل جعلكِ رجلكِ تثملين؟ سأطلب من خدمة الغرف أن يرسلوا لكِ قهوة ساخنة. أرجوك، ادخلي إلى غرفتك الآن».

دفعت المرأة جوليانا إلى الداخل، ثمّ صفقت الباب بعنف، وابتعد صوت عربتها رويداً رويداً.

إنّها مزيّنة الشعر! أدركت جوليانا، ونظرت إلى جسدها، فاكتشفت أنّ المرأة على حقّ: إنّها عارية تماماً.

«جو» قالت، «لم يسمحوا لي بالذهاب». مشت إلى السرير، حيث عثرت على حقيبتها، ففتحتها وأخرجت منها ثيابها: ملابس داخليّة، بلوزة وتنوّرة، وحذاء كعبه واطئ. «لقد أجبروني على العودة مجدّداً» قالت، ثمّ وجدت مشطاً، فمشّطت شعرها وسرّحته بسرعة. «يا لها من تجربة! تلك المرأة في الخارج، كانت على وشك أن تطرق الباب»، ثمّ سألت وهي تبحث عن مرآة: «هل أبدو أفضل حالاً؟». وجدت واحدة معلّقة على باب الخزانة، تأمّلت انعكاسها فيها، ودارت يميناً ويساراً، ووقفت على رؤوس أصابعها.

«أشعر بالإحراج البالغ!» قالت وهي تتلفّت بحثاً عن جو، «بالكاد أدرك

ما أقوم به، لا بدّ أنّك أعطيتني عقاراً ما، أيّاً كان، جعلني أمرض عوضاً عن أن يشفيني».

جو، الذي ما يزال جالساً على الأرض وهو يضغط على عنقه، قال: «اسمعي، أنت بارعة حقّاً، لقد قطعتِ الشريان الأبهر، شريان عنقي».

قهقهت جوليانا وهي تغطّي فمها بيدها، وقالت: «يا إلهي! أنت مسخ، أقصد... لقد أخطأتَ بانتقاء كلماتك. الأبهر هو شريان في صدرك، أنت تقصد الشريان السباتيّ».

«إن رفعتُ يدي» قال جو، «سينزف دمي كلّه خلال دقيقتين كما تعرفين. لذلك، اطلبي المساعدة، اطلبي طبيباً أو سيّارة إسعاف. هل تفهمين ما أقوله؟ هل قمت بذلك عمداً؟ أجل، هذا واضح. لا بأس، هل ستتّصلين أو تطلبين سيّارة إسعاف؟».

فكّرت جوليانا قليلاً، ثمّ أجابت: «أجل، فعلتُ ذلك عمداً».

«حسناً» قال، «بأيّ حال، اطلبي المساعدة من أجلي».

«اطلبها بنفسك»

«لا يمكنني أن أسدّ الجرح بإحكام». لقد تسرّب الدم من بين أصابعه كما لاحظت، وغطّى معصميه، وهناك بركة دم على الأرض أيضاً. «لا أجرؤ على الحراك» قال جو، «يجب أن أبقى هنا».

لبست جوليانا معطفها الجديد، أغلقت حقيبتها الجلديّة الجديدة المصنوعة يدويّاً، ثمّ التقطت حقيبة ملابسها، وكلّ ما استطاعت حمله من العلب والأكياس، حريصة على أخذ العلبة الكبيرة التي تحوي الفستان الإيطاليّ الأزرق. ألقت نظرة على جو وهي تفتح الباب، ثمّ قالت: «ربّما أخبر مكتب الاستقبال في الأسفل».

«أجل»، قال.

«حسناً» قالت، «سأخبرهم. لا تبحث عنّي في شقّتي في مدينة كانون سيتي، لأنّني لن أعود إليها. لقد أخذتُ معظم ما تحمله من عملة الرايخسبانك، لذلك أنا أفضل حالاً على الرغم من كلّ ما حصل. وداعاً، أنا آسفة!».

أغلقت الباب خلفها، وركضت عبر الردهة بأقصى سرعة، حاملة الحقيبة والعلب. عند المصعد، ساعدها رجل أعمال كهل أنيق وزوجته، أخذا العلب منها، من ثمّ ناولاها لحمّال في بهو الفندق. «شكراً لكما»، قالت جوليانا.

حمل الصبيّ أغراضها، وخرجا من البهو إلى الرصيف أمام الفندق، فعثرت جوليانا على موظّف شرح لها كيف تستعيد سيّارتها، وسرعان ما وجدت نفسها في الكراج الأسمنتيّ البارد تحت الفندق، بانتظار أن يجلبها لها المشرف. عثرت في حقيبتها على الكثير من الفكّة، فأعطته بخشيشاً، وقادت سيّارة الستوديبيكر عبر مصطبة تضيئها أنوار صفراء إلى الشارع المعتم، وها هي مصابيحها الأماميّة تشعّ بين أضواء السيّارات الأخرى واللّافتات الضوئيّة الإعلانيّة.

قام البوّاب الواقف أمام باب الفندق بتحميل أمتعتها بنفسه في صندوق السيّارة، مبتسماً كأنّه يشجّعها من قلبه، لذلك نفحته بخشيشاً ضخماً، من ثمّ انطلقت في طريقها. لم يوقفها أحد، بل لم يستغرب أحد على ما يبدو رؤيتها تغادر، وهو ما أدهشها. أعتقد أنّهم يدركون بأنّ جو هو من سيسدّد الحساب، ولعلّه دفع المبلغ كاملاً عندما حجز الغرفة، فكّرت.

تذكّرت وهي تنتظر أمام إشارة المرور بين السيّارات الأخرى، أنّها لم تخبر موظّفي مكتب الاستقبال عن جو، الذي يجلس على أرض الغرفة بانتظار الطبيب. لا بدّ أنّه ما يزال هناك، وسيبقى بانتظارها من الآن فصاعداً، إلى أن ينتهي العالم، أو إلى أن تأتي عاملة التنظيفات غداً في وقت ما. الأفضل أن أعود، قرّرت، أو أن أتّصل بهم. سأتوقّف عند هاتف مأجور، وأتّصل.

هذا سخيف جدّاً! فكّرت وهي تقود سيّارتها بحثاً عن مكان تركنها فيه، كي تبحث عن هاتف. من كان سيفكّر بهذا قبل ساعة؟! عندما نزلنا في الفندق، عندما تسوّقنا.... لقد كادت اللحظة أن تمرّ كما خطّطنا لها، كدنا نرتدي ثيابنا الجديدة، ونذهب لتناول العشاء، وبعدها إلى نادٍ ليليّ مثلاً.

اكتشفت أنّها بدأت تبكي مرّة أخرى، عندما سالت الدموع من أنفها إلى بلوزتها. لو استشرتُ كتاب التنبّؤات لحذّرني، لِمَ لم أفعل ذلك؟! كان بوسعي أن أسأله في أيّة لحظة، في أيّ مكان على طول الرحلة، أو حتّى

قبل أن نغادر! انتحبت لا شعوريّاً، فأرعبها صوتها، وذلك العويل الذي لم تسمعه يصدر من فمها من قبل، لكنّها لم تقوَ على كبحه حتّى عندما كزّت على أسنانها، فتصاعد عويل بشع أشبه بالغناء من أنفها.

ركنت السيّارة تاركة المحرّك يعمل، ودسّت يديها في جيبي معطفها مرتجفة. يا للمسيح! قالت لنفسها ببؤس، حسناً، أعتقد أنّ هذا يحدث أحياناً! نزلت من السيّارة، وجرّت حقيبتها من الصندوق، ثمّ فتحتها على المقعد الخلفي، وبحثت بين الثياب والأحذية إلى أن عثرت على كتاب الآي-تشنغ، بجزأيه المغلّفين بتجليد أسود. هناك، على المقعد الخلفيّ، والمحرّك ما يزال يعمل، بدأت برمي ثلاثة دايمات[3] من عملة ولاية جبال روكي، مستعينة بالضوء المنبعث من واجهة متجر. ماذا أفعل؟ سألت كتابَ التنبّؤات، قل لي ماذا أفعل أرجوك! مكتبة سُر مَن قرأ

ظهر أمامها الهكساغرام الثاني والأربعون: «الزيادة»، لكنّه تبدّل بعد أن ظهرت خطوط متحرّكة في المواقع الثاني والثالث والرابع والموقع العلويّ، فتحوّل إلى الهكساغرام الثالث والأربعين: «الانطلاق». قلّبت جوليانا الصفحات بجنون، والتهمت النصّ التهاماً وهي تجمع معاني المراحل المتتالية في ذهنها، محاولة أن تستوعبها. يا إلهي! إنّه يصوّر الوضع تماماً كما حصل بالضبط! إنّها معجزة! كلّ ما حصل، مكتوب هنا أمام عينيها ضمن مخطّط واضح منهجيّ:

إنّه يحثّ المرء / على القيام بفعل ما / ويدفع المرء إلى عبور الماء العظيم.

إنّه يحثّها على الانطلاق في رحلة، على الرحيل كي تنجز أمراً مهمّاً، يحثّها على ألّا تبقى هنا! الآن، ماذا تعني الخطوط؟ تمتمت وهي تقرأ:

لا يمكن لعشرة أزواج من السلاحف أن تعارضه / التحفّظ الدائم يجلب حظّاً جيّداً / يضع الملك نفسه تحت تصرّف الربّ.

من ثمّ، قرأت معنى الخطّ السادس في الموقع الثالث، فانتابها الدوار:

3- يعادل الدايم Dime عشرة سنتات. المترجمة

التجارب السيّئة تُثري المرء / لا ملامة إن كنتَ صادقاً / ومشيتَ في المنتصف / ومثلتَ مع الختم أمام الأمير.

الأمير: إنّه يقصد أبندسن! الختم: لا بدّ أنّه النسخة الجديدة من الرواية! تجارب سيّئة: كتاب التنبّؤات يعرف ماذا حصل معها، تلك المغامرة الرهيبة مع جو أو أيّاً كان اسمه الحقيقيّ!

بعد ذلك، انتقلت إلى البحث عن معنى الخطّ السادس في الموقع الرابع:

إن مشيتَ في المنتصف / وأخبرتَ الأمير / سيتبعك.

يجب أن أذهب إلى هناك! أدركت جوليانا، حتّى ولو لحق بي جو.

التهمت السطر المتحرّك الأخير التهاماً، ذاك الذي يشرح معنى الخطّ التاسع في الموقع العلويّ:

إنّه لا يجلب زيادة لأحد / في الواقع، قد يضربه أحدهم / ولن يحافظ على رباطة جأشه دائماً / حظّ عاثر.

آه يا إلهي! إنّه يقصد القاتل، وجماعة الغستابو... يقول لي إنّ جو، أو شخصاً آخر على شاكلته، سيذهب إلى هناك لقتل أبندسن!

عادت بسرعة إلى الهكساغرام الثالث والأربعين، وقرأت حكمه النهائيّ:

على المرء أن يقرّر إشهار المسألة / في بلاط الملك / لا بدّ أن يعلن بصدق عن الخطر / من المهمّ إبلاغ المدينة / كي لا تلجأ لحمل السلاح / إنّه يحثّ المرء على القيام بفعل ما.

إذن، استنتجت، لا فائدة من العودة إلى الفندق والاطمئنان على جو. لا فائدة ترجى من ذلك، لأنّهم سيرسلون غيره. كتاب التنبّؤات يقول مجدّداً، بل يؤكّد بشدّة هذه المرّة: اذهبي إلى شايان، وحذّري أبندسن! لا بدّ من إبلاغه بما يحصل، فكّرت، حتّى ولو عرّضني ذلك إلى خطر! وأطبقت الكتاب.

جلست خلف المقود مجدّداً، وانطلقت إلى الشارع. سرعان ما غادرت مركز مدينة دنفر، وسلكت الأوتوستراد الرئيسيّ المتّجه شمالاً. قادت بأقصى سرعة تسمح بها حالة السيّارة، على الرغم من أنّ محرّكها بدأ بالاهتزاز وإصدار ضجّة غريبة، ممّا جعل عجلة القيادة والمقعد تحتها وعلبة القفّازات تهتزّ بدورها. حمداً لله على وجود الدكتور تودت، وأوتوستراداته

السريعة! قالت لنفسها وهي تشقّ طريقها بسرعة في الظلام، دون أن ترى إلّا أضواء سيّارتها الأماميّة، والخطوط التي تقسّم الشارع إلى مسارب.

الساعة الآن هي العاشرة ليلاً، لكنّ جوليانا لم تصل إلى شايان بعد، بسبب مشكلة في أحد الدواليب، فقرّرت أن تركن السيّارة إلى جانب الطريق، وتبحث عن مكان تقضي الليلة فيه، وعندها لمحت عند أحد مخارج الأوتوستراد، لافتة تقول: «غريلي، خمسة أميال». سأنطلق غداً في الصباح الباكر، قالت لنفسها وهي تقود السيّارة على مهل في الشارع الرئيسيّ لبلدة غريلي بعد بضع دقائق. رأت عدّة موتيلات تعلن عن وجود غرف شاغرة. إذن، لا مشكلة، كلّ ما ينبغي عليّ القيام به الآن، قرّرت، هو أن أتّصل بأبندسن كي أبلغه بقدومي.

ركنت السيّارة، ونزلت منها مرهقة. شعرت بالراحة لأنّها تمكّنت من تمطيط ساقيها أخيراً، بعد نهار قضته بأكمله على الطريق، منذ الساعة الثامنة صباحاً. رأت لافتة صيدليّة تعمل أربعاً وعشرين ساعة، ولا تبعد عنها كثيراً، فدسّت يديها في معطفها، ومشت صوبها. سرعان ما نعمت بالخصوصيّة في كابينة الهاتف، وطلبت من عامل المقسم الاتّصال بشايان.

لحسن حظّها، رقم أبندسن مُدرَج في دليل الهاتف. وضعت عدّة بنسات في الجهاز، وطلبته.

«آلو؟» ردّت امرأة على الفور، صوتها قويّ وجميل وفتيّ، لا ريب أنّها بعمر جوليانا.

«السيّدة أبندسن؟» قالت جوليانا، «هل لي بالتحدّث مع السيّد أبندسن؟».

«من المتّصلة من فضلك؟»

«لقد قرأتُ كتابه» قالت جوليانا، «وسقتُ سيّارتي من مدينة كانون سيتي في كولورادو إلى هنا. أنا في بلدة غريلي الآن، ظننتُ أنّ بإمكاني الوصول إلى منزلكم الليلة، لكنّني لم أقدر. لذلك، أريد أن أعرف إن كان بوسعي رؤيته غداً».

بعد صمت قصير، قالت السيّدة أبندسن بصوتها اللطيف: «أجل، تأخّر الوقت كثيراً، ونحن نأوي إلى الفراش باكراً. هل يوجد سبب خاصّ يدفعك لرؤية زوجي؟ إنّه مشغول للغاية هذه الأيّام».

«أريد أن أتكلّم معه» قالت جوليانا، وبدا صوتها ذابلاً ومتخشّباً. حدّقت إلى جدار كابينة الهاتف، عاجزة عن إيجاد ما تقوله. جسدها يؤلمها، وحلقها جافّ وطعمه مقرف. وراء الكابينة، رأت صاحب الصيدليّة عند كاونتر الصودا[4]، يقدّم الميلك-شيك لأربعة مراهقين. شعرت برغبة بالجلوس هناك، وبالكاد انتبهت لما تقوله السيّدة أبندسن. تاقت إلى شراب بارد منعش، وطعام... كسندويشة سلطة الدجاج، مع مشروب مناسب.

«لا يتبع هوثورن برنامجاً منتظماً» قال صوت السيّدة أبندس المتقافز المرح، «إن وصلتِ غداً، لا أضمن لك اللقاء به، لأنّه يعمل أحياناً طيلة النهار. لذا، إن تفهّمتِ هذا قبل أن تنطلقي برحلتك...»

«أجل»، قاطعتها جوليانا.

«أعرف أنّه سيسعد بتبادل الحديث معك بضع دقائق، إن سنح له الوقت» قالت السيّدة أبندسن، «لكن لا تنزعجي رجاءً إن لم يتسنّ له ترك عمله بما يكفي للحديث معك، أو حتّى لرؤيتك».

«لقد قرأنا روايته وأحببناها» قالت جوليانا، «وأنا أحملها معي».

«فهمت»، قالت السيّدة أبندسن بطيبة قلب.

«لكنّنا توقّفنا للتسوّق في دنفر، وأضعنا الكثير من الوقت». كلّا، فكّرت، لقد تغيّر كلّ شيء، واختلفت الأمور الآن. «اسمعيني» تابعت، «قال لي كتاب التنبّؤات أن آتي إلى شايان».

«آه يا إلهي!» قالت السيّدة أبندسن كأنّها سمعت بكتاب التنبّؤات من قبل، لكن دون أن تأخذ الوضع على محمل الجدّ.

«سأقرأ عليك ما تعنيه الخطوط»، قالت جوليانا. لقد حملت كتاب الآي-تشنغ إلى داخل كابينة الهاتف، سندته على الرفّ الموجود أسفل الجهاز، وقلبت الصفحات بهمّة. «لحظة واحدة!» قالت، وعثرت على

4- بدءاً من حقبة 1880 وإلى أواخر القرن العشرين، معظم الصيدليّات في أمريكا كانت تخصّص قسماً للمشروبات الغازيّة، يمكن للزبائن أن يجلسوا فيه ويقضوا فيه بعض الوقت. فضلاً عن ذلك، لم تقتصر الصيدليّات على بيع الأدوية فحسب، بل قد تبيع كذلك مجلّات وبضائع متنوّعة وأطعمة خفيفة أيضاً. المترجمة

الصفحة المطلوبة، ثمّ قرأت حكم الهكساغرام الحادي والأربعين، وما تعنيه الخطوط للسيّدة أبندسن. عندما وصلت إلى معنى السطر التاسع في الأعلى -عن سوء الحظ، وعن الشخص الذي سيأتي لضرب أبندسن- سمعت السيّدة أبندسن وهي تشهق. «عفواً؟!» قالت جوليانا، وتوقّفت عن القراءة.

«تابعي» قالت السيّدة أبندسن. نبرتها الآن، فكّرت جوليانا، حادّة ويقظة.

بعد أن انتهت من قراءة حكم الهكساغرام الثالث والأربعين، وكلمة «خطر» التي يحملها، ساد الصمت، ولم تنطق أيّ منهما.

«حسناً، نتطلّع قدماً إلى رؤيتك غداً إذن» قالت السيّدة أبندسن أخيراً، «هل ستقولين لي ما اسمك؟».

«جوليانا فرينك» أجابت، «شكراً جزيلاً لك سيّدة أبندسن» وأغلقت الخطّ، لأنّ عامل المقسم قاطعها وبدأ يثرثر عن انتهاء الوقت المخصّص للمكالمة. لملمت حقيبتها، وكتاب التنبّؤات بجزأيه، ثمّ خرجت من كابينة الهاتف إلى قسم بيع المشروبات في الصيدليّة. طلبت سندويشة وزجاجة كولا، أشعلت سيجارة، وحاولت أن تسترخي ريثما يجهز طلبها. ارتعبت رعباً لا يصدَّق، عندما أدركت أنّها لم تقل شيئاً للسيّدة أبندسن عن رجل الغستابو أو الاستخبارات النازيّة، أو أيّاً كان جو سينادِلا ذاك، الذي تركته وحيداً في غرفة الفندق في دنفر! ببساطة، لم تستطع أن تصدّق ما حصل. لقد نسيتُ! قالت لنفسها. لقد فاتني ذلك كليّاً! كيف يحصل هذا؟! لا بدّ أنّني مجنونة، لا بدّ أنّني مريضة جدّاً، غبيّة، مخبولة!

فتّشت حقيبتها بحثاً عن فكّة، كي تجري مكالمة أخرى. لا! قرّرت وهي تقوم عن الكرسيّ، لقد تأخّر الوقت كثيراً، أنا متعبة، ولا بدّ أنّهما نائمان الآن.

أكلت سندويشة سلطة الدجاج، وشربت الكوكا كولا، ثمّ قادت السيّارة إلى أقرب موتيل، حيث حجزت غرفة، وتسلّلت مرتجفة إلى السرير.

***

-14-

لا توجد إجابات ولا شرح، فكّر السيّد نابوسكي تاغومي، ولا حتّى في كتاب التنبّؤات. مع ذلك، يجب عليّ أن أعيش حياتي يوماً بيوم، بطريقة ما أو بأخرى. سأنطلق للبحث عمّا هو صغير وبسيط، وأعيش غير مرئيّ، كيفما اتّفق، إلى وقت ما لاحق.

ودّع زوجته، وغادر منزله، لكنّه لم يذهب اليوم كعادته إلى مبنى نيبون تايمز. لِم لا يسترخي قليلاً؟ لِم لا يزور حديقة البوّابة الذهبيّة، ويتفرّج على حديقة الحيوان والأسماك الموجودة فيها؟ لِم لا يزور تلك الكائنات التي لا تستطيع التفكير، لكنّها تستمتع بوقتها؟

الزمن! فكّر. يستغرق الوصول بالدرّاجة الثلاثيّة إلى حديقة البوّابة الذهبيّة وقتاً طويلاً، ممّا سيتيح لي أن أفكّر وأن أتأمّل، إن استطعتُ... لكنّ الأشجار وحديقة الحيوانات ليست أشخاصاً من لحم ودم، بينما يجب عليّ أن أتشبّث بالحياة البشريّة. لقد حوّلني ما حصل إلى طفل صغير، لعلّ هذا أمر حَسَن، أو... يمكنني أن أجعله كذلك!

دوّس سائق الدرّاجة الثلاثيّة منطلقاً في شارع كيرني، باتّجاه مركز مدينة سان فرانسيسكو. سأركب الترام! خطرت هذه الفكرة في ذهن السيّد تاغومي فجأة، سيجد السعادة في الرحلة الأنقى، تلك التي تكاد العين تدمع لها، في عربة كان يجب أن تنقرض منذ عام 1900، لكنّها ظلّت موجودة! صرف سائق الدرّاجة، ومشى على الرصيف نحو أقرب محطّة للترام.

ربّما، فكّر، لن أستطيع العودة مجدّداً إلى مبنى نيبون تايمز الذي تفوح منه رائحة الموت العطنة. لقد انتهت وظيفتي، لكن لا بأس، سيجد مجلس

فعاليّات لجنة التجارة بديلاً لي، أمّا «تاغومي» فما يزال حيّاً، يمشي ويتذكّر التفاصيل كلّها، لذلك لم يتحقّق شيء.

بأيّ حال، الحرب -عمليّة الأقحوانة- ستبيدنا جميعنا، بغضّ النظر عمّا نفعله، وعدوّنا هو الحليف ذاته الذي قاتلنا إلى جانبه في الحرب الأخيرة. بماذا نفعنا ذلك؟! كان يجدر بنا أن نحاربه، أو نتركه يخسر، وأن نساند أعداءه، أي الولايات المتّحدة وروسيا وبريطانيا.

لا أمل على الإطلاق، أينما تطلّع المرء!

كتاب التنبّؤات غامض! هل انسحبَ حزيناً من عالَم البشر، ورحلتْ حكمته؟! لقد بلغْنا لحظة أصبحنا فيها وحدنا، ولن يساعدنا أحد كما في السابق. حسناً، فكّر السيّد تاغومي، لعلّ هذا أمر حسن بدوره، أو قد يصبح كذلك. على المرء أن يحاول إيجاد طريقة، دائماً.

ركب عربة ترام شارع كاليفورنيا حتّى نهاية الخطّ، من ثمّ نزل وساعد السائق بتدويرها حول محورها الخشبيّ كي تعكس مسارها. من بين كلّ ما يمرّ به المرء في المدينة، كانت تلك هي التجربة الأصدق بالنسبة له عادةً، لكنّ تأثيرها ضعيف اليوم! شعر السيّد تاغومي بالخواء أكثر من قبل، نظراً لفساد هذا المكان بالذّات.

تلقائيّاً، ركب العربة في طريق عودتها، لكنّه أدرك أنّه يرى الشوارع والعمارات وحركة المواصلات ذاتها، إنّما بشكل معكوس. قام عن مقعده عندما أوشك الترام على بلوغ محطّة ستوكتون، وكان على وشك النزول عندما ناداه قاطع التذاكر: «حقيبتك يا سيّدي».

«شكراً لك»، قال السيّد تاغومي الذي نسيها في العربة. مدّ يده وأخذها، وانحنى قبل أن يتابع الترام رحلته. محتويات الحقيبة لا تُقَدّر بثمن: مسدّس كولت 44 التذكاريّ الثمين، الذي قرّر وضعه في متناول يده من الآن فصاعداً، تحسّباً لقيام بلطجيّة الاستخبارات النازيّة بالانتقام منه شخصيّاً، إذ لا يمكن لأحد أن يحزر ماذا سيفعلون! لكنّ هذا الإجراء الجديد بالذّات بدا له هستريائيّاً، على الرغم من كلّ ما حصل. لا يجب أن أستسلم، قال لنفسه مجدّداً وهو يسير حاملاً الحقيبة، إنّها فوبيا وسواسيّة قهريّة! لكنّني غير قادر على التخلّص منها. أنا في قبضتها وهي في قبضتي!

إذن، هل ضاعت شخصيّتي الفرحة؟! سأل نفسه، هل نفرت كلّ الغرائز منّي بسبب ما فعلتُه؟ هل تضرّرت هواية جمع الأنتيكات بأكملها، وليس موقفي تجاه هذه القطعة فقط؟ الأنتيكات عماد حياتي كلّها، والمملكة التي أتجوّل فيها بسعادة! يا حسرتي!

أوقف درّاجة ثلاثيّة، وأوعز للسائق بأخذه إلى شارع مونتغومري، حيث يوجد متجر روبرت تشلدن. سأكتشف الحقيقة، قال لنفسه، لقد بقي خيط واحد فقط يربطني بالعفويّة، وقد أسيطر على وساوسي القلقة بحيلة: سأقايض المسدّس بقطعة أخرى أكثر أصالة. هذا المسدّس أصبح مشبعاً بالكثير من تاريخي الشخصيّ، بالتاريخ الخطأ، لكنّه تاريخ ينتهي عندي أنا، ولا يمكن لغيري أن يحسّ به إطلاقاً إن أمسك المسدّس، لأنّه موجود في روحي أنا فقط! سأحرّر نفسي، قرّر متحمّساً، وستنقشع غمامة الماضي كليّاً ما إن أتخلّص من الكولت 44. تلك الغمامة لا تعكّر روحي فحسب، بل تتواجد -استناداً إلى نظريّة الأصالة التاريخيّة- بداخل المسدّس أيضاً، إنّها معادلة بيني وبينه.

وصل إلى متجر روبرت تشلدن الذي تعامل معه كثيراً في السابق، فكّر وهو يدفع الأجرة للسائق، سواء على صعيد العمل أو الصعيد الشخصيّ. دخل بسرعة حاملاً حقيبته، فرأى السيّدَ تشلدن جالساً بالقرب من صندوق الكاش، وهو يلمّع قطعة ما.

«سيّد تاغومي!» قال تشلدن، وانحنى.

«سيّد تشلدن!» قال تاغومي، وانحنى بدوره.

«يا لها من مفاجأة! أنا منذهل!» قال تشلدن. وضع القطعة وخرقة التلميع من يده، ثمّ دار حول زاوية الكاونتر ومشى صوب السيّد تاغومي وحيّاه، ورحّب به كالمعتاد، لكنّ هذا الأخير أحسّ بأنّ تشلدن مختلف نوعاً ما اليوم، صامتٌ بالأحرى، وهو ما يعدّ تطوّراً من وجهة نظر السيّد تاغومي، لأنّ تشلدن صاخب عادة، يتكلّم بصوت عال ويتقافز هنا وهناك بحماس. لكن... قد يكون صمته اليوم نذيرَ شؤم!

«سيّد تشلدن!»، قال وهو يضع حقيبته على الكاونتر. فتحها، وأضاف:

«أرغب بأن أقايض هذه القطعة التي ابتعتُها منذ سنوات عديدة، بقطعة أخرى. أنت تقبل بالمقايضة كما أذكر».

«أجل» أجاب السيّد تشلدن، «لكن حسب حالة القطعة»، وتأمّلَ السيّدَ تاغومي بترقّب.

«مسدّس كولت 44»، قال السيّد تاغومي.

صمتا كلاهما. تأمّلا المسدّس الموضوع في علبة من خشب الساج، وعلبة الذخيرة التي اسُتهلِك جزء منها، لكن لم يظهر الحماس على وجه السيّد تشلدن.

آها! فكّر السيّد تاغومي، هكذا إذن! ثمّ قال: «أنت غير مهتم بشرائه على ما يبدو».

«كلّا يا سيّدي»، أجاب السيّد تشلدن بنبرة جافّة.

«لن ألحّ عليك»، قال السيّد تاغومي، ولم يشعر بالقدرة على فعل ذلك. أنا أستسلم! فكّر، الين، المُتَأقلِم، المُستَقبِل... يحكمني على ما يبدو.

«اعذرني يا سيّد تاغومي»، قال تشلدن.

انحنى السيّد تاغومي، ووضع المسدّس وعلبة الذخيرة في حقيبته. إنّه القدر، فكّر، لا بدّ من الاحتفاظ بهذا الشيء!

«لقد خاب أملك كثيراً على ما يبدو!»، قال السيّد تشلدن.

«لقد لاحظتَ ذلك!!» هتف السيّد تاغومي مضطرباً. هل كشف عالَمه الداخليّ على مرأى من الجميع؟! لا بدّ أنّه ما حصل! فكّر مستهجناً.

«هل يوجد سبب خاصّ يدفعك لمقايضة المسدّس؟»، سأل السيّد تشلدن.

«كلّا!» أجاب السيّد تاغومي، وأخفى عالَمه الشخصيّ هذه المرّة كما ينبغي.

تردّد السيّد تشلدن قليلاً، ثمّ قال: «أتساءل إن اشتريتَه من متجري، أنا لا أتعامل بهذا النوع من القطع».

«أنا واثق بأنّني اشتريتُه منك» قال السيّد تاغومي، «لكن لا يهمّ، أنا أتقبّل قرارك، ولم أنزعج».

«سيّدي» قال تشلدن، «اسمح لي أن أعرض عليك ما وصلني، إن كنت تملك بعض الوقت!».

شعر السيّد تاغومي بالتوق القديم يتحرّك في أعماقه، فسأل: «هل هو شيء استثنائيّ؟!».

«تعال يا سيّدي». قاده تشلدن عبر المتجر، فتبعه.

في خزانة زجاجيّة مغلقة، على رفوف مغلّفة بالمخمل الأسود، رأى السيّد تاغومي دوّامات معدنيّة صغيرة لا تأخذ أشكالاً محدّدة، وشعر بشعور غريب وهو يتأمّلها.

«أنا أصرّ على عرضها على زبائني، واحداً واحداً» قال السيّد تشلدن، «سيّدي، هل تعرف ما هي؟».

«حليّ، على ما يبدو» قال السيّد تاغومي عندما لمح بروشاً.

«إنّها أمريكيّة الصنع، أجل بالطبع، لكنّها ليست أنتيكات».

رمقه السيّد تاغومي بنظراته

«سيّدي، إنّها: الجديد». وجه روبرت تشلدن الأبيض، الباهت عادة، كان متّقداً بالحماس الآن. «هذه هي الحياة الجديدة لبلدي يا سيّدي، إنّها البداية على شكل بذور ضئيلة لا تفنى من الجمال».

باهتمام بالغ، تناول السيّد تاغومي عدّة قطع واحدة واحدة، وتفحّصها قليلاً على مهل. أجل، فيها شيء ما جديد يهبها روحاً، قرّر. قانون التاو يولَدُ هنا، بينما يتوضّع الين في كلّ مكان، ثمّ تولَد أوّل خيوط الضوء فجأة في أعماق الظلام... الجميع يعرف هذا، لقد رأيناه يحصل من قبل كما أراه هنا الآن، لكنّ هذه القطع هي مجرّد خردة برأيي. إنّها لا تفتنني كما فتنتِ السيّدَ تشلدن، لسوء حظّنا كلينا... لكنّها الحقيقة!

«جميلة حقّاً» غمغم وهو يضع القطع من يده، فقال السيّد تشلدن بصوت حازم: «سيّدي، إنّها لا تظهر دفعة واحدة».

«عفواً؟!»

«الرؤية الجديدة، لا تظهر دفعة واحدة في قلبك»

«أنت مؤمن بها» قال السيّد تاغومي، «أتمنّى لو أؤمن مثلك، لكنّني لست كذلك» وانحنى.

«ربّما في وقت آخر» قال السيّد تشلدن، وواكبه إلى المدخل دون أن يقترح عليه شراء قطعة بديلة، كما لاحظ السيّد تاغومي.

«يقينك ليس لائقاً» قال السيّد تاغومي، «كأنّك تلحّ على الآخرين».

لم يمتعض السيّد تشلدن، بل أجابه: «اعذرني، لكنّني على حقّ، أنا على حقّ بإيماني أنّ هذه القطع هي بذور المستقبل المكثّفة».

«كما تشاء» قال السيّد تاغومي، «لكنّ انبهارك الآنجلو-ساكسونيّ بها لا يستهويني». مع ذلك، شعر بأمله يتجدّد نوعاً ما، أمله بنفسه! «طاب يومك» قال وهو ينحني، «سأراك مجدّداً عمّا قريب، وربّما نناقش نبوءتك هذه».

انحنى السيّد تشلدن بدوره، دون أن يقول شيئاً.

غادر السيّد تاغومي حاملاً حقيبته، وبداخلها مسدّس كولت 44. عليّ أن أخرج كما دخلتُ، فكّر، ما زلتُ أبحث، ولم أعثر بعد على ما أحتاجه كي أعود إلى العالَم. ماذا لو اشتريتُ إحدى تلك القطع الغريبة عديمة الشكل؟! واحتفظتُ بها، وتفحّصتها، وتأمّلتها فيما بعد... هل سأعثر على طريقي من خلالها؟! أشكّ بذلك، إنّها قطعٌ من أجله لا من أجلي، ولكن.. إن وَجَدَ شخصٌ واحد فقط طريقَه، هذا يعني أنّ «الطريق» موجود، حتّى لو فشلتُ أنا شخصيّاً بالاهتداء إليه! كم أحسده!

استدار السيّد تاغومي وعاد أدراجه إلى المتجر، فاكتشف أنّ السيّدَ تشلدن ما يزال واقفاً في الخارج، يحدّق إليه.

«سيّدي» قال السيّد تاغومي، «سأشتري إحدى تلك القطع... أيّاً كان ما ستختاره لي. لستُ مؤمناً بها، لكنّني أحاول أن أتعلّق بقشّة حاليّاً»، ثمّ تبع السيّدَ تشلدن مرّة أخرى عبر المتجر إلى الخزانة الزجاجيّة. «لا أؤمن بها» أضاف، «سأحملها معي، وسأتفرّج عليها بفواصل منتظمة، مرّة كلّ يومين على سبيل المثال. بعد شهرين، إن لم أرَ فيها...».

«يمكنك أن تعيدها لي، وتسترجع كلّ ما دفعته»، قال السيّد تشلدن.

«شكراً لك» قال السيّد تاغومي، وشعر بأنّه أفضل حالاً. أحياناً، يتوجّب على المرء أن يجرّب أيّ شيء، قرّر بينه وبين نفسه. هذا ليس عيباً بل على العكس، دليل على الحكمة واستيعاب الأمور.

«هذه ستهدِّئكَ» قال السيّد تشلدن، وناوله حلية فضيّة صغيرة مثلّثية، مزيّنة بقطيرات مجوّفة. سوداء من الأسفل، ويغمرها الضوء من الأعلى.

«شكراً لك»، قال السيّد تاغومي.

***

ركب السيّد تاغومي درّاجة ثلاثيّة، وتوجّه إلى ساحة بورتسماوث، حيث توجد حديقة عامّة صغيرة، تقع على كتف المنحدر فوق شارع كيرني، وتطلّ على مركز الشرطة. جلس على مقعد يغمره ضوء الشمس. طيور الحمام تتمشّى بحثاً عن الطعام فوق الدروب المبلّطة، وهناك رجال مظهرهم رثّ يجلسون على مقاعد الحديقة، بعضهم مشغول بتصفّح الجرائد والبعض الآخر يأخذ غفوة، فضلاً عن أشخاص يستلقون هنا وهناك، نائمين على العشب.

من جيبه، أخرج السيّد تاغومي الكيسَ الورقيّ الذي يحمل علامة متجر روبرت تشلدن، وأمسكه بكلتا يديه محاولاً أن يهيّئ نفسه لما ينتظره. فتحه، وتناول الحلية الجديدة التي اشتراها كي يتفحّصها هنا على انفراد، في هذه الحديقة الصغيرة التي يرتادها العجائز، المليئة بالعشب والممرّات المبلّطة.

رفع القطعة الفضيّة الأشبه بالدوّامة أمام عينيه، فبرقت تحت أشعّة شمس الظهيرة، وبدت أشبه بجائزة من تلك التي يربحها الأطفال بجمع أغطية علب الكورن فليكس، كمرآة جاك أرمسترونغ[1] المُكبِّرة. حدّق إليها جيّداً، إنّها تعكس «الأوم» على حدّ تعبير البراهمة، بقعة صغيرة تُكثِّف كلّ شيء بداخلها، في شكلها وفي حجمها بآن واحد. استمرّ بتأمّلها بتفانٍ، هل ستظهر الرؤية التي وعده بها السيّد تشلدن؟! خمس دقائق، عشر دقائق، سأجلس هنا إلى أن أتعب. هل سيضطرّني الزمن -يا حسرتي!- إلى إعادتها بعد فترة قصيرة؟! ما الذي أحمله هنا في يدي، بينما أجلس في الزمن الساكن؟!

1- جاك أرمسترونغ كان بطل مسلسل مغامرات إذاعيّ شهير للأطفال في أمريكا، اسمه The All-American Boy، استمرّ بثّه من عام 1933 حتّى 1951، وتحوّل إلى فيلم وسلسلة تلفزيونيّة. يستعمل البطل في إحدى الحلقات مرآة مكبّرة، لإرسال شيفرة ضوئيّة لفريقه. المترجمة

سامحيني، قال السيّد تاغومي وهو يتأمّل القطعة المهتزّة، نحن مُجبَرون دوماً على النهوض والقيام بفعل ما. وضعها في الكيس نادماً، لكن بعد أن ألقى عليها نظرة أخيرة مفعمة بالأمل، وتفحّصها مجدّداً بكلّ جوارحه. كأنّني طفل، قال لنفسه، يحاكي البراءة والإيمان على شاطئ البحر، عندما يضع قواقع مختلفة على أذنيه، علّه يسمع من خلالها حكمة الأمواج. هنا، تحلّ عيناي مكان أذنيّ. ادخليني وأخبريني ماذا حصل، ولماذا، وكثّفي كلّ ذلك في اهتزاز واحد فحسب! قال للقطعة.

أنا أطلب الكثير، ولا أحصل على شيء!

اسمعي، قال بصوت خفيض للقطعة المتأرجحة، الوعدُ باستعادة كلّ ما دفعتُه هو وعد مغرٍ!

ماذا لو هززتُها بعنف، فكّر، كأنّها ساعة يد عتيقة ترفض أن تعمل؟! هزّ المثّلث للأعلى، وللأسفل. هل أخضّها كنرد في لعبة حاسمة، كي أوقظ الإله النائم بداخلها؟!

«لعلّه مستغرق أو في خلوة أو في سفر، أو لعلّه نائم فيتنبه»[2]، كما قال النبيّ إيليّا في مفارقة ساخرة مثيرة!

خضّ السيّد تاغومي القطعة الفضيّة مرّة أخرى بعنف، للأعلى وللأسفل، في قبضة يده، وناداها بصوت عالٍ، ثمّ تأمّلها مجدّداً.

أنتِ أيّتها الصغيرة، أنت فارغة! فكّر.

الْعنْها! خوِّفْها! قال لنفسه، ثمّ خاطب القطعة هامساً: صبري بدأ ينفد! من ثمّ ماذا؟! فكّر، هل أرميكِ في المجاري؟! نفخ على القطعة الفضيّة، ثمّ هزّها، ثمّ نفخ عليها مجدّداً، هيّا، اجعليني أكسب اللعبة! قال، وضحك. أنا أعبث بالقطعة هنا تحت أشعّة الشمس، محتاراً، على مرأى كلّ من يقترب ويشاهدني.

استرق نظرة حوله شاعراً بالذنب، لكن لم يره أحد على ما يبدو، ولا يوجد سوى عجائز نائمين، فأحسّ بالراحة نوعاً ما.

2- سفر الملوك الأوّل، الإصحاح 18، الآية 27. المترجمة

لقد جرّبتُ كلّ شيء، أدرك، توسّلتُ، تأمّلتُ، هدّدتُ، تفلسفتُ مطوّلاً... ماذا بوسعي أن أفعل بعد؟! ماذا بوسعي أن أفعل، إلّا أن أبقى هنا؟! لكنّ الاستنارة ترفضني! قد تتكرّر الفرصة مرّة أخرى، وقد لا تتكرّر أبداً على حدّ قول دبل يو. إس جلبرت، هل هذا صحيح؟! أظنّ ذلك. عندما كنتُ طفلاً، فكّرتُ كما يفكّر الأطفال، لكنّني تجاوزتُ مرحلة الطفولة الآن، ينبغي أن أبحث في نطاقات مختلفة، وأن ألاحق هذه القطعة بطرق جديدة. لا بدّ أن أتّبع الطرق العلميّة، أن أحلّل كلّ خطوة تحليلاً منطقيّاً مكثّفاً منهجيّاً، بأسلوب المختبر الأرسطيّ الكلاسيكيّ.

وضع إصبعه في أذنه اليمنى، كي يحجب ضجّة المواصلات والأصوات الأخرى التي قد تشتّت انتباهه، من ثمّ ضغط قاعدة المثلّث الفضيّ اللولبيّ بإحكام على أذنه اليسرى. لم يسمع شيئاً! لم يسمع هدير الأمواج الافتراضيّ، الذي لا يعدو كونه صوت جريان الدم في العروق، ولم يسمع حتّى هدير دمه.

إذن، ما هي الحواسّ الأخرى التي قد تشرح اللغز؟! حاسّة السمع عديمة الفائدة، كما هو واضح. أغلق السيّد تاغومي عينيه، وتحسّس سطح القطعة نقطة فنقطة. اللمس بدوره لا يفيد، أصابعه لم تخبره بأيّ شيء. الشمّ! قرّب المثلّث من أنفه واستنشقه، فشمّ رائحة معدنيّة خفيفة، لكن لا معنى لها. التذوّق! فتح فمه، ودسّ المثلّث الفضيّ بداخله كأنّه بسكوتة -لكنّه لم يمضغه بلا شكّ!- لم يشعر إلّا بطعم معدنيّ بارد مرّ قاسٍ، لا معنى له أيضاً.

وضع القطعة في راحة يده، واستأنف تأمّلها، أي أنّه عاد إلى حاسّة البصر التي صنّفها الإغريق كأرقى الحواسّ. قلّبها بكلّ الاتّجاهات، واستعرضها من جميع الزوايا الممكنة. ماذا أرى؟! سأل نفسه، بعد كلّ هذه الدراسة الطويلة الشاقّة المتأنيّة؟! بماذا يلمّح لي هذا الشيء؟!

اكشف لي الحقيقة! أمرَ المثلّثَ الفضيّ، ابصقْ هذا السرّ العتيق!

أمسك المثلّثَ الفضيّ كأنّه ضفدع يقفز من الأعماق إلى قبضته، وأمره بإخباره عمّا يوجد في أعماق المياه هناك... لكن ها هو ذا الضفدع يقبع ساكناً، ساكناً إلى درجة أنّه لا يسخر منه، بل يصبح حجراً أو طيناً أو معدناً خاملاً، ويتحوّل مرّة أخرى إلى المادّة الجامدة المألوفة في عالَمه الأشبه بالقبر.

المعدن يأتي من الأرض، فكّر السيّد تاغومي وهو يفحص القطعة، أي من الأسفل، من مملكة الحضيض تلك، الأدنى والأكثف، من أرض العفاريت والكهوف، أرض الرطوبة والظلام الأبديّ، من عالم الِين بأقصى ما فيه من ميلانخوليا، عالم الجثث والتحلّل والتداعي، عالم البراز والموتى، الذي يهوي إليه كلّ ما يموت ويتحلّل طبقة طبقة، العالَم الشيطانيّ، عالَم الذين لا يتغيّرون، عالم الذين كانوا.

لكنّ المثلّث الفضيّ برق في ضوء الشمس، وتألّق. إنّه يعكس النور، والنار! فكّر السيّد تاغومي، إنّها ليست قطعة رطبة ولا معتمة على الإطلاق، ليست ثقيلة ولا مُتعِبة، بل تنبض بالحياة! فيها المملكة العليا تلك، عالم اليانغ السماويّ الأثيريّ، كما يليق بقطعة فنيّة. أجل، هذه هي وظيفة الفنّان: أن يأخذ صخرة معدنيّة من الأرض الخرساء المظلمة، ويحوّلها إلى نمط من أنماط السماوات، نمط برّاق يعكس الضوء.

ها قد بُعِثَ الموتى إلى الحياة، ها هي الجثث قد تحوّلت إلى مشهد ناريّ، وها هو الماضي يستسلم للمستقبل.

من أنت؟! سأل المثلثَّ الفضيّ، هل أنت الين الميت المظلم، أم اليانغ الحيّ المتألّق؟!

تراقصت القطعة الفضيّة في راحة يده، وأعمته بضوئها، فزمّ عينيه ولم يعد يرى إلّا لعبة النار.

جسد الين وروح اليانغ، معدن ونار يتّحدان، الظاهر والباطن معاً، كون مُصغَّر في راحة يدي، فكّر.

عن أيّ فضاء تتحدّث هذه القطعة؟! صعود عموديّ للزمن إلى السماء؟! إلى العالم النورانيّ لأولئك الذين لا يُقهَرون؟! أجل، هذا الشيء أفصح عن روحه: النور! انتباهي مركّز على هذه القطعة، ولا أستطيع أن أزيح بصري عنها. لقد سحرني سطحها البرّاق الفاتن الذي لا يمكنني أن أتحكّم به، ولم أعد حرّاً بالتخلّص منها.

الآن، قال للقطعة، تكلّمي معي، الآن وقد سحرْتِني أريد أن أسمع صوتكِ ينبعث من النور الأبيض الصافي الذي يُعمي الأبصار، كالنور الذي لا نراه إلّا في

الحياة ما بعد الموت في الباردو-تودل[3]، لكنّني لستُ مضطرّاً لانتظار الموت كي تتحلّل روحي، وهي تتجوّل بحثاً عن رحم جديد. سنتجاوز كلّ تلك الآلهة، سواء المرعبة أو الخيّرة، سنتجاوز الأضواء الضبابيّة والأزواج الذين يتضاجعون في تلك اللحظة، سنتجاوز كلّ شيء ما عدا النور! أنا مستعدّ لمواجهته دون خوف، ومستعدّ لرؤيته دون أن أرتجف. أشعر برياح الكارما الساخنة تسوقني، لكنّني ما زلتُ هنا. تدريبي كان صحيحاً: يجب ألّا أهرب من النور الأبيض الصافي، لأنّني سأدخل في حلقة الموت والولادة من جديد إن هربتُ، ولن أذوق الحريّة، ولن أنعتق أبداً، وسيسقط حجاب المايا مرّة أخرى إن...

اختفى النور!

هناك مثلّث فضيّ كامد في راحته الآن، بعد أن حجب ظلٌّ ضوءَ الشمس عنه. رفع السيّد تاغومي رأسه: هناك شرطيّ طويل يلبس زيّاً أزرق، ويقف أمام مقعده مبتسماً.

«نعم؟!»، قال السيّد تاغومي الذي أجفل.

«كنت أراقبك وأنت تحلّ تلك الأحجية»، قال الشرطيّ قبل أن يخطو متابعاً طريقه.

«أحجية؟!» كرّر السيّد تاغومي، «لكنّها ليست أحجية!».

«أليست إحدى تلك الأحجيات الصغيرة، التي ينبغي فكّ وتركيب أجزائها؟! أولادي يملكون كومة منها، وبعضها صعب بالفعل!»، قال الشرطي وهو يبتعد.

لقد أفسد فرصتي ببلوغ النيرڤانا! فكّر السيّد تاغومي، ضاعت فرصتي! قاطعها ذلك اليانكيّ النياندرتاليّ الأبيض البربريّ! ذلك الوحش يظنّ أنّني أحلّ لعبة أطفال سخيفة! قام عن المقعد، ومشى مترنّحاً بضع خطوات. يجب أن أهدأ! قال لنفسه، الدوافع الوضيعة الشوفينيّة المرعبة المتعصّبة لا

3- Bardo Thödol: نص مقدّس من نصوص البوذيّة التبتيّة، يعني حرفيّاً «التحرّر في الحالة الوسيطة من خلال السمع»، يُعرف في الغرب بكتاب الموتى البوذيّ، وهو نصّ جنائزيّ يُتلى لتسهيل عبور «وعي» أو روح المتوفّى حديثاً من الموت، ودخوله في ولادة جديدة ملائمة أكثر. المترجمة

تليق بي! هناك مشاعر مدمِّرة لا تعقل، تتصارع في صدري! مضى في طريقه عبر الحديقة. امشِ! أمر نفسه، التطهّر جارٍ.

خرج من الحديقة، إلى رصيف شارع كيرني الذي يغصّ بالمركبات، ووقف. لم يجد درّاجة ثلاثيّة، فتابع طريقه على الرصيف منضمّاً إلى حشود العابرين. لا يمكن للمرء أن يحصل على درّاجة ثلاثيّة عندما يحتاجها! غمغم.

يا إلهي! ما هذا؟! شهق، ووقف مشدوهاً. هناك كتلة قبيحة مشوَّهة عند خطّ الأفق، أشبه بأفعوانيّة مرعبة معلّقة تحجب المنظر: كتلة عملاقة من الأسمنت والمعدن، تطفو في الهواء.

التفت السيّد تاغومي إلى أحد العابرين، رجل نحيل يرتدي بزّة مكرمشة. «ما هذا؟!»، سأله مشيراً إلى الكتلة.

كشّر الرجل عن ابتسامة. «قبيح، أليس كذلك؟! إنّه أوتوستراد إمباركاديرو المُعلَّق. يعتقد العديدون أنّه يشوّه المنظر».

«لم أره من قبل!»، غمغم السيّد تاغومي.

«هذا من حسن حظّك!» قال الرجل، ومضى في طريقه.

حلم جنونيّ! فكّر السيّد تاغومي، ويجب أن أستيقظ منه! أين اختفت الدرّاجات الثلاثيّة اليوم؟!

حثّ خطاه مبتعداً، كلّ ما حوله باهت، رماديّ أشبه بقبر. رائحة حريق، عمارات رماديّة كابية، أرصفة... إلخ، حتّى طباع الناس فظّة غريبة. مع ذلك، لا درّاجات ثلاثيّة!

«درّاجة!»، صرخ، ومضى مسرعاً، لكن عبثاً. لا تمرّ هنا إلّا الباصّات، والسيّارات الأشبه بكسّارات ضخمة وحشيّة غريبة الأشكال. حاول أن يتجنّب رؤيتها، ونظر أمامه في خطّ مستقيم. إنّه مجرّد اضطراب في إدراكي البصريّ، فكّر، يشوّه إحساسي بالمكان، ذي طبيعة شرّيرة للغاية. خطّ الأفق يتلوّى بعيداً عن موقعه، كأنّها نوبة استغماتيزم[4] قاتلة تصيبني دون سابق إنذار.

4- عيب شائع في تحدّب كرة العين، يسبّب تشوّش الرؤية سواء القريبة أو البعيدة، ويمكن تصحيحه بالنظّارات. المترجمة

يجب أن أرتاح!

وجد أمامه مطعماً صغيراً مظلماً، الجالسون فيه جميعهم بيض. دفع السيّد تاغومي الباب الخشبيّ ذا الدرفتين، ودخل. رائحة القهوة تفوح في المكان، وهناك جوكبوكس قبيح يصدح في إحدى الزوايا. تلفّت حوله، وسار صوب الكاونتر. كلّ الكراسي مشغولة، يجلس عليها أشخاص بيض. شهق السيّد تاغومي، فتطلّع العديدون إليه، لكن لم يتخلَّ أيٌّ منهم عن مكانه، ولم يعطوه كرسيّاً، بل تابعوا احتساء مشروباتهم ببساطة. «أنا مُصِرّ!» قال بصوت عال لأقرب شخص إليه، كأنّه يصرخ في وجهه، فوضع الرجل كوب القهوة من يده، وقال: «احترس، أيّها الياباني!».

نظر السيّد تاغومي إلى بقيّة البيض، الذين بادلوه نظرات عدائيّة، ولم يتحرّك منهم أحد. إنّها كينونة الباردو-تودل، رياح الكارما الساخنة تسوقني إلى حيث لا أدري. ما هي هذه الرؤية؟! هل تستطيع الروح أن تتحمّل ما يحصل؟! أجل، الباردو-تودل يهيّئنا لذلك: بعد الموت، نبقى قادرين على رؤية الآخرين، لكنّهم جميعهم عدائيّون، كما أنّنا سنبقى بمفردنا حيثما ذهبنا، ولن يساعدنا أحد على الإطلاق في رحلتنا الرهيبة. سنمرّ دائماً بالمعاناة، وبالولادة من جديد، مستعدّين لاستقبال الأوهام والروح الهاربة المحبَطة.

هرول مبتعداً عن الكاونتر، وتأرجحت درفتا الباب خلفه عندما اندفع خارجاً، وها هو ذا مرّة أخرى على الرصيف.

أين أنا؟! أنا خارج عالمي، وخارج زماني ومكاني. لقد شتّت ذلك المثلّث الفضيّ انتباهي، فخرجتُ من ملاذي الآمن، وها أنا ذا، أقف على اللّا شيء. إنّها معاناة هائلة، ودرسٌ أبديّ لي: يحاول المرء أن يسير ضدّ حسّه السليم، لكن من أجل ماذا؟! كي يهيم على وجهه تائهاً، دون علامات أو دليل؟!

هذا أشبه بالطفو بين النوم واليقظة، حين تتضاءل ملَكَة الانتباه، وتسود حالةٌ بين-بين، ويتراءى العالَم بصورة رمزيّة نمطيّة تلتبس كليّاً مع اللّاوعي، صورة نموذجيّة للسرنمة التي يحرّضها التنويم المغناطيسيّ. لا بدّ من إيقاف هذا الانزلاق المرعب بين الظلال، يجب أن أركّز كي أعيد مركز الإيغو إلى موقعه!

تحسّس جيوبه بحثاً عن المثلث الفضيّ. لقد اختفى! لا بدّ أنّه نسيه على مقعد الحديقة، ونسي حقيبته أيضاً! هذه كارثة!

انطلق راكضاً على الرصيف صوب الحديقة، محنيّ الظهر.

رمقه العجائز الناعسون بدهشة وهو يهرول عبر دروب الحديقة. ها هو المقعد، وها هي حقيبته ما تزال إلى جانبه، لكن لا أثر للمثلّث الفضيّ. بحث عنه، أجل، لقد سقط إلى الأرض عندما رماه غاضباً، وها هو الآن مختبئ بين الأعشاب.

جلس السيّد تاغومي وهو يلهث، محاولاً التقاط أنفاسه.

ركّزْ على المثلث الفضيّ مرّة أخرى. عندما استطاع أن يتنفّس أخيراً، قال لنفسه: افحصْه بدقّة، وعدَّ إلى العشرة، من ثمّ اصرخْ بأعلى صوتك مثلاً: استيييقظ!!

إنّه مجرّد حلم يقظة أحمق سوقيّ! فكّر، ومحاكاة لجوانب المراهقة البغيضة بالأحرى، لا لبراءة الطفولة الأصيلة النقيّة الذكيّة. إنّه ما أستحقّه بأيّ حال! الذنب ذنبي، وليس ذنب السيّد تشلدن ولا الحرفيّ الذي صنع المثلّث، أنا لا ألوم إلّا جشعي. لا يمكن للمرء أن يجبر الاستنارة على القدوم إليه!

عدّ ببطء، بصوت عالٍ، من ثمّ قفز واقفاً على قدميه. غباء لعين! قال بحدّة. هل انقشع الضباب؟!

تطلّع حوله، لقد تلاشى تشوّشه على كلّ الأصعدة! كان القدّيس بولس مصيباً باختياره كلماته القاطعة تلك: «فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ، فِي لُغْزٍ»[5]، وهي ليست مجازاً، بل إشارة حكيمة إلى الخداع البصريّ. نحن نرى، لكنّ بصرنا مشوَّه على صعيد أساسيّ: زماننا ومكاننا هما نتاج لعقلنا، وقد يتشوّهان مؤقّتاً، كما يحدث أثناء اضطراب التوازن المفاجئ الناجم عن الأذن الوسطى. في بعض الأحيان، نُجَنُّ تماماً، ويختفي توازنُ حواسّنا بأسره.

جلس من جديد، وخبّأ المثلّث الفضيّ في جيب معطفه، ثمّ وضع حقيبته في حضنه.

5- رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح 13، الآية 12. المترجمة

ماذا يجب عليّ أن أفعل الآن؟! قال لنفسه، هل أذهب وأستطلع إن كان ذلك المشروع الخبيث... ماذا سمّاه الرجل؟! أوتوستراد إمباركاديرو المعلَّق، ما يزال موجوداً أم لا؟!

أرعبته الفكرة!

لا أستطيع أن أبقى جالساً هنا ببساطة، فكّر، ما يزال عليّ أن أحمل الكثير، كما يقول التعبير الشعبيّ الأمريكيّ، فضلاً عن المهمّات الكثيرة التي ينبغي إنجازها. هذه معضلة!

ظهر صبيّان صينيّان صغيران، يتراكضان عبر الدرب بصخب، ففرّ سرب من الحمام هارباً. توقّفا للحظة، فناداهما السيّد تاغومي: «أنتما، أيّها الصبيّان!»، ومدّ يده إلى جيبه، «اقتربا».

اقترب الصبيّان منه بحذر.

«هذا دايم» قال السيّد تاغومي، ورمى إليهما قطعة من فئة الدايم، فتخاطفاها. «اذهبا إلى شارع كيرني، وفتّشا عن درّاجة ثلاثيّة، ثمّ عودا وأخبراني».

«هل ستعطينا دايماً آخر عندما نعود؟»، سأل أحدهما.

«أجل» أجاب السيّد تاغومي، «إن قلتما الحقيقة».

انطلق الصبيّان في طريقهما.

إن لم تظهر درّاجة ثلاثيّة، فكّر السيّد تاغومي، من الأفضل أن أختلي في بقعة معزولة، وأن أقتل نفسي! تشبّث بحقيبته، ما يزال المسدّس معه، لا مشكلة.

عاد الصبيّان راكضَين. «ستّة!» صرخ أحدهما، «لقد أحصيتُ ستّ درّاجات».

«أنا أحصيتُ خمساً»، شهق الصبيّ الثاني.

«هل أنتما متأكّدان ممّا رأيتماه؟!» سأل السيّد تاغومي، «هل رأيتما السائقين يدوّسون حقّاً؟!».

«أجل سيّدي!» هتف الصبيّان بصوت واحد، فأعطى السيّد تاغومي كلّاً منهما دايماً، وركضا مبتعدين بعد أن شكراه.

إذن، سأعود إلى المكتب، قال لنفسه. وقف، وأمسك حقيبته من مقبضها. الواجب يناديني، واليوم المعتاد سيبدأ من جديد!

قطع دروب الحديقة مجدّداً، ووصل إلى الرصيف. «درّاجة!» صرخ، فظهرت من بين المركبات درّاجة ثلاثيّة شقّت طريها باتجاهه. توقّف سائقها عند حافة الرصيف، وجهه القاتم يلمع بالعرق، وصدره يعلو ويهبط. «حاضر يا سيّدي»، قال.

«خذني إلى مبنى نيبون تايمز»، أمره السيّد تاغومي، ثمّ تسلّق المقعد وجلس عليه براحة، فدوّس السائق بهمّة، وشقّ طريقه بين السيّارات والدرّاجات الأخرى.

***

وصل السيّد تاغومي إلى وجهته قبل منتصف النهار بقليل، وطلب من عامل المقسم في البهو الرئيسيّ، أن يصله بالسيّد رامسي في الأعلى.

«تاغومي يتكلّم»، قال.

«صباح الخير يا سيّدي. أشعر بالاطمئنان الآن! لقد خفتُ لأنّك لم تأت، فاتّصلتُ بمنزلك في الساعة العاشرة، لكنّ زوجتك قالت إنّك غادرت إلى وجهة مجهولة».

«هل تخلّصتم من الفوضى؟»، سأل السيّد تاغومي.

«لا أثر لها»

«هل أنت متأكّد؟!»

«أعدك بذلك يا سيّدي».

شعر السيّد تاغومي بالرضا، فأغلق الخطّ، من ثمّ ركب المصعد. في الأعلى، سمح لنفسه أن يتفحّص المكتب بطرف عينيه للحظة ما إن دخله. لا توجد آثار لما حصل على الإطلاق أينما نظر، تماماً كما وعده السيّد رامسي. أحسّ بالراحة، لن يعرف أحد بما حصل هنا ما لم يكن ممّن شهدوه، لأنّ النفاق يمتزج مع بلاط بلاستيكيّ جديد!

استقبله السيّد رامسي في الداخل، وقال: «شجاعتك هي موضوع مقال

يمدحك في الأسفل، في صحيفة نيبون تايمز. المقال يتحدّث عن...»، لكنّه صمت فجأة عندما انتبه إلى تعابير السيّد تاغومي.

«أخبرني عن المسائل الملحّة» قال السيّد تاغومي، «الجنرال تديكي؟ أي السيّد ياتابي سابقاً، أين هو؟».

«إنّه على متن رحلة سريّة إلى طوكيو، ويقومون بنشر معلومات مضلّلة عنه هنا وهناك». صالب السيّد رامسي إصبعيه، في إشارة إلى أمنياته بنجاح العمليّة.

«أخبرني عن السيّد باينس رجاء»

«لا أعرف. لقد جاء لفترة وجيزة خلال غيابك كأنّه يتسلّل خلسة، لكنّه لم يقل شيئاً»، من ثمّ أضاف متردّداً: «ربّما عاد إلى ألمانيا».

«كان الأجدر به أن يذهب إلى جزر الوطن»، غمغم السيّد تاغومي كأنّه يكلّم نفسه. بأيّ حال، المسألة الأهمّ هي بين يدي الجنرال حاليّاً، أمّا مشكلة السيّد باينس فلا شأن لي بها. أنا، مكتبي... لقد استغلّوا وجودي هنا، وهذا حَسنٌ وملائم بطبيعة الحال. لقد كنتُ، ماذا يسمّون ذلك... غطاءهم! كنتُ قناعاً يخفي الحقيقة، اختبأ الواقع الحقيقيّ خلفي، ومضى بسلام بعيداً عن العيون التي تترصّده. هذا غريب! فكّر، من الضروريّ أن يكون المرء أحياناً مجرّد واجهة كرتونيّة! هناك قبس من الاستنارة في هذه النقطة، ليتني قادر على إدراكها: غايةٌ ضمن منظومة من الأوهام، ينبغي أن نفهمها. إنّه قانون الاقتصاد: لا يضيع شيء، حتّى الوهميّ! يا لها من عمليّة سامية!

ظهرت الآنسة إفريكيان، والاضطراب بادٍ على وجهها. «يا سيّد تاغومي، لقد أرسلني عامل المقسم»، قالت.

«بلطف يا آنسة!» قال السيّد تاغومي، وفكّر: تيّارات الزمن تدفعنا للمضيّ قدماً.

«سيّدي، القنصل الألمانيّ هنا، ويرغب بالتحدّث إليك». نقلت نظراتها بينه وبين السيّد رامسي، ووجهها شاحب للغاية، ثمّ أضافت: «قال عامل المقسم إنّه هنا منذ وقت طويل، لكنّهم يعرفون أنّك لم...».

أشار السيّد تاغومي إليها بأن تصمت، ثمّ سأل السيّدَ رامسي: «ذكّرني لطفاً باسم القنصل؟».

«الفرايهر هوغو ريس يا سيّدي»

«أجل، تذكّرت». حسناً، فكّر، من الواضح أنّ السيّد تشلدن قد أسدى لي خدمة في نهاية المطاف، عندما رفض أن يأخذ المسدّس!

حمل حقيبته، وخرج من مكتبه إلى الردهة، حيث رأى رجلاً أبيض أنيقاً، ضخماً نوعاً ما، شعره البرتقاليّ قصير للغاية، ينتعل حذاء أكسفورد أسود لمّاعاً من الجلد الأوروبيّ، ويقف مشدود القامة ممسكاً بحامل سيجارة من العاج. إنّه القنصل الألمانيّ بلا ريب!

«هر هوغو ريس؟» سأل السيّد تاغومي، فانحنى الألمانيّ.

«في الحقيقة» قال السيّد تاغومي، «اعتدنا أنا وأنت على إنجاز أعمالنا عبر الهاتف والبريد.. إلخ، لكنّنا لم نلتقِ من قبل وجهاً لوجه».

«إنّه شرف لي» قال هر ريس وهو يخطو باتّجاهه، «حتّى في ظلّ تلك الظروف القاسية المزعجة».

«لديّ تساؤل»، قال السيّد تاغومي، فرفع الألمانيّ حاجبه مستفهماً.

«اعذرني!» قال السيّد تاغومي، «تفكيري مشوّش بسبب تلك الظروف التي تشير إليها. إنّها هشاشة الكائنات المخلوقة من الطين، على ما يبدو».

«فظيع!» قال هر ريس وهو يهزّ رأسه، «ما إن سمعتُ بـ...»

«قبل أن تبدأ بالثرثرة» قاطعه السيّد تاغومي، «دعني أتكلّم».

«بالتأكيد»

«لقد أطلقتُ النار بيدي على رجلي الاستخبارات النازيّة هذين»، قال السيّد تاغومي.

«لقد استدعاني قسم شرطة سان فرانسيسكو» قال هر ريس وهو ينفث دخان سيجارته البغيض حوله. «لقد بقيتُ طوال ساعات هناك في مركز شارع كيرني، وفي المشرحة، من ثمّ راجعتُ الإفادات التي قدّمتها جماعتك لمحقّقي الشرطة... إنّه حادث مرعب، من بدايته إلى نهايته».

لم يعلّق السيّد تاغومي بكلمة.

«بأيّ حال» تابع هر ريس، «لم تتأكّد الصلة بين هذين البلطجيّين

وبين الرايخ. المسألة برمّتها جنون محض برأيي، وأنا واثق من أنّك قمت بالتصرّف المناسب، يا سيّد تاغوري».

«تاغومي!»

«لنتصافح» قال هر ريس وهو يمدّ يده، «دعنا نتصافح ونعقد اتّفاقاً، بين جنتلمان ونظيره، بأن ننسى ما حدث. إنّها مسألة لا تستحقّ الاهتمام، خاصّة في هذا الزمن العصيب، حين يمكن لأيّ دعاية غبيّة أن تُلهِب عقول الغوغاء، ممّا ينعكس سلباً على مصالح بلدينا».

«مع ذلك، أنا مذنب» قال السيّد تاغومي، «من غير الممكن إطلاقاً يا هر ريس، أن يُمحَى الدم كالحبر».

شُدِه القنصل.

«أنا أنشد الغفران» قال السيّد تاغومي، «وأنت غير قادر على منحه لي. لا أحد قادر على ذلك غالباً... أنا أنوي أن أقرأ المذكّرات الشهيرة، تلك التي كتبها نبيّ ماساشوستس القديم، السيّد كوتون مايذر[6]، التي تتناول كما قيل لي موضوع الذنب ونار الجحيم، وما إلى هنالك».

دخّن القنصل سيجارته بسرعة، وهو يتأمّل السيّد تاغومي بإمعان.

«اسمح لي بإبلاغك» قال السيّد تاغومي، «بأنّ أمّتك على وشك أن تقترف شرّاً غير مسبوق. هل تعرف ما هو هسكاغرام الهاوية؟! أنا أتكلّم معك بصفتي الشخصيّة، لا بصفتي ممثّلاً للحكومة اليابانيّة، وأعلن لك أن قلبي يكاد يتوقّف رعباً. سنغرق في حمّام دم لم يسبق له مثيل... مع ذلك، ها أنت ذا، تبذل قصارى جهدك كي تحقّق هدفاً أو غاية هامشيّة ترضي بها غرورك، أو كي تسجّل انتصاراً على خصمك، رئيس الاستخبارات النازيّة، أليس كذلك؟ بينما تحاول إيقاع الهر كروز ڤوم مير في ورطة...»، لم يستطع أن يتابع، فقد ضاقت أنفاسه كثيراً. كما في طفولتي! فكّر، كنتُ أصاب بنوبة ربو آنذاك عندما يثور غضبي على أمّي.

«أنا أعاني» قال للهر ريس الذي سبق له أن أطفأ السيجارة، «أنا أعاني من

6- Cotton Mather (1663-1728): قسّ بيوريتانيّ أمريكيّ شهير مثير للجدل، له مؤلّفات عديدة في مجال التاريخ والعلوم واللّاهوت والأدب. المترجمة

مرض مزمن تفاقم على مدار السنين، لكنّه خرج عن نطاق السيطرة بمجرّد أن سمعتُ -رغماً عنّي- تفاصيل المغامرة التي سيخوضها رؤساؤك. بأيّ حال، لا يوجد له علاج، وكذلك الحال بالنسبة لك يا سيّدي. كما قال السيّد كوتون مايذر إن لم تخنّي الذاكرة: تُب!».

«أنت تتذكّر كلامه جيّداً»، قال القنصل الألمانيّ بفظاظة. هزّ رأسه، ثمّ أشعل سيجارة ثانية بأصابع ترتجف.

خرج السيّد رامسي من المكتب في تلك اللحظة، حاملاً كدسة من الأوراق والاستمارات، ناولها للسيّد تاغومي الذي يقف صامتاً وهو يحاول أن يأخذ شهيقاً عميقاً، وقال له: «بما أنّه هنا... مسألة روتينيّة تتعلّق بصلاحيّاته».

أخذ السيّد تاغومي الاستمارات بحركة انعكاسيّة، وألقى نظرة عليها: الاستمارة 50-20، التي يطلب فيها الرايخ من ممثّله في الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة، القنصل فرايهر هوغو ريس، أن يستلم مجرماً من عهدة شرطة سان فرانسيسكو، يهوديّ اسمه فرانك فينك، يُعَدّ مواطناً ألمانيّاً استناداً إلى قانون الرايخ ساري المفعول بأثر الرجعيّ، وذلك في حزيران 1960، كي يوضَع في الحجز الاحتياطيّ، إلخ، إلخ.

تفحّص السيّد تاغومي الاستمارة مرّة ثانية.

«القلم، يا سيّدي» قال السيّد رامسي، «وبذلك نختتم الأعمال المطلوبة مع الحكومة الألمانيّة في هذا التاريخ». رمق القنصلَ ببغض، وهو يناول القلم للسيّد تاغومي.

«كلّا!» قال السيّد تاغومي، وأعاد الاستمارة 50-20 إلى السيّد رامسي، من ثمّ اختطفها من يده مجدّداً، وخربش أسفلها: يُطلَق سراحه، وفقاً للبروتوكول العسكريّ لعام 1947، لجنة التجارة السامية في سان فرانسيسكو، تاغومي. ناول نسخة كربونيّة للقنصل الألمانيّ، وأعطى بقيّة النسخ للسيّد رامسي مع الاستمارة الأصل. «طاب يومك هر ريس»، قال ثمّ انحنى.

انحنى القنصل هوغو ريس بدوره، دون أن يكترث بالنظر إلى الورقة.

«من فضلك، أرجو أن تنجز الأعمال في المستقبل من خلال وسائل

التواصل المباشرة، كالبريد والتلفون والتلغراف» قال السيّد تاغومي، «وليس شخصيّاً».

«أنت تعدّني المسؤول عن ظروف عامّة تتجاوز مقدراتي»، قال القنصل.

«خرائيّ!» قال السيّد تاغومي، «هذا هو ردّي على كلامك».

«لا ينجز الأشخاص المتحضّرون أعمالهم بهذه الطريقة» قال القنصل، «أنت تفعل ذلك انتقاماً، مع أنّ الوضع يقتضي منك أن تتصرّف بأسلوب رسميّ محض، بعيداً عن الأمور الشخصيّة». رمى سيجارته على أرض الردهة، ثمّ استدار ومشى مبتعداً.

«خذ سيجارتك المقرفة معك!» قال السيّد تاغومي بصعوبة، لكنّ القنصل الذي انعطف عند الزاوية لم يسمعه. «سلوكي طفوليّ» قال السيّد تاغومي للسيّد رامسي، «لقد شهدتَ تمرّداً طفوليّاً!»، ودخل إلى مكتبه مترنّحاً. لم يعد يقوى على التنفّس إطلاقاً، هناك قبضة هائلة تضغط على قفصه الصدريّ وتسحقه، والألم يسري إلى ذراعه اليسرى الآن. آخ! قال، ولم يرَ السجّادة تحت أقدامه، بل وابل من الشهب الحمراء أمام عينيه. النجدة، يا سيّد رامسي! لكنّ صوتَه لم يُسمَع. مدّ يده وتعثّر، لم يجد شيئاً يتمسّك به. عندما سقط على الأرض، شدّ قبضته على المثلّث الفضيّ في جيب معطفه، الذي حثّه السيّد تشلدن على شرائه. لم ينقذني! فكّر، لم يساعدني، لم ينفعني كلّ ذلك الجهد! ارتطم جسده بالأرض، فجثا على ركبتيه ويديه، وعبقت رائحة السجّادة في أنفه، فشهق.

ها هو السيّد رامسي يندفع إليه مسرعاً وهو يصرخ. احتفظ بتوازنك! قال السيّد تاغومي لنفسه، واستطاع أن ينطق أخيراً: «إنّها نوبة قلبيّة صغيرة».

هناك عدّة أشخاص في الغرفة الآن، حملوه إلى الأريكة. «ابقَ هادئاً يا سيّدي»، قال أحدهم.

«أبلِغوا زوجتي رجاءً»، غمغم السيّد تاغومي، وسمع صوت سيّارة الإسعاف تعوي في الشارع على الفور، والمزيد من الجلبة. هناك أشخاص كثيرون يدخلون ويخرجون، غطّاه شخص ما ببطانيّة حتّى إبطيه، وفكّوا ربطة عنقه، وأرخوا قميصه.

«أنا أفضل الآن» قال السيّد تاغومي، واستلقى مرتاحاً، ولم يحاول أن يتحرّك. انتهت وظيفتي بأيّ حال، فكّر، لا بدّ أنّ القنصل الألمانيّ سيثير جلبة على أعلى المستويات، وسيتذمّر من بربريّتي، لعلّه يملك الحقّ بتقديم شكوى! بأيّ حال، انتهت المهمّة، أو دوري فيها على الأقلّ، أمّا الباقي فيقع على عاتق طوكيو والأطراف المختلفة في ألمانيا. هذا الصراع يتجاوز قدراتي! ظننتُ أنّ المسألة برمّتها تتعلّق بالبلاستيك! مندوب مبيعات مهمّ، يعرض علينا قوالب الصبّ، لا أكثر. لقد حزر كتاب التنبّؤات ما سيحدث، وأعطاني تلميحاً، ولكن...

«انزعوا قميصه» قال صوت ما، لا بدّ أنّه طبيب المبنى، لأنّ نبرته آمرة وقاطعة. ابتسم السيّد تاغومي، النبرة هي كلّ شيء.

هل هذه هي الإجابة؟! تساءل، لغز الجسد، وما يعرفه؟ حان الوقت كي أرحل، أو كي آخذ وقتاً مستقطعاً للرحيل، هذا هدف ينبغي أن أطيعه. ماذا كانت كلمات كتاب التنبّؤات الأخيرة؟! عندما سألتُه في المكتب، وذلك الميت وذاك الذي يحتضر يستلقيان أمامي؟ الهكساغرام الحادي والستّون، الحقيقة الداخليّة: «الخنازير والأسماك هي أقلّ الكائنات ذكاء، ومن الصعب أن تقتنع»... إنّها أنا، كان يقصدني أنا! لن أفهم ما حدث بالضبط، لأنّ تلك الكائنات غبيّة بطبيعتها... أم لعلّ ما يحدث الآن هو الحقيقة الداخليّة؟!

سأنتظر، سأرى ماذا سيحصل، وسأعرف أيّ من الخيارين هو الصحيح. لعلّهما كليهما كذلك!

***

مساءً بعد وجبة العشاء، أتى شرطيّ إلى زنزانة فرانك فرينك، فتح بابها، وطلب منه أن يذهب إلى المكتب لاستلام أغراضه.

سرعان ما وجد فرانك نفسه على الرصيف أمام مركز الشرطة في شارع كيرني، بين العابرين المستعجلين، والباصات وأبواق السيّارات وصراخ سائقي الدرّاجات الثلاثيّة. الهواء بارد، والعمارات تلقي بظلال ضخمة. ظلّ واقفاً للحظة، ثمّ اندمج تلقائيّاً مع مجموعة أشخاص يقطعون الشارع عند معبر المشاة.

لقد اعتقلوني بلا سبب حقيقيّ، فكّر، وبلا هدف واضح، من ثمّ أطلقوا سراحي بالأسلوب ذاته! لم يقولوا له شيئاً، بل أعطوه ثيابه، محفظته، ساعته، نظّارته، وأغراضه الشخصيّة، وانتقلوا على الفور إلى مهمّتهم التالية: كهل سكران متشرّد.

إنّها معجزة! فكّر، إطلاق سراحي هو معجزة، ضربة حظّ غير متوقّعة، وإلّا لكنتُ الآن على متن الطائرة التي ستأخذني إلى ألمانيا كي يعدموني!

ما زال غير قادر على تصديق ما حصل، سواء اعتقاله أو إطلاق سراحه. هذا غير واقعيّ! تجوّل أمام المتاجر المغلقة، وهو يدوس على الفضلات التي جرفتها الريح. حياة جديدة! فكّر، كأنّني وُلِدتُ من جديد. تبّاً، إنّها كذلك!

لمن أدين بالشكر؟ هل أصلّي على سبيل المثال؟ ولمن أصلّي؟ أتمنّى لو أفهم ما يحصل! قال لنفسه وهو يمشي على الرصيف المزدحم، تحت أضواء اللّافتات الضوئيّة، وأضواء مداخل بارات غرانت آفينو المبهرة. أريد أن أفهم، يجب أن أفهم! أدرك أنّه لن يفهم أبداً ما حصل. كن سعيداً إذن، افرحْ، وتابع طريقك! قال لنفسه، لكنّ صوتاً دوّى في عقله آمراً: ومن ثمّ عُدْ إلى إد مكارثي! يجب أن أجد طريقي إلى ورشة القبو، فكّر، وأن أتابع العمل من حيث تركته، وأن أصنع المجوهرات بيديّ. سأعمل ولن أفكّر، لن أبحث ولن أحاول أن أفهم، لا بدّ أن أشغل نفسي، وأن أنهي الحليّ.

قطعَ المدينة المظلمة حيّاً بعد حيّ، محاولاً أن يصل بأسرع ما يمكن إلى المكان الثابت، القابل للفهم، حيث كان من قبل.

عندما وصل إلى الورشة أخيراً، وجد إد مكارثي جالساً على المقعد يتناول عشاءه: سندويشتان، موزة، بضع بسكويتات، وترمس من الشاي. وقف فرانك عند المدخل وهو يلهث، فسمعه إد أخيراً والتفت صوبه. «اعتقدتُ أنّك متّ!» قال وهو يمضغ اللقمة ويبلعها بشكل أتوماتيكيّ، ثمّ قضم لقمة ثانية.

المدفأة الكهربائيّة الصغيرة تشتعل بجانب المقعد، اقترب منها فرانك وقرفص أمامها كي يدفّئ يديه.

«تسعدني رؤيتك مجدّداً» قال إد، وصفع فرانك مرّتين على ظهره، ثمّ

تابع التهام سندويشته دون أن يضيف المزيد. الصوت الوحيد المسموع هو أزيز مروحة المدفأة الكهربائيّة، وصوت المضغ.

رمى فرانك معطفه على الكرسيّ، ثمّ تناول حفنة من قطع الفضّة غير المكتملة، واتّجه إلى طاولة العمل. ثبّت قرص الصقل المصنوع من الصوف على الرأس الدوّار، وشغّل المحرّك. بعد ذلك، طلى القرص بمادّة التلميع، أسدل القناع الواقي على وجهه كي يحمي عينيه، من ثمّ جلس على الكرسيّ وبدأ بإزالة الآثار التي يتركها اللحام على قطع الفضّة، قطعة فقطعة.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

-15-

نظر الكابتن رودولف ڤيغنر -الذي يسافر حاليّاً تحت اسم مستعار هو كونراد غولتز، وبصفة تاجر معدّات طبيّة بالجملة- من نافذة صاروخ اللوفتهانزا ME9-E، ورأى أوروبا أمامه الآن. يا لهذه السرعة! فكّر، سنحطّ في مطار تمبلهوف خلال سبع دقائق تقريباً.

أتساءل ما الذي حقّقتُه! فكّر وهو يشاهد معالم الأرض تكبر. الموضوع بيد الجنرال تديكي الآن، ومرهون بما يمكنه فعله في جزر الوطن. على الأقلّ، استطعنا أن ننقل المعلومات إليهم، لقد بذلنا ما في وسعنا.

من ثمّ خطر له: لكن لا سبب يدعو للتفاؤل! لعلّ اليابانيّين غير قادرين على تغيير مجرى السياسة الألمانيّة الداخليّة. حكومة غوبلز تتبوّأ السلطة الآن، وستصمد على الأرجح، وستلتفت مجدّداً إلى عمليّة الأقحوانة بعد أن ترسّخ قبضتها. من ثمّ، ستدمّر جزءاً آخر ضخماً من الكوكب مع الشعوب التي تسكنه، انطلاقاً من مبدأ مختلّ متطرّف.

لنفترض أنّهم -النازيّون- دمّروه كليّاً في نهاية المطاف، وحوّلوه إلى رماد عقيم؟! يمكنهم ذلك، لأنّهم يملكون قنبلة هيدروجينيّة، ولا ريب أنّهم سيفعلون، لأنّ عقليتهم تميل نحو الدمار الشامل! لعلّهم يتوقون للدمار، ويسعون إليه عمداً. ذلك الهولوكوست الختاميّ سيبيدنا جميعنا.

ماذا سيبقى بعد جنون إبادة العالَم الثالث ذاك؟! هل ستُكتَب النهاية لأشكال الحياة جميعها في كلّ مكان، على اختلاف أنواعها؟! عندها، سيتحوّل كوكبنا إلى كوكب ميت بفضلنا نحن.

لم يستطع أن يصدّق هذه الفكرة! حتّى ولو تمّ تدمير الحياة على هذا

الكوكب، فلا بدّ من وجود حياة أخرى في مكان ما، لا ندري بها. يستحيل أن تكون حضارتنا هي الوحيدة في الكون بأسره، ولا بدّ من وجود عوالم أخرى، عالَم تلو العالَم، غير مرئيّة بالنسبة لنا، في منطقة ما أو بُعدٍ ما، ما زلنا غير قادرين ببساطة على إدراكه. على الرغم من أنّها فكرة غير منطقيّة لا أملك دليلاً عليها، لكنّني أؤمن بها! أكّد لنفسه.

أعلن مكبّر الصوت في تلك اللحظة:

«Meine Damen und Herren. Achtung, bitte»[1]

نحن على وشك أن نهبط، قال الكابتن رودولف ڤيغنر لنفسه، وسأجد رجال الاستخبارات بانتظاري بكلّ تأكيد. السؤال هو: أيّ طرف سيمثّلون؟! غوبلز أم هايدريش؟ على افتراض أنّ الجنرال هايدريش، رئيس مكتب أمن الرايخ، ما يزال حياً في هذه اللحظة. لعلّهم طوّقوه وأطلقوا الرصاص عليه بينما أنا في طريق العودة، الأمور تحدث بسرعة خلال الأطوار الانتقاليّة في المجتمع الشموليّ، فضلاً عن وجود قوائم جاهزة مسبقاً بأسماء المطلوبين في ألمانيا النازيّة.

حطّ الصاروخ خلال بضع دقائق، فحمل معطفه على ذراعه، وسار بين المسافرين المتوتّرين باتّجاه المخرج. لا يرافقني فنّان نازيّ شابّ هذه المرّة، فكّر، لوتز غير موجود كي يزعجني بثرثرته ووجهة نظره الحمقاء حتّى آخر لحظة.

قام موظّف من شركة الطيران -يرتدي كما لاحظ ڤيغنر زيّاً رسميّاً أشبه بزيّ مارشال الرايخ شخصيّاً- بمساعدة المسافرين على النزول، واحداً تلو الآخر. في قاعة القادمين، تقف مجموعة صغيرة من ذوي القمصان السود. هل هم بانتظاري أنا؟! فكّر، وبدأ يمشي على مهل مبتعداً عن الصاروخ. في زاوية أخرى من الصالة، ينتظر عدد من الرجال والنساء وهم يلوّحون وينادون، وبضعة أطفال أيضاً.

أحد أفراد القمصان السود، رجل أشقر ذو وجه مسطّح جامد يعلّق شعار فافن-إس. إس على ثيابه، تقدّم بسرعة نحو الكابتن رودولف ڤيغنر، وضرب كعبي حذائه معاً،

1- سيّداتي وسادتي، نرجو الانتباه. مرحباً بكم. المترجمة

ثمّ حيّاه وقال:

«Ich bitte mich zu entschuldigen. Sind Sie nicht Kapitan Rudolf Wegener, von der Abwehr?»[2]

«آسف» أجابه ڤيغنر، «أنا كونراد غولتز، ممثّل شركة إيه. جي. شيميكاليا للمعدّات الطبّيّة»، وحاول الابتعاد عن الرجل، لكنّ اثنين آخرين من ذوي القمصان السود، يعلّقان شارة فافن-إس إس أيضاً، تقدّما باتجاهه، ورافقوه ثلاثتهم بالإيقاع ذاته بحيث أصبح فعليّاً تحت رقابتهم، على الرغم من أنّه تابع السير بالاتّجاه الذي اختاره. لاحظ أنّ اثنين منهم، يحملان أسلحة نصف أتوماتيكيّة تحت معطفيهما.

«أنت ڤيغنر»، قال أحدهم وهم يدخلون المبنى.

لم يجب.

«معنا سيّارة» أضاف الرجل، «لقد طُلِبَ منّا أن نستقبلك عند الصاروخ، وأن نتواصل معك، ونأخذك على الفور إلى الجنرال هايدريش رئيس مكتب أمن الرايخ. إنّه موجود مع سِب ديتريتش[3] حاليّاً في القيادة العامّة العليا للجيش والقوّات المسلّحة، شعبة شوتزشتافل. معنا أوامر مشدّدة بعدم السماح لأحد أياً كان، سواء من الجيش أو الحزب، بالاقتراب منك».

إذن، لن يطلقوا عليّ الرصاص! قال ڤيغنر لنفسه، هايدريش ما يزال حيّاً في مكان آمن، وهو يحاول أن يقوّي موقفه ضدّ حكومة غوبلز. لعلّ هذه الحكومة ستسقط أخيراً، فكّر وهم يرافقونه إلى سيّارة سيدان ديملر تابعة للحرس النازيّ الخاصّ، كانت بانتظارهم... ستنطلق فرقة فافن-إس إس فجأة ليلاً، سيُعفى حرس المستشاريّة من مهامّهم ويُستَبدلون، سينطلق أفراد جهاز الأمن النازيّ الخاصّ المسلّحون من مراكز الشرطة في برلين في كلّ الاتجاهات، الراديو مقطوع، الكهرباء مقطوعة، مطار تمبلهوف مغلق، هدير

2- عذراً، ألستَ الكابتن رودولف ڤيغنر، من وزارة الدفاع؟ المترجمة.

3- Sepp Dietrich (1892-1966): ضابط ألمانيّ تولّى قيادة الحرس الشخصيّ لأدولف هتلر، وكان قائد فصيل دبّابات القوّات النازيّة الخاصّة في الحرب العالميّة الأولى. المترجمة

الأسلحة الثقيلة يدوّي في الشوارع الرئيسيّة المعتمة... حلمٌ عبثيٌّ! حتّى ولو أطاحوا بالدكتور غوبلز، وتمكّنوا من إلغاء عمليّة الأقحوانة، لن يتغيّر شيء: سيبقى ذوو القمصان السود، والحزب، والمخطّطات ذاتها سواء في المشرق أو في أيّ مكان آخر، حتّى في المرّيخ أو الزُهرة.

لا عجب أنّ السيّد تاغومي عجز عن الاستمرار! إنّها المعضلة الرهيبة التي نواجهها في حياتنا: الشرّ الذي لا يُعقَل باقٍ، مهما حدث. لماذا نناضل إذن؟ لماذا نختار، إن كانت كلّ الخيارات البديلة متشابهة؟! من الواضح أنّنا نتابع طريقنا كما نفعل دائماً، من يوم إلى يوم. في هذه اللحظة، نتحرّك ضدّ عمليّة الأقحوانة، أمّا لاحقاً، في لحظة أخرى، فسنحاول أن نهزم البوليس، لا يمكننا القيام بكلّ شيء في آن واحد. لا بدّ من تنفيذ الأمور بالتتالي، واحداً فواحداً، وبالتدريج. لن نتحكّم بما سيحصل في النهاية، إلّا إن اخترنا المراحل بدقّة خطوة خطوة.

ليس أمامنا إلّا الأمل، فكّر، والمحاولة.

قد يختلف الواقع في عالم آخر، وقد يكون أفضل. قد توجد فيه بدائل واضحة، سواء كانت خيّرة أم شرّيرة، عوضاً عن هذه المزائج الغامضة وتلك الخلائط القائمة حاليّاً، التي لا تتوافر بين أيدينا أداة لفصل مكوّناتها بعضها عن بعض. نحن لا نعيش كما نتمنّى في العالم المثاليّ، حيث تكون خياراتنا الأخلاقيّة سهلة لأنّ الإدراك سهل، وحيث يمكننا أن نقوم بما هو صائب دون عناء، لأنّ الصواب واضح.

انطلقت سيّارة ديملر سيدان بالكابتن ڤيغنر الجالس في المقعد الخلفيّ، اثنان من ذوي القمصان السود على جانبيه، كلٌّ منهما يحمل سلاحه في حضنه، وثالثٌ خلف عجلة القيادة.

لنفترض أنّ هذه خدعة! فكّر الكابتن رودولف ڤيغنر، بينما انطلقت السيّارة مسرعة في شوارع برلين. لنفترض أنّهم لا يأخذونني إلى الجنرال هايدريش في مقرّ القيادة العامّة العليا للجيش والقوّات المسلّحة، بل إلى سجن من سجون الحزب، حيث سيقومون بتعذيبي وقتلي أخيراً... لكنّني اخترتُ، اخترت أن أعود إلى ألمانيا، اخترتُ أن أخاطر بالتعرّض للاعتقال قبل أن أتمكّن من الوصول إلى الجيش والحصول على حمايته.

الموت موجود في كلّ خطوة، إنّه مكان مفتوح دائماً لنا جميعنا. نحن نختاره في نهاية المطاف رغماً عنّا، وأحياناً نستسلم ونختاره عمداً!

تأمّل منازل برلين التي يمرّون بها. يا شعبي، فكّر، ها نحن أولئك، أنا وأنت معاً مرّة أخرى! ثمّ قال لرجال القمصان السود: «كيف تسير الأمور؟ هل حصلت تطوّرات على المشهد السياسيّ؟! لقد غادرتُ منذ عدّة أسابيع، قبل أن يموت بورمان في الواقع».

أجابه الرجل الجالس على يمينه: «بطبيعة الحال، الكثير من الجماهير الغوغائيّة تناصر الدكتور الصغير بهستريائيّة... الغوغاء هم من أوصلوه إلى سدّة الحكم. بأيّ حال، ما إن تسيطر العناصر العاقلة، فمن غير المرجّح أن تدعم ديماغوجيّاً مشلولاً يعتمد على تهييج الجماهير بأكاذيبه وسحره».

«فهمتُ»، قال ڤيغنر.

الكراهية المدمّرة مستمرّة، فكّر، ولعلّ بذورها موجودة هنا، في هذا الأمر. سيأكل بعضهم بعضاً أحياء في نهاية المطاف، ويتركوننا نحن أحياء، هنا وهناك في هذا العالَم. سيبقى ما يكفي منّا كي نعمّر، ونحلم، ونرسم خططاً بسيطة من جديد.

***

في الساعة الواحدة ظهراً، وصلت جوليانا فرينك إلى شايان، وايومنغ. في القطاع التجاريّ من مركز المدينة، مقابل محطّة قطار قديمة ضخمة، توقّفت عند كشك سجائر واشترت جريدتين من طبعة صحف المساء. ركنت سيّارتها بجانب الرصيف، وقلّبت الصفحات إلى أن عثرت على ضالّتها:

إجازة تنتهي بجريمة قتل!

البحث جارٍ عن الفاعلة، لاستجوابها حول قيامها بذبح زوجها، السيّد جو سينادِلا، في غرفتهما الفاخرة في فندق بريزدنت غارنر في دنڤر. لقد غادرت المشتبه بها مباشرة على إثر خلاف زوجيّ حادّ كما يُعتَقد، وما يدعو للسخرية هو أنّ الشفرات التي وُجِدت في الغرفة، هي هديّة ترحيبيّة يقدّمها الفندق للنزلاء، لكنّ السيّدة سينادِلا استعملتها على ما يبدو لحزّ عنق زوجها. استناداً إلى أقوال موظّفي الفندق، المشتبه بها هي سيّدة داكنة البشرة، نحيلة،

أنيقة، جذّابة، وفي حوالي الثلاثين من عمرها. ثيودور فيريس، عثر على جثّة الزوج في الغرفة، وهو موظّف كان قد قام قبل نصف ساعة فقط بأخذ قمصان السيّد سينادِلا لكيّها، وأعادها كما طُلِب منه، لكنّه فوجئ بالمشهد المرعب. قالت الشرطة إنّ آثار العراك واضحة في غرفة الفندق، ممّا يوحي بأنّ شجاراً عنيفاً قد...

إذن، لقد مات! فكّرت جوليانا وهي تطوي الصحيفة، وهذا ليس كلّ شيء! إنّهم لا يعرفون اسمي، ولا يعرفون من أنا. لا يعرفون عنّي شيئاً على الإطلاق!

هدأت أعصابها، فتابعت طريقها إلى أن عثرت على موتيل مناسب، حيث حجزت غرفة نقلت إليها كلّ متاعها. من الآن فصاعداً، فكّرت، لا داعي للعجلة، بوسعي أن أنتظر حتّى المساء، من ثمّ أذهب لزيارة أبندسن بعد أن ألبس فستاني الجديد. لا يمكن أن ألبسه نهاراً، لأنّه ثوب رسميّ لا يليق إلّا بفترة المساء. بوسعي أن أنهي قراءة الرواية أيضاً!

رتّبت أمورها كي تشعر بالراحة في الغرفة قدر الإمكان، شغّلت الراديو، وجلبت قهوة من بوفيه الموتيل، ثمّ جلست على السرير المرتّب بعناية، ونسخة الجندب يُستثْقَل، تلك الجديدة النظيفة التي ابتاعتها من متجر الكتب في الفندق، بين يديها.

أنهت الكتاب في الساعة السابعة إلّا عشر دقائق مساء. أتساءل إن كان جو قد قرأ الخاتمة! قالت لنفسها، ففيها أكثر بكثير ممّا فهمه. ما الذي يريد أبندسن قوله؟ لا شيء عن عالمه الخياليّ. هل أنا الوحيدة التي تعرف؟! أراهن بأنّني كذلك، فلا أحد سواي يفهم الجندب يُستثْقَل حقّاً، بل يخيّل للآخرين بأنّهم يفهمونها.

خبّأت الكتاب في حقيبتها مرتجفة، من ثمّ ارتدت معطفها وذهبت للبحث عن مكان تتناول فيه العشاء. رائحة الهواء منعشة، ولافتات وأضواء شايان مثيرة للاهتمام. أمام أحد البارات، رأت عاهرتين هنديّتين جميلتين عيونهما سوداء تتشاجران، فتوقّفت كي تتفرّج عليهما. الكثير من السيّارات البرّاقة تروح وتجيء في الشوارع، وكلّ ما حولها تحيط به هالة من التألّق

والترقّب والأمل، من التطلّع قدماً إلى حدث ما سعيد ومهمّ، لا إلى الماضي، ولا إلى الباهت والكئيب، أو المُستعْمَل والمرميّ في القمامة.

وجدت مطعماً فرنسيّاً فاخراً، حيث يتولّى رجل يرتدي معطفاً أبيض مهمّة تركين سيّارات الزبائن. على كلّ طاولة من الطاولات تشتعل شمعة موضوعة في قدح نبيذ ضخم، فضلاً عن أنّ الزبدة لا تُقدَّم على شكل شرائح مربّعة، بل ككرات شاحبة. استمتعت جوليانا بالعشاء، ثمّ تمشّت عائدة إلى الموتيل بما أنّ الوقت ما يزال باكراً. لقد نفد معظم ما تحمله من بنكنوت الرايخسبانك، لكنّها لم تكترث، هذا لا يهمّ.

إنّه يحكي لنا عن عالمنا هذا، فكّرت وهي تفتح باب غرفة الموتيل، عالمنا الذي يحيط بنا الآن. شغّلت الراديو مرّة أخرى، ثمّ قالت لنفسها: إنّه يريدنا أن نراه على حقيقته. أنا أراه بهذه الطريقة، وأراه على حقيقته أكثر مع كلّ لحظة تمرّ.

أخرجت الفستان الإيطاليّ الأزرق من علبته، وفردته بعناية على السرير. لم يتضرّر قط، وكلّ ما يلزم هو تنظيفه بالفرشاة لإزالة الزغب، لكنّها اكتشفت بعد أن فتحت بقيّة العلب، أنّها نسيت السوتيانات الجديدة كلّها في دنفر!

اللعنة! قالت وهي تتهاوى على الكرسيّ، ثمّ أشعلت سيجارة، وظلّت جالسة تدخّن لبعض الوقت.

هل تستطيع ارتداءه مع سوتيان عاديّ يا ترى؟ خلعت بلوزتها وتنوّرتها، وجرّبت الفستان، لكنّ شريطي سوتيانها والقسم العلويّ منه برزت كلّها من القبّة. إذن، هذا لا يفيد! ربّما، فكّرت، أتخلّى عن السوتيان نهائيّاً! لقد مرّت سنوات عديدة منذ أن جرّبت هذه الحيلة، وهو ما ذكّرها بأيّام المدرسة الثانويّة الغابرة، حين كان نهداها صغيرين للغاية ممّا أقلقها آنذاك... إنّها تلبس سوتياناً مقاسه ثمانية وثلاثون الآن، بفضل نضج جسدها وتدريبات الجودو. بأيّ حال، جرّبت الفستان من دون سوتيان، واقفة على كرسيّ في الحمّام، كي تتمكّن من تأمّل نفسها في مرآة خزانة الأدوية الصغيرة.

الفستان مبهر، لكن يا ربّ السماوات! إنّها مجازفة خطرة! يكفي أن تنحني كي تطفئ سيجارة أو تتناول كأساً، وستقع كارثة!

دبّوس! بوسعها أن تلبس الفستان الأزرق دون سوتيان، إنّ ثبّتت القبّة من الأمام بدبّوس. أفرغت محتويات علبة مجوهراتها على السرير، وبعثرتها. كلّ القطع هي تذكارات من الماضي، أهداها إيّاها فرانك أو سواه من الرجال قبل زواجهما، بالإضافة إلى البروش الجديد الذي اشتراه لها جو في دنڤر: بروش فضيّ صغير على شكل حصان، مصنوع في مكسيكو، وسيفي بالغرض إن ثبّتته في المكان المناسب. أخيراً، بوسعها أن ترتدي الفستان!

سأسعد بالحصول على أيّ شيء الآن، قالت لنفسها، لقد فشل الكثير، ولم يبق إلّا القليل جدّاً من مخطّطاتي الرائعة تلك.

سرّحت شعرها مطوّلاً، إلى أن أصبح حيويّاً لامعاً، ولم يبقَ أمامها إلّا اختيار الحذاء والقرطين. لبست معطفها الجديد، وتناولت حقيبتها الجلديّة الجديدة المصنوعة يدويّاً، ثمّ انطلقت.

عوضاً عن أن تسوق سيّارتها الستوديبيكر العتيقة، جعلت صاحب الموتيل يطلب لها تاكسي هاتفيّاً. خطر لها فجأة ريثما انتظرت في مكتبه، أن تتصل بفرانك. لماذا؟! لا تعرف، لكنّ الفكرة ألحّت عليها. لِمَ لا؟! سألت نفسها، فمن الممكن أن تجري المكالمة على حسابه هو. سيُفاجأ بسماع صوتها، وسيكون سعيداً بدفع كلفة الاتّصال. وقفت خلف طاولة المكتب، وضعت سمّاعة الهاتف على أذنها، وأصغت بسعادة إلى عامل المقسم المسؤول عن المكالمات البعيدة، وهو يجري اتّصالاته كي يؤمّن لها الخطّ. سمعت صوت مقسم سان فرانسيسكو في البعيد يأخذ الرقم من الاستعلامات، وبعد كثير من الطنين والخربشة، رنّ الخطّ عند فرانك. انتظرت أن يردّ وهي تترقّب سيّارة التاكسي، ستصل في أيّة لحظة الآن، لكنّ السائق لن يمانع الانتظار قليلاً، لأنّه يتوقّع أصلاً أن يتأخّر الزبائن.

«الطرف الآخر لا يردّ» أبلغها عامل مقسم شايان أخيراً، «سنحاول لاحقاً، و...».

«كلّا» قالت جوليانا وهي تهزّ رأسها، محاولة الاتّصال بفرانك كانت مجرّد نزوة، لا غير. «لن أبقى هنا، شكراً لك» قالت، ثمّ أغلقت الخطّ، خرجت بسرعة من مكتب صاحب الموتيل الذي ظلّ واقفاً إلى جانبها طيلة

الوقت، كي يتأكّد من أنّ اتصالها لن يكلّفه مالاً عن طريق الخطأ. وقفت على الرصيف في عتمة المساء المنعش، وانتظرت هناك، وسرعان ما ظهرت سيّارة تاكسي جديدة تلمع، وقفت إلى جوارها. نزل السائق، ودار مسرعاً حول المركبة كي يفتح لها الباب، وها هي تنطلق بعد لحظات عبر شوارع شايان إلى العنوان المطلوب، مستمتعة بالرفاهيّة في المقعد الخلفيّ.

الأنوار تشعّ من منزل أبندسن، وسمعت جوليانا موسيقا وأصواتاً تنبعث من الداخل. إنّه منزل من طابق واحد، مزخرف بالجصّ، تحيط به شجيرات كثيرة، وحديقة واسعة نسبيّاً تحتلّ معظمها شجيرات الورود المتسلّقة. ما إن وضعت قدمها على الدرب المبلّط، حتّى تساءلت: هل أنا موجودة «هناك» حقّاً؟! هل هذه هي القلعة العالية؟! ماذا عن الشائعات والقصص؟!

المنزل متواضع، مُعتنى به، وكذلك الحديقة، وهناك درّاجة أطفال بثلاث عجلات مركونة على درب أسمنتيّ طويل.

هل أنا في منزل الشخص الخطأ؟! تساءلت، لقد أخذتُ العنوان من دليل هاتف شايان، لكنّه العنوان الموافق للرقم الذي اتّصلتُ به أمس من غريلي.

خطت إلى الشرفة التي يحيط بها درابزين من الحديد، ثمّ رنّت الجرس. من خلال الباب الموارب، شاهدت غرفة جلوس يقف بداخلها عدّة أشخاص، وستائر ڤينيسيّة على النوافذ، وبيانو، ومدفأة، ومكتبة... أثاث جميل! فكّرت، هل يقيمون حفلة يا ترى؟! لكنّهم لا يلبسون ملابس رسميّة.

ظهر صبيّ في حوالي الثالثة عشرة من عمره، يرتدي بنطال جينز وتيشيرتاً، وفتح الباب على مصراعيه. «نعم؟»، قال.

«هل السيّد أبندسن موجود؟ هل هو مشغول؟»، سألته جوليانا، فصاح الصبيّ على الفور منادياً على شخص ما في الداخل: «ماما! تريد أن تقابل بابا».

ظهرت إلى جانبه امرأة شعرها بنيّ محمّر، في الخامسة والثلاثين تقريباً، عيناها الرماديّتان قويّتان لا ترمشان، وابتسامتها راضية سعيدة، فأدركت جوليانا على الفور أنّها تقف أمام كارولين أبندسن.

«لقد اتّصلتُ بالأمس»، قالت.

«آه! أجل، بالطبع!»، واتّسعت ابتسامتها كاشفة عن صفّ من الأسنان البيضاء المنتظمة المثاليّة. إنّها إيرلنديّة! استنتجت جوليانا، العِرق الإيرلنديّ وحده ينجب مثل هذا الفكّ الأنثويّ.

«دعيني آخذ معطفك وحقيبتك. إنّه توقيت مثاليّ بالنسبة لكِ، نحن نستضيف بضعة أصدقاء. يا له من فستان جميل! إنّه من دار أزياء شيروبيني، أليس كذلك؟»، قالت السيّدة أبندسن، وقادت جوليانا عبر غرفة الجلوس إلى غرفة النوم، كي تضع أغراضها بين أغراض الآخرين على السرير.

«زوجي هنا في مكان ما» قالت، «ابحثي عن رجل طويل يضع نظّارة، ويشرب مشروباً عتيق الطراز». ذكاؤها يشعّ من عينيها كما لاحظت جوليانا، وشفتاها ترتعشان. نحن متفاهمتان للغاية، أنا وهي! استنتجت، أليس هذا مذهلاً؟! ثمّ قالت: «لقد قدتُ سيّارتي مسافة طويلة».

«أجل بلا شكّ... هذا هو!». قادتها كارولين أبندسن إلى غرفة الجلوس مجدّداً، ووقفت أمام مجموعة رجال. «عزيزي!» نادت، «تعال إلى هنا. إحدى قارئاتك هنا، وهي متلهّفة للغاية كي تقول لك بضع كلمات».

انفصل أحد الرجال عن المجموعة، واقترب منهما حاملاً كأسه. إنّه طويل، شعره أسود مجعّد، وجلده قاتم اللون أيضاً، عيناه بنيّتان أو بنفسجيّتان تتلوّنان بنعومة خلف عدستي نظّارته. يرتدي بزّة باهظة الثمن، مخيطة يدويّاً من الألياف الطبيعيّة -ربّما من الصوف الإنجليزيّ- تضخّم كتفيه العريضتين القويّتين دون الحاجة إلى قصّات إضافيّة. حدّقت جوليانا إلى البزّة بانبهار، لم ترَ مثيلاً لها من قبل قط!

«لقد قادت السيّدة فرينك سيّارتها من مدينة كانون سيتي في كولورادو، فقط كي تتناقش معك حول الجندب يُستثْقَل»، قالت كارولين.

«ظننتُ أنّك تعيش في قلعة!» قالت جوليانا.

انحنى هوثورن أبندسن كي يتفحّصها، ثم ابتسم ابتسامة متأمّلة وقال: «أجل، كنّا نعيش في قلعة، لكنّنا كنّا مضطرين للصعود إليها بواسطة مصعد، من ثمّ أصبتُ بفوبيا المصاعد. كنتُ سكران للغاية آنذاك، عندما أصبتُ بنوبة الهلع، لكن كما أتذكّر، وكما أخبروني، رفضتُ أن أضع قدمي فيه لأنّني

كنتُ متأكّداً أنّ يسوع المسيح هو من يسحب الكابل، وأنّنا سنصعد باتّجاهه، لكنّني صمّمتُ على عدم الوقوف».

لم تفهم جوليانا شيئاً، فشرحت لها كارولين: «منذ أن عرفتُ هوث، وهو يقول إنّه سيجلس إن رأى المسيح، ولن يقف أبداً».

تلك الترنيمة! تذكّرت جوليانا، ثمّ قالت: «إذن، لقد هجرتَ القلعة وعدتَ إلى البلدة».

«سأسكب لكِ كأساً»، قال هوثورن.

«حسناً» قالت، «لكن ليس شراباً عتيق الطراز». سبق لها أن لمحت طاولة المشروبات، التي تصطفّ عليها زجاجات ويسكي، ثلج، مقبّلات، كؤوس، خلّاط، وشرائح من التوت والبرتقال. سارت نحوها برفقة أبندسن، وقالت: «أريد آي. دبل يو. هاربر، مع ثلج، لا شيء آخر. أنا أحبّه... هل تعرف ما هو كتاب التنبّؤات؟».

«كلّا»، أجاب هوثورن وهو يسكب لها ما طلبته، فسألت بدهشة: «كتابُ التغيّرات؟».

«كلّا، لا أعرف ما هو» كرّر وناولها الكأس، لكنّ زوجته قالت له: «لا تُغِظْها!».

«لقد قرأتُ كتابك» قالت جوليانا، «لقد انتهيتُ منه هذا المساء في الواقع. كيف لك أن تعرف كلّ ذلك عن العالَم الآخر الذي كتبتَ عنه؟!».

لم يجب هوثورن، بل فرك شفته العليا ببراجمه، وحدّق إلى ما وراء جوليانا عابساً.

«هل استعنتَ بكتاب التنبّؤات؟»، سألت جوليانا، فرمقها بنظراته.

«لا أريد مزاحاً ولا خداعاً» قالت جوليانا، «أجبني دون أن تتذاكى».

مضغ هوثورن شفتيه، وحدّق بالأرض، ثمّ لفّ نفسه بذراعيه وتأرجح للأمام وللخلف على عقبيه. صمت الآخرون المتواجدون في الغرفة بالقرب منهما، ولاحظت جوليانا أنّ أسلوبهم تغيّر: لقد تلاشت سعادتهم الآن بسبب ما قالتْه، لكنّها لم تحاول أن تلطّف كلامها أو أن تتراجع عنه، كما لم تتظاهر بأنّها تحاول. السؤال فائق الأهميّة بالنسبة لها، فضلاً عن أنّها

جاءت من مكان ناء، وتكبّدت المشقّات، ولن ترضى بأقلّ من سماع الحقيقة من أبندسن.

«من الصعب أن أجيب على سؤالك»، قال أبندسن أخيراً.

«كلّا، ليس صعباً»، قالت جوليانا.

جميع من في الغرفة صامتون، يحدّقون إلى جوليانا التي تقف مع كارولين وهوثورن أبندسن.

«آسف» قال أبندسن، «لا يمكنني أن أجيبك مباشرة. عليكِ تقبّل ذلك».

«إذن، لماذا كتبتَ الرواية؟!»، سألت جوليانا.

أشار أبندسن إلى صدرها بكأس الشراب الذي يحمله بيده، وسألها: «ما هذا الدبّوس الذي تضعينه على فستانك؟ هل هو تعويذة لإبعاد الأرواح الخطيرة في العالَم الذي لا يتغيّر؟ أم مجرّد دبّوس يحافظ على كلّ شيء في مكانه؟».

«لماذا تغيّر الموضوع؟!» قالت جوليانا، «ولماذا تتجنّب سؤالي، وتعلّق بملاحظة لا معنى لها؟! هذا تصرّف طفوليّ».

«كلّ شخص لديه أسرار تقنيّة. لك أسرارك ولي أسراري، اقرئي كتابي واقبليه كما هو، مثلما أتقبّل أنا ما أراه» قال هوثورن أبندسن، وأشار إليها مجدّداً بكأس الشراب، «من دون أن أستفسر إن كان ما تحته حقيقيّاً، أم مصنوعاً من الأسلاك والدعامات وحشوات المطّاط. أليس هذا جزءاً من الإيمان بطبيعة البشر، وبما ترينه عموماً؟».

أحسّت جوليانا بأنّه منزعج ومرتبك الآن، وقد تخلّى كليّاً عن التهذيب وعن دور المضيف، كما لاحظت بطرف عينها أنّ السخط الشديد يلوح على وجه كارولين التي زمّت شفتيها، واختفت ابتسامتها نهائيّاً.

«في كتابك» أضافت جوليانا، «قلتَ إنّ هناك مخرجاً. أليس هذا ما قصدْتَه؟».

«اخرجي»، قلّدها أبندسن ساخراً.

«لقد فعلتَ الكثير لأجلي» قالت جوليانا، «لأنّني أدركتُ أنّه ما من شيء نخافه، وما من شيء نريده أو نكرهه أو نتجنّبه هنا، أو نهرب منه، أو نلاحقه».

وقف أبندسن أمامها وهو يهزّ كأسه. تفرّس فيها، ثمّ قال: «برأيي الشخصيّ، هناك أمور كثيرة في هذا العالم تستحقّ أن نضيء لها شمعة».

«أنا أفهم ما الذي يدور في رأسك» قالت جوليانا. بالنسبة لها، كلّ ما تراه الآن هو ذلك التعبير القديم المألوف ذاته الذي تراه على وجه أيّ رجل، لكن لم يزعجها أن تراه على وجه هوثورن أبندسن، ولم يخامرها الشعور ذاته تجاهه. «ملفّ الغستابو يقول إنّك تنجذب للنساء اللواتي يشبهنني»، قالت.

«لا وجود للغستابو منذ عام 1947»، أجاب أبندسن دون أن تتبدّل ملامحه إلّا لماماً.

« الشوتزشتافل إذن، أو أيّاً كان».

«اشرحي لنا ما تقصدينه»، قالت كارولين بحدّة.

«أودّ ذلك» أجابت جوليانا، «لقد جئتُ من دنڤر برفقة أحدهم، وسيأتون إلى هنا يوماً ما. عليك أن تذهب إلى مكان آخر، حيث لا يستطيعون العثور عليك، عوضاً عن البقاء في منزل مفتوح كهذا، والسماحِ لأيّ شخص بزيارتك كما فعلتُ أنا. لن أكون موجودة -سواء أنا أو غيري- كي نعترض الزائر التالي الذي سيدقّ بابك».

«أنت تقولين الزائر التالي» قال أبندسن بعد لحظة صمت، «ماذا حلّ بالرجل الذي جئتِ معه من دنڤر؟ لِمَ لا يأتي هو؟».

«لقد قطعتُ رقبته»، قالت جوليانا.

«هذا مدهش بالفعل!» هتف هوثورن أبندسن، «فتاة تقف أمامي وتخبرني بذلك، فتاة لم أرها من قبل!».

«ألا تصدّقني؟!»

هزّ رأسه موافقاً، وقال: «بالتأكيد!»، ثمّ ابتسم ابتسامة لطيفة خجولة بائسة. من الواضح أنّ تصديق كلامها، هو مسألة غير مطروحة أصلاً! «شكراً لكِ»، أضاف.

«اختبئ منهم من فضلك!»، رجته جوليانا.

«حسناً» قال، «جرّبنا هذا كما تعرفين، قرأتِ عنه على الوجه الخلفيّ للغلاف... عن كلّ تلك الأسلحة والأسلاك المكهربة. لقد كتبنا النبذة بهذا

الشكل، كي توحي بأنّنا ما زلنا نتّخذ احتياطات لا يُستهان بها!». نبرته كانت جافّة، ومتعَبة.

«احمِلْ سلاحاً على الأقلّ!» قالت زوجته، «أعرف أنّك يوماً ما، ستدعو شخصاً ما إلى هنا، وهذا الشخص سيطلق النار عليك وأنتما تتحدّثان، أعرف أنّ نازيّاً محترفاً سينتقم منك... وها أنت ذا تتفلسف هكذا! أعرف أنّ هذا هو ما سيحصل!».

«بوسعهم أن يصلوا إليّ إن قرّروا ذلك» قال هوثورن، «لن تصدّهم القلعة العالية، ولا الأسلاك المكهربة».

أنتَ جبريّ متطرّف! فكّرت جوليانا، ومستسلم لهلاكك. هل تعرف ذلك أيضاً، كما عرفتَ العالَم في كتابك؟! ثمّ قالت له: «كتاب التنبّؤات ألّف الروايةَ، أليس كذلك؟».

«هل تريدين الحقيقة؟»، سألها هوثورن أبندسن.

«بالتأكيد! إنّها من حقّي» أجابته، «بعد كلّ ما فعلتُه. أليس هذا ما حصل؟! أنت تعرف أنّه صحيح!».

«كتاب التنبّؤات» قال أبندسن، «كان نائماً نوماً عميقاً أثناء كتابتي للرواية، نائماً بأمان في زاوية مكتبتي». لم يبدُ المرح في عينيه، بل على العكس، بدا وجهه حزيناً وبائساً أكثر من السابق.

«أخبِرْها!» قالت كارولين، «إنّها على حقّ! يحقّ لها سماع الحقيقة، بعد كلّ ما فعلتْه من أجلك»، من ثمّ وجّهت كلامها لجوليانا: «أنا سأخبرك يا سيّدة فرينك. لقد انتقى هوث خياراته -آلاف الخيارات في الحقيقة- واحداً تلو الآخر، بالاستعانة بخطوط الآي-تشنغ: الحقب التاريخيّة، الموضوعات، الشخصيّات، الحبكة... استغرقه هذا سنوات! بالإضافة إلى ذلك، سأل كتابَ التنبّؤات أيضاً عن مقدار النجاح الذي سيحصده، فأجابه بأنّه سيلاقي نجاحاً باهراً، وهو النجاح الحقيقيّ الأوّل في مسيرته ككاتب. بالتالي، أنتِ محقّة! لا بدّ أنّك تستعينين شخصيّاً بالآي-تشنغ كثيراً على ما يبدو، كي تحزري ذلك».

«أتساءل لماذا يكتب كتابُ التنبّؤات روايةً؟!» قالت جوليانا، «هل فكّرتَ

بطرح هذا السؤال عليه؟ لماذا يكتب رواية عن هزيمة اليابانيّين والألمان؟! لِمَ اختار هذه القصّة تحديداً دون سواها؟! ما هو الأمر الذي لا يستطيع إخبارنا به مباشرة، كما فعل دائماً من قبل؟! لا بدّ أنّ الوضع مختلف الآن، ألا تظنّ ذلك؟».

لم يقل هوثورن، ولا كارولين، شيئاً.

«أنا وهو» قال هوثورن أبندسن أخيراً، «توصّلنا منذ زمن بعيد إلى اتّفاق حول حقوق المِلكيّة الفكريّة. إن سألتُه لماذا كتب الجندبَ يُستثْقَل، سأجيّر حصّتي بأكملها له، لأنّ هذا السؤال يفترض أنّني لم أقم إلّا بطباعة الرواية، وهذا الافتراض ليس صحيحاً ولا لائقاً».

«أنا سأسأله» قالت كارولين، «إن لم تسأله أنتَ».

«هذا السؤال لا يعنيكِ!» قال هوثورن، «دعيها تسأله هي»، والتفت إلى جوليانا قائلاً: «لستِ سويّة العقل، هل تعرفين هذا؟».

«أين هي نسختك؟» سألت جوليانا، «نسختي في السيّارة، في الموتيل، سأذهب لإحضارها إن لم تسمح لي باستخدام نسختك».

استدار هوثورن واتّجه إلى باب موصد، فلحقت به كارولين وجوليانا كلاهما عبر الغرفة المليئة بالناس. تركهما عند الباب، ثمّ عاد وبيده كتاب الآي-تشنغ بجزأيه التوأمين المغلّفين بغلاف أسود.

«أنا لا أستخدم عيدان اليارو» قال لجوليانا، «لأنّني أوقعها دائماً، ولا أعرف كيف أتحكّم بها».

جلست جوليانا إلى طاولة صغيرة في الزاوية، وقالت: «أحتاج ورقة وقلماً»، فأحضر لها أحد الموجودين ما طلبتْه، ثمّ تحلّق الجميع حولها وحول الزوجين أبندسن، كي يسمعوا ويشاهدوا ما سيحصل.

«اطرحي السؤال بصوت عالٍ من فضلك» قال هوثورن، «لا أسرار بيننا هنا».

«يا كتاب التنبّؤات!» قالت جوليانا، «هل ألّفتَ الجندب يُستثقَل؟ وما الذي يفترض بنا أن نتعلّمه؟».

«طريقتك بصياغة السؤال مُقلِقة ومتطيّرة!» علّق هوثورن، وقرفص كي يراقبها وهي ترمي القطع النقديّة في الهواء. «هيّا ابدئي» قال، وناولها ثلاث عملات معدنيّة صينيّة قديمة من النحاس الأصفر، مثقوبة في مركزها. «أنا أستعمل هذه العملات عادة»، أضاف.

بدأت جوليانا برمي قطع النقد المعدنيّة في الهواء. شعرت بالسكينة، وبأنّها على طبيعتها، بينما سجّل هوثورن الخطوط التي حصلتْ عليها. بعد أن انتهت من رمي القطع النقديّة ستّ مرّات، حدّق هوثورن بالورقة وقال: «الشمس في الأعلى، توي في الأسفل، فراغ في المنتصف».

«هل تعرف ما هو هذا الهكساغرام؟» سألته، «من دون الرجوع إلى الكتاب؟».

«أجل»، أجاب هوثورن أبندسن.

«إنّه تشَنغ-فو» قالت جوليانا، «الحقيقة الباطنة. أنا أيضاً أعرفه دون الرجوع للكتاب، وأعرف معناه».

رفع هوثورن رأسه، وتفحّصها. ملامحه متوحّشة الآن نوعاً ما! «هذا يعني أنّ كتابي حقيقي؟!»، سأل.

«أجل»، قالت.

«ألمانيا واليابان خسرتا الحرب؟!»، هتف بغضب.

«أجل».

عندها، أطبق هوثورن الكتابين، ووقف صامتاً دون أن ينطق.

«أنت تتهرّب من المسألة»، قالت جوليانا.

فكّر قليلاً، وأصبحت عيناه فارغتين كما لاحظت، لأنّ نظراته انقلبت إلى باطنه، وانشغلتْ به هو. من ثمّ، عاد الصفاء إليهما مجدّداً، فنخر، ثمّ قال: «لم أعد متأكّداً من أيّ شيء!».

«ينبغي عليك أن تؤمن» قالت جوليانا، فهزّ رأسه رافضاً.

«ألا يمكنك ذلك؟ هل أنت متأكّد؟»

«هل ترغبين بأن أوقّع لك نسخة من الجندب يستثقل؟»، سألها هوثورن أبندسن.

«أظنّ أنّه يجدر بي الرحيل» قالت جوليانا، ووقفت بدورها. «شكراً جزيلاً لك. أنا أعتذر على مقاطعة أمسيتكما هكذا، لطف منكما أن تستقبلاني هنا». تجاوزته هو وكارولين، وشقّت طريقها بين الأشخاص المتحلّقين حولهم، متّجهة إلى غرفة النوم كي تأخذ معطفها وحقيبتها.

عندما بدأت بارتداء معطفها، دخل هوثورن إلى الغرفة وقال: «هل تعرفين من أنتِ؟» ثمّ التفت إلى كارولين التي تقف بجانبه، وقال: «هذه الفتاة هي روح، روح من الأرواح ما تحت-أرضيّة، وهي...». رفع يده كي يفرك جبهته، فأزاح نظّارته عن عينيه بهذه الحركة. «إنّها من تلك الأرواح التي تهيم على وجه الأرض بلا كلل» قال، ثمّ ثبّت نظّارته جيّداً وأضاف: «إنّها تقوم بما تمليه عليها غريزتها، أي أن تعبّر عن وجودها. لم تقصد أن تظهر هنا كي تؤذينا، بل حدث ذلك ببساطة، كما يتقلّب الطقس. أنا سعيد لأنّها جاءت، ولستُ نادماً على معرفة الحقيقة التي كشفتْها لنا من خلال الكتاب. لم تكن تعرف من قبل ماذا ستجد هنا، وماذا ستكتشف. أظنّ أنّنا جميعنا محظوظون. دعونا لا نغضب ممّا حصل، اتّفقنا؟!».

«إنّها تثير الاضطراب، الكثير والكثير من الاضطراب!»، قالت كارولين.

«وكذلك تفعل الحقيقة» قال هوثورن، ومدّ يده إلى جوليانا. «شكراً لك على ما قمتِ به في دنفر».

صافحته، وقالت: «عمتما مساءً، وافعلْ كما قالت لك زوجتك، احملْ سلاحاً فرديّاً على الأقلّ».

«كلّا!» أجابها، «حسمتُ هذا الموضوع منذ زمن طويل، ولن أدعه يزعجني. بوسعي الاعتماد على كتاب التنبّؤات بين حين وآخر، خاصّة إن توجّستُ في أواخر الليل... هذا ليس سيّئاً في وضع مماثل». ابتسم قليلاً، ثمّ تابع: «في الواقع، الشيء الوحيد الذي يزعجني أكثر، هو إدراكي بأنّ أولئك الحثالة الذين يقفون الآن في غرفة الضيوف، أولئك الذين يسمعون ويشاهدون ما يجري، يشربون الكحول الموجود في منزلي حتّى آخر نقطة، بينما نقف نحن هنا ونتحدّث». استدار وتوجّه إلى طاولة المشروبات، كي يضيف ثلجاً إلى كأسه.

«إلى أين ستذهبين الآن، بعد أن أنهيتِ ما جئتِ من أجله؟»، سألتها كارولين.

«لا أعرف!». لم تزعجها هذه المشكلة. لا بدّ أنّني أشبه هوثورن أبندسن قليلاً، فكّرت، لأنّني لا أسمح لأمور محدّدة أن تُقلِقني، مهما كانت مهمّة. «ربّما أعود إلى فرانك زوجي. حاولتُ أن أتّصل به اليوم، وقد أحاول مرّة أخرى. سأقرّر ما الذي سأفعله لاحقاً»، قالت.

«على الرغم ممّا فعلتِه من أجلنا، وعلى الرغم ممّا تقولينه...»

«أنتِ تتمنّين لو لم أطأ هذا المنزل»، قاطعتها جوليانا.

« ستُعدّ أمنية رهيبة، إن كنتِ قد أنقذتِ حياة هوثورن حقّاً! لكنّني منزعجة للغاية، ولا يمكنني أن أستوعب كلّ ما حصل، وكلّ ما قلتِه أنت وهوثورن»، أجابت كارولين.

«يا للغرابة!» قالت جوليانا، «لم أتصوّر يوماً أنّ الحقيقة ستغضبكِ!». الحقيقة، فكّرت، رهيبة كالموت، لكنّ إيجادها أشدّ صعوبة. أنا محظوظة! ثم أضافت بصوت عالٍ: «اعتقدتُ أنّك ستسعدين وتتحمّسين مثلي! هذا سوء تفاهم إذن، أليس كذلك؟»، وابتسمت.

تمكّنت السيّدة أبندسن من رسم ابتسامة على وجهها بعد قليل، وقالت: «حسناً، عمتِ مساءً بأيّ حال».

بعد لحظة، سارت جوليانا على الدرب المبلّط الذي جاءت منه، تحت الضوء المنبعث من غرفة الجلوس، وبين الظلال القابعة خلف الحديقة والمنزل، ووصلت أخيراً إلى الرصيف المعتم.

ابتعدت دون أن تلقي نظرة أخرى على منزل أبندسن، وبحثت في الشوارع عن سيّارة أو عن تاكسي، برّاقة ومتحرّكة وحيّة، تعيدها إلى الموتيل.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

برؤية فيليب كيندرد ديك في هذه الرواية، تُهزَم روسيا والحلفاء في الحرب العالميّة الثانية، وتنتصر ألمانيا واليابان اللتان تحتلّان الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وتقسّمانها إلى:
أ) الولايات الأمريكيّة الباسيفيكيّة: في الساحل الغربيّ المحاذي للمحيط الباسيفيكيّ (الهادئ)، تحتلّها اليابان.
ب) ولايات جبال روكي: في الوسط، تُعَدّ منطقة عازلة بين القوّتين العظميين.
جـ) الساحل الشرقيّ الذي تحتلّه ألمانيا، يُقسم إلى «الولايات المتّحدة» في الشمال الشرقيّ التي تخضع لحكومة صوريّة تابعة للنازيّين، وولاية «الجنوب» في الجنوب الشرقيّ، التي يحكمها نظام عنصريّ متعاون مع النازيّين.

المترجمة

الألمان هم الملامون على خلق هذا الوضع، بسبب ميلهم إلى القيام بما يتجاوز قدراتهم. بالكاد انتصروا في الحرب، لكنّهم انطلقوا على الفور إلى استعمار المجموعة الشمسيّة، وسنّ قوانين في الوطن أدّت إلى... حسناً، الفكرة كانت جيّدة على الأقلّ! لقد نجحوا في نهاية المطاف بالقضاء على اليهود والغجر وشهود يهوه، وأجبروا -وهو ما هلّل له الجميع- السلافيّين على مغادرة أوروبا للأبد، والعودة إلى وطنهم الأمّ في آسيا، حيث نكصوا ألفي عام إلى الوراء، إلى ركوب ثيران الياك وإلى الصيد بالقوس والسهم. من ثمّ، هناك المجلّات العظيمة البرّاقة التي تُطبَع في ميونخ، وتُوزَّع في كلّ المكتبات وأكشاك الصحف. بوسع المرء أن يتماهى مع صورها الملوّنة، التي تشغل صفحة بأكملها، إذ إنّه سيرى نفسه في المستوطنين الآريّين، بشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء، الذين يحرثون الأرض ويقلّبونها ويحصدونها باجتهاد في أوكرانيا، سلّة قمح العالَم. السعادة تلوح على وجوههم بكلّ تأكيد، ومَزارِعهم وأكواخهم نظيفة. لقد اختفت تماماً صور البولنديّين السكارى الأغبياء، المتمدّدين بكسل على الشرفات المتداعية، أو أولئك الذين يبيعون بضعة رؤوس قرنبيط ذابلة في سوق القرية. كلّ ذلك أصبح من الماضي الآن، تماماً كالطرقات الترابيّة التي تتحوّل إلى مستنقعات طينيّة في موسم المطر، فتعلق فيها العربات.

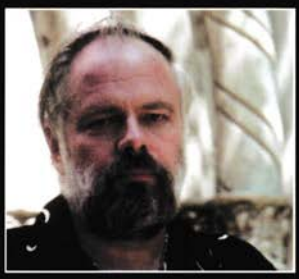

مكتبة
t.me/soramnqraa

9789933635374